محمد المبارك

فقه اللغة وخصائص العربية

دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية
وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد

مكتبة لسان العرب

دار الفكر

فقه اللغة وخصائص العربية

دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية
وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد

تأليف

محمد المبارك

عضو المجمع العلمي العربي

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيـان والذي جعل اللغة العربية لغة باقية تحمل إلى الناس في مضامينها الخير وتكون أداة التعارف بين ملايين البشر المنتشرين في آفاق الأرض تثبت ثبات الجبال الراسيات في اصولها وجذورها وتتجدد تجدد المياه الدافقة الدائمة التي تسقي الزرع وتحيي الأرض وتنبت الأزهار والأثمـار وصلى الله على من جعلت معجزته الكبرى كتاباً انزل بلسان عربي مبين ليرسم بالأحرف العربية طريق الهداية للناس أجمعين .

وبعد فقد كنت ألفت كتاباً في فقه اللغة درست فيه الكلمة العربية من شتى جوانبها : حروفها وأصواتها ، مادتها وتركيبها ، صيغتها وبنائها ، دلالتها ومعانيها . وكان هـذا الكتاب متضمناً لمحاضراتي التي ألقيتها على طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة دمشق خلال عدة سنوات . وبعد الفراغ من تأليف الكتاب وطبعه دعيت سنة ١٩٦٠ لالقاء محاضرات في فقه اللغة على طلاب معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة فرأيت أن أجمع نتائج هذه الأبحاث التي بسطتها في كتابي (فقه اللغة) وأستخرج في كل ناحية من نواحي الكلمة العربية الخصائص المميزة للغة العربية وصلة هذه الخصائص بعقلية العرب وتركيبهم الاجتماعي وعاداتهم وأضفت إلى الأبحاث السابقة بحث التعريب وبحث (الأخطاء اللغوية) الشائعـة . وحاولت في هذه الدراسة اقامة هيكل لنظرية شاملة في فقه اللغة للكلمة العربية المفردة تصلح أساساً للبحث والتوسع وضمنتها أبحاثاً طريفة جديدة كالوظيفة الفنية للكلمـة العربية ملفوظة ومكتوبة وتصنيف الأخطـاء الشائعة والتمييز بين الخطأ والتجديد الذي تستسيغه قواعد اللغة وأصولها . وقد جعلت من هـذه الأبحاث موضوع محاضراتي في معهد

الدراسات وقام المعهد بطبعها بعنوان(خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديدوالتوليد) وقد رأيت بعد أن نفدت نسخ الكتابين أن أجمع بينها في كتاب واحد لما بين أبحاثها من صلة وثيقة .

وقد جعلت كتاب فقه اللغة هو الأول لما يتضمنه من تعريف بالعلم وأقسامه ومن بسط للمباحث الأساسية المتعلقة بالكلمة المفردة بوجه عام ، ثم أتبعته بكتاب خصائص العربيـة ليكون ناظماً لشتات الأبحاث الأولى موصلاً القارىء إلى نتائج تلك الأبحاث مقدماً له صورة شاملة جامعة عن الكلمة العربية مع مقابلتها بخصائص العرب وأساليبهم في الحياة والتفكير . وقد سرت فيالكتابين على طريقة منطقيه متدرجة مبتدئاً بالحروف باعتبارها العناصرالصوتية التي تتألف منها الألفاظ المفردة ثم انتقلت إلى مادة الكلمة أو تركيبها من الحروف التيتألف منها وذلك هو بحث (الاشتقاق) ثم بحثت في تركيب الكلمة من حيث شكل التركيب أو صيغة البناء وهو البحث المعروف (بالأبنية والأوزان) ثم درست الكلمة من حيث (الدلالة والمعنى) وبذلك يتم بحث الكلمة المفردة من جميع جوانبها بطريقة تتدرج في تأليف الكلمة منعناصرها وأجزائها ومن مجموع نواحيها وجوانبها.وبذلك أكون قد سرت بالقارىء في طريقة تركيبية تؤدي بـــه إلى تلك الصورة الجامعة للكلمة العربية ، وتجنبت الطريق التي سلكها كثير من المؤلفين في فقه اللغة العربية في عصرنا هذا . وذلك أنهم أهملوا الربطالمنطقي بين الأبحاث ولم يلتفتوا إليه . فقد يبتدىء أحـدهم ببحث ظاهرة الاعراب وهو بحث يتصل بالكلام المركب وحقه أنيكون آخر أبحاث فقه اللغة ثم ينتقل إلى دلالة الحروف قبلالبحث في الاشتقاقمع أنها فرع عنه ونتيجة لهثم يتحدث عنالاشتقاق ثم يعود إلى الحروفباعتبارها أصواتاً ، وهو أول بحث يوجب المنطق التحليلي البـــدء به . ويبحث مؤلف آخر في علم الاصوات ثم يقفز رأساً إلى النحو ونظم الكلام وتركيبه ، ثم يعود إلى بحث الدلالة وهو بحث يتصل بالكلمة المفردة من حيث معناها . وهـذه الطريقة في التأليف إنما روعيت فيها ظروف المؤلف الشخصية في إنضاج بحث من الابحاث والانتهاء منه ، ولم تراع فيها طبيعـة الموضوع ،وتسلسل أجزائه ، والارتباط المنطقي بينها وما تقتضيه احدى الطريقتين التحليلية

أو التركيبية . وذلك بأن يبدأ بالأجزاء صعوداً نحو التركيب أو بالكلام المركب هبوطاً إلى الحروف والأصوات . والطريقة المنطقية في ترتيب الأبحاث هي التي تعطي القارىء صورة واضحة جامعة للكلمة العربية من جميع جوانبها في حال انفرادها أولاً ثم في حال تركيبها في الكلام . وأبحاثنا في الكتابين إنما تناولت الكلمة المفردة وأما الكلام المركب أو دراسة الجملة العربية ونظام تركيبها فذلك ما لم نبحثه في كتابنا هذا مع أنه جزء من فقه اللغة في مفهومه الحديث . وقد بحثه أسلافنا في علمي النحو والمعاني ، ولكن فقه اللغة يبحثه في افق أوسع ، ومن وجهة نظر أعم وأوسع ، مستفيداً من الموازنات بين اللغات المختلفة في طرائق تركيبها للكلام ، وملاحظاً اختلاف الشعوب في طرائق تعبيرها . وهو بحث لا يزال ينتظر جهد الباحثين في اللغة العربية وقد ألم ببعض جوانبه البحاثة الكبير الاستاذ العقاد في فصول موجزة من كتابه (أشتات مجتمعات) .

وإنا لنرجو أن نكون في كتابنا هذا قد أثرنا عدداً من كبريات قضايا اللغة العربية ورسمنا صورة شاملة تحليلية للكلمة العربية .

ولا بد لنا من الإشارة إلى أنه قد ظهرت مؤلفات جديدة في فقه اللغة منذ بدأت بتأليف كتابي فقه اللغة عام ١٩٥٧ ينبغي الإشارة إليها ، كما ظهرت قبل هذا التاريخ كتب لم أكن قد اطلعت عليها حين تأليف الكتاب . ومن هذه التآليف كتاب (مناهج البحث في اللغة) ، و(اللغة بين المعيارية والوصفية) للدكتور تمّام حسان وكتاب (دراسات في فقه اللغة) لصديقنا الدكتور صبحي الصالح ، و(دراسات في فقه اللغة) للدكتور ابراهيم السامرائي ، وكتاب (علم اللغة) للدكتور محمود السعران ، و(دور الكلمة في اللغة) ترجمة الدكتور كمال بشر وتأليف أولمان ، و(أشتات مجتمعات) للعقاد . وكلها مؤلفات جدية تطلع الدارس العربي على ما وصل إليه فقه اللغة في الأمم واللغات الأخرى وتقدم له أبحاثاً جديدة في اللغة العربية .

وإنا لنأمل أن تتسع في العربية هذه الأبحاث اللغوية وتنمو وتتجاوز مرحلة الاقتباس إلى مرحلة الأصالة المبنية على خصائص العربية من جهة وعلى القوانين العامة التي وصل إليها الباحثون في سائر اللغات . ذلك أننا في مرحلة بداية عهد جديد في فقه اللغة العربية والآفاق التي تبدت لنا من دراسات علماء اللغة المقارنة والعامة تقتضينا جهداً كبيراً للبحث في استقراء

ظواهر اللغة العربية، واستنبـاط خصائصها واتجاهاتها وتطورها . ولا يمكن الوصول إلى النتائج العامة الصحيحة إلا بعد استقراء وبحث طويلين . فنحن بحاجة إلى معاجم اشتقاقيـة جديدة، تربط بين معاني ألفاظ المادة الواحدة ، أو الأسرة اللغوية — كما يسميها الغربيون — وتتم ما بدأت به معاجمنا القديمة ، وبقي ناقصاً ، وتكمل ما شرع به ابن فارس في مقاييس اللغة . ونحن بحاجة كذلك إلى معاجم تدل على تطور معاني الألفـاظ بحسب العصور مع النصوص التي تشهد لذلك . ونحن بحاجة أيضاً إلى التعمق في دراسة الصيغ والأبنية وتطورها خلال العصور وإلى إتمام ما بدأ به علماء النحو والمعاني من دراسة نظم الكلام العربي وتركيبه ، مستفيدين من نتائج الأبحاث الجديدة في اللغات الأخرى في هذا الباب . إن الإلمـام الواسع — ولا نقول الإحاطة لتعذرها — باللغـة العربية ، مفرداتها ومعانيها ، وصيغها وتراكيبها ، والاطلاع على كلام العرب ، وما وصل إلينا من شعرهم ونثرهم على اختلاف العصور ، ولا سيما عصور الأصالة العربية ، شرط أساسي لمن يريد البحث المجدي المنتج في فقه اللغة العربيـة . وإن فقدان هذا الشرط والاكتفاء بما تحصل لدى علماء اللغة الأجانب من نتائج وتطبيقهـا على اللغة العربية في حدود المعرفة المعتادة المشتركة بين جميع المثقفين يؤدي إلى نتائج خاطئة وإلى افساد العربيـة وسوء فهمها وخصوصاً إذا لابس ذلك الخلط في الدراسة بين الفصحى والعامية فإن إقحام العامية في هذه المباحث اللغوية مفسد للغتنا وإقرار بشرعية العامية وتمهيد لاستساغتها وفي ذلك ما فيه من شعوبية يقصد إليها كثير من المستشرقين . ولذلك فإننا نرى أن تدريس فقه اللغة في الجامعات العربية يجب أن يكون مسبوقاً بدراسة متينة قوية لمتون اللغة العربية تولد عند الطالب ملكة عربية سليمة وتزوده بمعرفة واسعة للغة العربية وقواعدها قبل أن يتلقى قوانين فقه اللغة ومباحثه العامة والمقارنة .

والله نسأل أن يوفق أبناء هذه اللغة لخدمتها وصيانتها لتكون أداة للتعبير عن أفكار الناس ومصالحهم ووسيلة تفاهم وتعاون ولتكون كذلك أداة تحمل في طياتها الخير إلى الانسانية وتؤدي دوماً ما أدته من قبل حين نزل بها كتاب الله رسالة الحق والخير والسلام .

دمشق ٥ شوال ١٣٨٣ الموافق ١٨ شباط ١٩٦٤ محمد المبارك

الاستاذ في جامعة دمشق

مقدمة الطبعة الأولى

حمداً لله على ما منّ به عليّ من التوفيق لما فيه خدمة اللسان الذي به نزل الكتاب المبين وأدى به النبي العربي صلوات الله عليه رسالته إلى قومه وإلى الناس كافة ، فكانت العربية لغة الرسالة التي عم الانسانية خيرها ، ثم كانت لغة الحضارة التي انبثقت عنها فامتدت فروعها وبسقت دوحتها واينعت ثمارها علماً نافعاً وأدباً رفيعاً وفناً بديعاً وخلقاً كريماً وعملاً طيباً .

وبعد فقد عهدت إليّ كلية الآداب في عام ١٩٤٩ تدريس فقه اللغة فيها ، فصادف هذا هذا التكليف هوى في نفسي يرجع إلى عهد بعيد ، وشغلتني عنه صوارف كثيرة . فوجدت في ذلك راحة لنفسي واطمئناناً ، وألفيت في الاقبال على الأبحاث اللغوية إحياء لميل قديم موروث ، وحفظاً لجهد كنت بذلته في هذا السبيل .فطالما قضيت الساعات الطوال مع والدي رحمه الله في شرح المعلقات أو لامية العرب للشنفري أو المقصورة الدردرية⁽¹⁾ أو مقامات الحريري أو أمثالها من آثار لغتنا . وقد طفقت مذ كنت ناشئاً أعب من معين روايته الواسعة وأنهل من ينبوع لغته العذبة في جلسات خاصة أو مع زملائي في (تجهيز) دمشق أي مدرستها الثانوية أو في مدرسة الأدب العليا التي كانت النواة الأولى لكلية الآداب . وكان رحمه الله ، لكثرة ما عانى من كلام العرب ، وروى من لغتهم ، وعرف من سيرتهم وأخبارهم ، وأولع بأدبهم ، يخيل إلى جليسه والمستمع إلى حديثه أنه يصغي إلى واحد من رواة اللغة الأولين وعلمائها المتقدمين . ولم يكن شأنه مع اللغة العربية شأن عالم يدرسها أو يعلمها ، ولكنه كان معها في حياة وجدانية نفسية ، يعيش مع شعرائها الأولين ورواتها السابقين . وكانت معاجم اللغة ولا سيما لسان العرب لابن منظور بيئة يعيش في جوها ومع أصحابها ، ولم تكن اللغة عنده صناعة تعليم وقواعد للحفظ ، ولكنها كانت تجري منه مجري السليقة والطبع حتى غلبت

---

(١) وله عليها شرح في مجلد كبير لم يطبع اودعت منه نسخة في المجمع العلمي العربي بدمشق وكان أحد اعضائه وبقيت نسخة اخرى في مكتبتنا .

عليه في مجالسه الخاصة ، بل بين أهله وأولاده . وكانت المراسلات بيني وبينه حين سافرت إلى باريز سنة ١٩٣٥ للتخصص في الآداب تدور أكثر ما تدور حول القضايا العلمية ولا سيما اللغوية منها . ثم أعقبني انتقاله إلى رحمة ربه أواخر عام ١٩٤٥ حسرة شديدة وحرقة في نفسي إذ افتقدته وأنا أقدر ما أكون على الاستفادة من ثمار معرفته ، والعب من معينه ، والتمتع بمجالسته ، وكنت يومئذ مفتشاً اختصاصياً للغة العربية في وزارة المعارف .

لقد كان تدريسي فقه اللغة خلال سنوات عديدة في كلية الآداب دافعاً لي في الحقيقة إلى تهيئة أبحاث في الأقسام الأساسية من فقه اللغة . ولم يكن في العربية كتاب حديث جامع لهذه الأبحاث إلا كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي بجزئيه **اللغة وفقه اللغة**(١) . وقد حاول المؤلف فيهما أن ينقل الأبحاث الحديثة في الانكليزية والفرنسية إلى العربية وأن يجمع كذلك ما في مصادرنا العربية القديمة في الموضوع جمعاً منسقاً على التبويب الحديث لهذا العلم . وقد كان للمؤلف فضل السبق في التأليف الحديث في هذا العلم والجمع بين المصادر الغربية الحديثة والعربية القديمة جمعاً منسقاً غزير المادة . إلا أن الكتاب يبدو مؤلفاً من جزئين غير متمازجين عربي قديم وغربي حديث ؛ حتى كأن كل واحد منها وضع بمعزل عن الآخر . كما أن المؤلف أخذ بنظرات تبدو اليوم قديمة مسبوقة وتحتاج إلى إعادة نظر . فقد تقدمت أبحاث فقه اللغة ، ولا سيما في دلالة الألفاظ ، في السنوات الأخيرة تقدماً كبيراً ، وأصبح من الضروري متابعة التطورات الجديدة في هذه الأبحاث ، ومحاولة الاستفادة منها في اللغة العربية ، وتطبيق ما يمكن تطبيقه عليها . هذا مع الاعتراف بفضل الدكتور وافي فيما بذل من جهد كبير في تقديم هذه المادة الغزيرة وتنسيقها . وقد ظهرت في هذه الفترة الأخيرة كتب حديثة المنهج أبرزها مؤلفات **الدكتور ابراهيم أنيس عميد كلية** دار العلوم بالقاهرة وهي تتضمن محاولة ناجحة إلى حد كبير لتطبيق النظرات الحديثة في فقه اللغة العام والمقارن على اللغة العربية ويبدو ذلك واضحاً في كتابيه **من أسرار اللغة** المطبوع عام ١٩٥١

---

(١) ظهرت الطبعة الثانية لها سنة ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م .

ودلالة الألفاظ المطبوع عام ١٩٥٨ وقد جمع فيها بين الجدة والجودة(١) .

ولا بد لي من القول إن مباحث فقه اللغة هي من أهم المباحث العلمية التي لا تزال تتسع آفاقها وتتجدد نظراتها في اللغات الأجنبية بسبب تعمق الباحثين في كل لغة من اللغات المعروفة والتقائهم على صعيد فقه اللغة المقارن واستفادتهم من النظرات الحديثة في علم الاجتماع وعلم النفس والجمال . وأصبح لا غنى للباحث في فقه اللغة عن الاطلاع على ما كتب في اللغات الأجنبية في العقدين الأخيرين من السنين . وإذا كانت لا تزال مؤلفات فرديناند برونو F. Brunot ومييه Meillel وبالي CH - Bally وفاندريس Vendryes في اللغة الفرنسية محتفظة بقيمتها جديرة بالثقة لأنها احتوت على جماع ما وصل إليه البحث العلمي حتى الربع الأول من القرن العشرين في ميدان فقه اللغة في اللغات الأوربية ، فقد ظهرت ، بالاضافة إليها وبالإستناد إلى اسسها ومناهجها ،مؤلفات جديدة في مختلف أبواب اللغة ؛ كمؤلفات الاستاذ اولمان Ulmann الاستاذ في جامعة كلاسكو في بريطانيا بالفرنسية والانكليزية في دلالة الألفاظ(٢) وكمؤلفات ماروزو Marouzeau(٣) الأستاذ في السوربون وكريسو M . Cressot عميد كلية الآداب بنانسي وإن كان ما كتباه يتعلق بالاسلوب واللغة معاً .

ذلك ما دفعني إلى تأليف هذا الكتاب فبدأت بكتابته في أواخر عام ١٩٥٧ وطبعت يومئذ أكثر أقسامه ولم يتيسر لي انجاز تأليفه وطبعه إلا في أوائل هذا العام .

وقد اقتصرت في أبحاثه على ما يتعلق بالكلمة المفردة دون التراكيب ، إذ

---

(١) وقد ظهرت مؤلفات حديثة كذلك للدكتور تمام حسان ونأسف اذ لم تتح لنا فرصة الاطلاع عليها بعد .

(٢) نشر في عام ١٩٥١ كتابه The Princeples of Semantics في جامعة كلاسكو بالانكليزية ثم نشر في عام ١٩٥٢ بالفرنسية كتابه Précis de sémantique française وطبع في برن وهو أهم ما ألف حديثاً في الموضوع من حيث عمقه وما تضمنه من معلومات ونظرات .

(٣) له كتاب موجز في فقه اللغة ظهر في سنة ١٩١٦ ثم أعاد المؤلف طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٥٠ ومن أحدث مؤلفاته كتاب لغتنا Notre langue وقد نشره سنة ١٩٥٥ في باريز .

لا يزال البحث في الكلمات المفردة يؤلف القسم الأكبر من علم فقه اللغة وهو موضع عناية الباحثين . وإن كانت العناية بتراكيب اللغة أخذت تتزايد وانتهت إلى تخصيص قسم خاص لا يزال البحث في الكلمات ...... وكان موضوع تركيب الكلام يدرس في سائر اللغات في علم النحو من جهة وفي علم المعاني من علوم البلاغة من جهة أخرى . وقد اقتصرنا أيضاً على أبرز الأبحاث المتعلقة بالمفردات وتركنا الأبحاث التي تأتي في المرتبة الثانية إلى فرصة أخرى إن شاء الله .

أما طريقة التأليف التي انتهجناها في الكتاب فقد كانت دراسة اللغة العربية من خلال النظرات الحديثة والأبحاث المقارنة في فقه اللغة دون أن ندخل الضيم على العربية ، أو نلحق بأصولها وخصائصها غبناً أو ظلماً . فلم نحاول أن تكون دراستنا تقليداً أو احتذاء لدراسة اللغات الاخرى ، فإن للعربية عبقريتها وخصائصها لذلك لم نأخذ من النظرات الحديثة إلا اتجاهها ومناهجها ومسائلها العامة المشتركة بين اللغات .

كما أننا لم نعمد إلى حشد الشواهد الكثيرة من المصادر العربية القديمة ولم نأخذ منها إلا ما احتجنا إليه للاستشهاد أو لبيان ما سبق إليه علماؤنا من نظرات نافذة أو ابداع في البحث وكان أكثر اعتمادنا في الاستشهاد على ابن جني ، العبقري العظيم الذي سبق بكثير من نظراته علماء اللغة في العصور الحديثة ، وعلى السيوطي الذي يعتبر كتابه المزهر بحق أجمع كتاب ألف في اللغة في العصور السابقة كلها وأحسنها تبويباً وترتيباً مع ما فيه من نقول وشواهد ضاعت أصولها وفقدت الكتب التي أخذت منها .

وقد حاولنا أن يكون لأبحاث الكتاب فكرة تنتظم أجزاءه ونظرة تجمع نواحيه وتلم أطرافه وأن نقدم لأنظار الباحثين أساساً لنظرية شاملة في فقه اللغة العربية مع نظرات وآراء في شتى أبحاثه تقدمنا بها لتكون موضوعاً للتمحيص والبحث وخاصة في بحثي الأبنية أو الصيغ والاشتقاق .

هذا وإننا لم ننظر إلى العربية في عصر واحد من عصورها ولا وقفنا بها في حركتها في مرحلة أو تاريخ بل نظرنا إليها في جميع عصورها فاستشهدنا بأمثلة من مفرداتها ومعاني

ألفاظها المستعملة في العصر الحديث، كما استشهدنا بأمثلة من العصر الجاهلي وصدر الاسلام والعصر العباسي حين لا يكون في ذلك خروج عن سنن العربيه أو افساد لخصائصها الأصيلة.

وسرنا في بحثنا على طريقة المقارنة والموازنة بين العربية واللغات الحديثة وقصرنا أمثلتنا غالباً على الفرنسية فجاءت الأبحاث مزيجاً من فقه اللغة العام والمقارن وفقه اللغة العربية.

ولسنا ندعي فيما قدمنا من أبحاثنا العصمة من الزلل أو التنزه عن الخطأ أو الخلل وإنما نعرضه على الباحثين للنظر والتمحيص مبتغين بذلك خدمة هذه اللغة العزيزة علينا والتي هي جزء أساسي من مقومات شخصيتنا وسجل لآثرنا وتاريخنا وأداة لبناء مستقبلنا. والله نسأل أن يسدد خطانا وينير بصائرنا لنهتدي إلى الحقيقة ونحسن الاستفادة منها لعمل الخير ونصرة الحق.

دمشق ٩ شعبان ١٣٧٩
٧ شباط (فبراير) ١٩٦٠

* * *

اللغة ودراستها

علم اللغة

اللغة في شكليها الملفوظ والمكتوب اداة عجيبة تنتقل بها الأشياء التي تقع عليها حواسنا الى أذهاننا ، فكل ما تموج به الدنيا من مشاهد وصور ، في الطبيعة أو المجتمع ، ينتقل بصورة عجيبة الى الذهن بطريق الكتابة أو اللفظ . وكذلك كل ما في الذهن من خواطر ومشاعر وأفكار ينتقل الى الآخرين ، وينتقل من عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل . فاللغة هي الجسر الذي يصل بين الحياة والفكر ، تسبق وجود الاشياء أحياناً وتلحقها أحياناً اخرى . فالفكرة التي تجول في الذهن مجردة تنتقل الى شيء يتحقق وجوده ، وبعد أن يوجد الشيء ينتقل الى أذهان الآخرين بطريق اللغة . ولهذا كانت الكلمة رمز الخلق والايجاد «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»[1]. ولهذا كان الكلام في سالف الأزمان أداة السحر ، وقديماً وفق الشاعر الجاهلي إذ جعل الكلام نصف الحياة الانسانية أو أحد أجزائها الثلاثة .

---

(١) وورد في القرآن الكريم كذلك : (حقت عليهم كلمة ربك) و (حقت كلمة العذاب) (وكلمته ألقاها الى مريم) ويعني بها المسيح عليه السلام .

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقد قيل « اليد واللسان تلك هي الانسانية » . ويكفي لنقدر قيمة اللغة ان نتصور الحياة البشرية وقد حذفت اللغة منها كيف تكون وماذا يبقى منها ؟

إن اللغةعنصر أساسي في الحياة الاجتماعية راقية كانت ام ابتدائية . ونزيد على ذلك أن اللغة لم تقتصر على أن تكون أداة نقل وتسجيل للحياة والأفكار ، بل انها ساعدت على نمو الفكر ورقي الحياة . فهل كان بالامكان أن يرتفع الانسان من الواقع الجزئي ، كشجرة معينة يراها ، الى المفهوم العام أو المعقول الكلي لولا اللغة ؟ أليست هذهالألفاظ العامة التي نستعملها (كالشجرةوالانسان والبشرية والحرية) أشبه بالرموز الرياضية ؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها الى القيم ؟ أو لم تكن الرموز الرياضية والاقتصادية وسيلة للرقي في الميدانين الفكري والاقتصادي ؟ وكذلك اللغة فهي لم تقتصر على كونها معبرة عن التفكير بل كانت كذلك أداة نموه وارتقائه . وتستند اللغة في أداء وظيفتها الى التداعي أو التلازم الاصطلاحي بين الاصوات (مسموعة أو مكتوبة) والمعاني المقابلة لها بالنسبة الى كل لغة من اللغات . وثمة أدوات اخرى تؤدي وظيفة التعبير كالاشارات والصور ولكنها كلها دون اللغة في قدرتها التعبيرية وقابليتها للارتقاء بارتقاء الحياة الانسانية .

فما هي هذه الاداة العجيبة ؟ وهل يعرف حقيقتها كل من يستعملها ؟ ان

من يشعل النار من بسطاء الناس لا يعرف كنه هذه الحادثة الطبيعية وصلتها بقية الحوادث الطبيعية ؛ ولا يعرف كل من يستخدم مرافق الطبيعة كنه هذه المرافق. وكذلك استعمال اللغة فانه لا يقتضي معرفة كنه هذه اللغة وخصائصها والقوانين التي تسير بحسبها . اذ المعرفة التي نريدها هنا معرفة علمية تتناول قوانين اللغة وأسرارها في حين أن معرفة من يستعملونها معرفة سطحية كمعرفة أجسامنا ومجتمعنا والطبيعة التي نعيش فيها قبل أن ندرسها دراسة علمية عميقة .

ان من يحسن اللغة قد يعرف ألفاظها ومعانيها ونحوها وصرفها وأساليبها وفنون آدابها .ولكن هناك مسائل أبعد من ذلك تطرح على بساط البحث: من أين أتت هذه الألفاظ ؛ وكيف نشأت ؛ وهل الأصوات التي تتألف منها ثابتة أم متبدلة ؛ وما هي الصلة بين الألفاظ ومعانيها ؛ وهل الصلة بين اللفظ ومعناه ثابتة أم متحولة ؛ وكيف تتبدل معاني الألفاظ ؛ وهل لذلك قوانين عامة تنطبق على اللغة الواحدة وعلى اللغات جميعاً ؛

ثم هذه القواعد الصرفية والنحوية كيف نشأت ؛ وهل هي كذلك في جميع عصور اللغة ؛هل تمثل جانباً من عقلية أصحابها وهل تنطبق قواعد الصرف والنحو على اللغة في جميع عصورها منذ نشأتها حتى يومنا هذا فتظل ثابتة ؛ أم انها لا تمثل إلا مرحلة زمنية معينة من مراحل حياة اللغة . واذا كان الأمر كذلك فهل هناك قوانين أعلى منها تنطبق على اللغة في جميع عصورها ومراحلها؛

وهل هناك قوانين تسيطر على اللغات بصورة عامة كما تسيطر قوانين الطبيعة في كل مكان ؟ ان اللغة حادثة اجتماعية ، وقد أخذ علم الاجتماع ينظر الى الحوادث الاجتماعية كما ينظر علم الطبيعة الى الحوادث الطبيعية : يستقريء حوادثها وحالاتها ، ويستخرج قوانينها التي يرى أنها ثابتة . فلم لا تكون اللغة كذلك ؟ أوليست اللغة متصلة بحياة شعب من الشعوب تنتقل معه في الآفاق المادية والمعنوية ، ترتسم فيها صور بيئته الخصبة أو الوعرة ، وتنتقل معه وترافقه في رحلاته وغزواته ، وتنعزل معه اذا انعزل وتختلط بغيرها اذا اختلط بغيره من الشعوب ، ثم هي ترافقه في آفاق حياته الفكرية ، لتنخفض فلا تسجل إلا الحسيات ، وتحلق اذا حلق الشعب في آفاق التفكير العلمي والفلسفي .

واللغة تحتفظ ببقايا ورواسب من الماضي ولو زالت تلك الصور . فكلمة (صفقة البيع) تصور لنا وضعاً ماضياً كان يحدث بين المتبايعين ومعناها ضرب اليد على اليد وكذلك كلمة (عقد) إذ كان المتعاقدان على أمر يعقدان طرف ثوبيهما .

وكذلك كلمة (صراط) في العربية المأخوذة عن الرومية (اللاتينية Stratum) وهي في الفرنسية (estrade) وفي الانكليزية (street) وفي

الالمانية (Strasse) ومعناها في الأصل الطريق المبد تدلنا على أن العرب عرفوا الطرق المعبدة عن جيرانهم الرومان وان بين الامتين صلات .

فهل تدرس اللغـة في علم الاجتماع أو (عـلم الاجتماع اللغوي) حيث تدرس دراسة اجمالية من حيث صلتها بالحوادث الاجتماعية الاخرى ؟ .

ان للغة حياة مستقلة ووجوداً ذاتياً . فهي ، وإن كانت تتأثر بحوادث المجتمع ، تتفاعل حوادثها تفاعلاً خاصاً وتسير وفقاً لقوانين خاصة بها . فلا بد أن تدرس دراسة مستقلة في علم خاص على ان تراعى في دراستها هذه الصلات بالمجتمع وحوادثه . فهناك دراسة خاصـة للغة وعلم خاص تبحث به اللغة بوجه عام وعلم اللغة بهـذا المعنى يختلف عن دراسة جزئيات اللغة ، فعلم النحو والصرف وعلم مفردات اللغة تبحث اللغة في نطاق محـدود ضيق : فعلم مفردات اللغـة يبحث في مفردات معينة جزئيـة ويعطينا معانيها وعلم النحو والصرف يعطينـا قواعد لغة معينة في عصر معين فلا تطبق مثلا قواعد (إن وأخواتها) أو (كان وأخواتها) على لغة اخرى فقواعد النحو والصرف ضيقة النطاق لا تنطبق إلا على لغة واحدة وفي حدود معينة من الزمان والمكان .

فعلم اللغة : هو هـذه الدراسة الشاملة للغة بوجه عام لاستخراج قوانينها الخاصة بها ومعرفة تطورها سواء أكان ذلك في أصواتها وألفاظها أو مفرداتها ومعانيها أو تراكيبها وأساليبها . ومن هنا يتجلى صلة هـذا العلم بما ذكرناه من

العلوم اللغوية أو غيرها . فعلم النحو والصرف ومفردات اللغة هذه ليست إلا جزئيات بالنسبة اليه . ويستعين علم اللغة كذلك بعلوم أخرى كعلم الاجتماع وهو أكثر العلوم الاخرى غير اللغوية صلة باللغة فانه يبحث اللغة على أنها حادثة اجتماعية من حيث تأثرها بالحوادث الاجتماعية الاخرى . وكذلك علم النفس فانه يدرسها على أنها حادثة نفسية . فاللغة اذاً جانب اجتماعي وآخر نفسي . ومثلها علم الاصوات فاللغة في حد ذاتها حادثة صوتية فيزيولوجية بمعنى أنها أصوات تحدث بطريق معينة بالنسبة الى أعضاء جسم الانسان ويمكن أن تدرس في علم الفيزياء الصوتي الذي يدرس تواترها وشدتها وما أشبه ذلك من مسائل .

ليس من السهل الميسور دراسة اللغة . ذلك ان اللغة أداة مركبة معقدة فهي ذات جوانب كثيرة وتتألف من عناصر متعددة وتأخذ خلال الزمن اشكالا مختلفة تتنوع وتتعدد بتعدد البيئات والمجتمعات والطبقات . فهي كما قلنا آنفاً تتألف من حوادث (صوتية) يبحثها علم الفيزيولوجيا وعلم الفيزياء و(نفسية) يبحثها علم النفس و (اجتماعية) يبحثها علم الاجتماع و (تاريخية) يسردها علم التاريخ ويسجلها و (جغرافيه) فيبحث علم الجغرافيا اللغوي في توزعها في القارات والمناطق والاقاليم . وهي تتألف من عناصر هي : الأصوات والالفاظ المفردة باعتبار مادتها وصيغتها ومعناها والتراكيب. وهذه العناصر جميعها كثيراً

ما تتبدل وتتطور خلال الزمن و كثيراً ما تتغير بتغير الاقاليم والمهن والطبقات.

فعلم اللغة : اذن قائم بذاته مستقل عن هذه العلوم جميعاً وان كانت له بها صلات وكان يستعين بها في دراسته ، فهو دراسة للكلام البشري بوجه عام في تكوينه وعناصره وتركيبه ، وفي حركته وتطوره ، وفي ادائه وظيفته التعبيرية وفي تحققه في الوجود في إشكال متعددة هي اللغات المختلفة ، وهو يختلف عن علم قواعد النحو والصرف وعلم مفردات اللغة من عدة وجوه في شموله وعمومه ونظرته التطورية .

وعلم اللغة قد يكون عاماً يتناول اللغة بوجه عام وتكون ساحة البحث فيه شاملة للغات المعروفة . يدرس الظواهر اللغوية في جميع اشكالها . وقد يكون خاصاً بلغة من اللغات يتتبع ظواهرها وخصائصها وتطورها وقوانينها ويسمى حينئذ علم اللغة الخاص كعلم اللغة العربية .

* * *

عناصر اللغة واقسام علم اللغة

للغة عناصر تتألف منها وترجع بالتحليل اليها وهي :

١ — الاصوات التي تتألف منها الالفاظ .

٢ — الالفاظ المفردة او الكلمات .

٣ — التراكيب .

ولكل من هذه العناصر مباحث خاصة هي فروع لعلم اللغة وقد أصبح بعضها علماً افرد بالبحث والتأليف .

١ — فعلم الاصوات اللغوية : (Phonétique)

يدرس الحروف من حيث هي اصوات فيبحث عن مخارجها وصفاتها وعن قوانين تبدلها وتطورها بالنسبة الى كل لغة من اللغات وفي مجموع اللغات القديمة والحديثة .

وقد عني العرب قديماً بهذا العلم وذلك لضبط تلاوة القرآن ولعلهم اقدم من بحث هذه المباحث الصوتية كما اننا نجد مباحث صوتية منثورة في كتب الصرف واللغة .

وقد اصبح لهذه المباحث في العصر الحديث كتب خاصة بل معاهد خاصة كمعهد المباحث الصوتية في باريز .

٢ — الالفاظ

اما الالفاظ فقد تناولها علماء اللغة من وجوه عدة فبحثوا :

١ — في اشتقاقها وارجاعها الى مادتها الاصلية سواء ا كانت من اللغة نفسها أم منقولة من لغة اخرى ف(علم الاشتقاق) (Etymologie) يبحث في الاطوار التي تقلبت فيها الكلمة ويحدد بذلك صلتها بالالفاظ الاخرى وقرابتها وتحولاتها . ويدخل في هذا الباب في اللغة العربية بحث (النحت) و (التعريب) .

٢ — وبحثوا كذلك في شكل الكلمة وصيغتها او بنائها (Morphologie) ولا شك ان هذا الموضوع هو موضوع علم الصرف ولكن علم الصرف لا يخرج الى الافق الذي يبحث فيه علم اللغة الموضوع نفسه اذ يبحث علم اللغة في نشوء الصيغ وتطورها خلال العصور ويقارن في ذلك بين اللغات ولا سيما المتقاربة منها .

٣ — وبحثوا بعد هذا في معاني الالفاظ من نشوء هذه المعاني الى تقلبها خلال العصور وتطورها وفي قوانين هذا التطور في اللغات وما للالفاظ من حيث معانيها من خصائص وصفات . وقد افردت هذه المباحث في علم معاني الالفاظ (Sémantique) ولا شك انه لا بد من تعاون علمي الاشتقاق ومعاني الالفاظ لشدة اتصال احدهما بالآخر .

٣ — التراكيب

واما التراكيب فيبحث علم اللغة في تراكيب اللغات ونظم الكلام، وتركيب اجزائه فيها وفي طريقة ربط الكلام والادوات الرابطة ووظائف الكلمة في التركيب واحوال اعرابها وتعليل ذلك كله وصلته بنفسية المتكلم، وعقلية الشعب وتطور التراكيب خلال العصور واسبابه . وهو بحث كما يرى القارىء اوسع افقاً من علم النحو ومن علم المعاني الذي هو عند العرب احد علوم البلاغة الثلاثة وان كان علم اللغة في هذه المباحث يستفيد من هذين العلمين ولكن ليخرج الى افق اوسع .

يضاف الى هذه المباحث الخمسة : (١) الاصوات (٢) والاشتقاق (٣)، والصيغ (٤) والمعاني (٥) والتراكيب ابحاث عامة في اللغة منها :

(٦) التقاء اللغات وتأثير بعضها في بعض سواء من جهة المفردات والتراكيب او غيرها ويدخل بحث التعريب في هذا الباب .

(٧) واللهجات التي تتفرع عن اللغة الواحدة والبحث في كيفية نشوئها وتفرعها وتطورها واسباب ذلك وقد افردت لذلك مباحث جمعت في علم اللهجات (Dialectologie) .

(٨) والرسم او الكتابة وهو كذلك بحث ملحق بعلم اللغة ذلك ان اللغة في شكلها المكتوب لها مشكلاتها الخاصة بالنسبة الى كل لغة من اللغات.

ولها تطورها الذي لا يسير دوماً مع تطور اللغة نفسها .

ولا بد لنا بعد هذا من القول ان البحث في نشوء اللغة بوجه عام يبحث عادة في كتب اللغة قديماً وحديثاً . ولكننا اذا اردنا ان نبقي علم اللغة وضعياً يستند الى الاستقراء ويعتمد على الاستنتاج ليصل الى قوانين تشبه القوانين المستخرجة من الطبيعة فلا مناص من اخراج البحث في نشوء اللغة من نطاق علم اللغة ليكون في نطاق المباحث الفلسفية التي تبحث في منشأ المادة ونشوء الحياة . ذلك ان بحث نشوء اللغة لا يزال يستند الى حد كبير الى التقدير والتخمين ويشبه هذا الموقف تمام الشبه موقف علم الكيمياء وعلم الفيزياء وعلم الحياة من اصل المادة والقوة والحياة في الكون اذ لم تعد هذه المباحث جزءاً من تلك العلوم وان كان الباحث حديثا في هذا الموضوع يجد بين يديه من المعلومات اللغوية والاجتماعية والنفسية ومن المقارنة بين اللغات الحديثة والقديمة واحوال الاقوام الابتدائية وغيرها ما يستطيع الاستفادة منه لبحث نشوء اللغات مما لم يكن معلوما عند الباحث القديم . هذا عدا أن البحث في أصل اللغة ومنشئها لا يعود على علم اللغة بفائدة كبيرة .

٥ — علم اللغة عند العرب

١ — بدأ علم اللغة عند العرب بتدوين مفردات اللغة وجمعها ، اذ انكب للغة على جمعها وتصنيفها . وكانت الغاية الاولى من ذلك فهم القرآن

وشرح الفاظـه ، فظهرت مؤلفات كثيرة وهي رسائل تجمع المفردات اللغوية المتعلقة بموضوع واحد . ولو رجعنا الى كتاب الفهرست لابن النديم لوجدنا في اخبـار اللغويين والنحويين عناوين متشابهة لمؤلفين مختلفين مثل كتاب خلق الانسان والخيـل والابل والانواء والنبات والشجر والوحوش والغنم والسلاح .

نجد هذا في أخبـار الاصمعي وأبي زيد وقطرب والاخفش والنضر ابن شميل وغيرهم . ونجـد الى جانب هذه الرسائل الخاصة كتباً في غريب القرآن وغريب الحديث وفي نوادر اللغة لهؤلاء اللغويين انفسهم . وقد كانت هـذه المؤلفات كلها نواة للمعاجم الـكبيرة التي الفت في المرحلة الثانية من مراحل التأليف في اللغة مرحلة الجمع الشامل .

٢ ــ ولم تتأخر كثيراً عن هـذه المرحلة الاولى مرحلة التعليل واستنتاج القواعد والقوانين اللغوية مبتدئة بطور البساطة متدرجة شيئاً فشيئاً نحو البحث العلمي في اللغة . فظهرت كتب النحو واللغة في القرن الثاني للهجرة ومنهـا الكتاب لسيبويه (١٨٠ هـ) والمقاييس في النحو والاشتقاق للاخفش (٢٢١هـ) والعلل في النحو لقطرب (٢٠٦ هـ) والقلب والابدال والاشتقاق للاصمعي (٢١٤ هـ) والابنية والتصريف للجرمي والتصريف للمازني (٢٤٩ هـ) [1]

(١) هذه السنوات تشير إلى تاريخ الوفاة .

وقد تطور البحث اللغوي وارتقى حتى بلغ مستوى عالياً في اواخر القرن الرابع للهجرة في مؤلفات احمد بن فارس صاحب كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية ، وابن جني صاحب الخصائص . وقد ظهرت لدى هذين المؤلفين فكرة واضحة عن علم اللغة بالمعنى المعروف في عصورنا الحديثة على انه علم القوانين العامة الناظمة لجزئيات اللغة وبمعنى اعم واشمل من علم النحو .

قال ابن فارس في مقدمة كتابه الصاحبي :

« إن لعلم العرب أصلاً وفرعاً ، أما الفرع فمعرفة الاسماء والصفات كقولنا رجل وفرس وطويل وقصير وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلم . وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطبتها وما لها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً » .

ولكن الفكرة عند ابن جني اوضح منها عند ابن فارس اذ يصرح ان هذا العلم بالنسبة الى النحو كاصول الفقه بالنسبة الى الفقه . ويرى نفسه في هذا المجال فاتحاً لطريق جديدة لم يسبقه اليها احد الا الاخفش اذ ألم بها الماما . قال ابن جني في مقدمة كتابه الخصائص :

« هـــذا كتاب لم أزل على فارط الحال ، وتقادم الوقت ، ملاحظاً له ، عاكف الفكر عليه ، منجذب الرأي والروية إليه ، وادّاً أن أجد مهملاً أصله به ، أو خللاً ارتقه بعمله ، والوقت يزداد بنو اديه ضيقاً ، ولا ينهج لي الابتداء طريقاً ، هذا مع اعظامي له ، واعتصامي بالاسباب المناطة به ، واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في علم العرب ، وأذهبه في طريق القياس والنظر ، وأعوده عليه بالحيطة والصون ، وأجمعه للادلة على ما أودعته هـــذه اللغة

الشريفة ، من خصائص الحكمة ، ونيطت به علائق الاتقان والصنعة ، فكانت مسافر وجوهه ، ومحاسر أذرعه وسوقه ، تصف لي ما اشتملت عليه مشاعره ، وتجيء إلى بما خيطت عليه أقرابه وشواكله ، وتريني أن تعريد (١) كل من الفريقين : البصريين والكوفيين عنه ، وتحاميهم طريق الالمام به ، أو الخوض في أدنى أو شاله وخلجه ، فضلاً عن اقتحام غماره ولججه ، إنما كان لامتناع جانبه ، وانتشار شعاعه ، وبادي تهاجر قوانينه وأوضاعه ، وذلك أنا لم نر أحداً من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو ، على مذهب أصول الكلام والفقه » .

* * *

(١) التعريد = الهرب والفرار .

فقه اللغة في العصر الحديث

يعتبر فقه اللغة من العلوم الحديثة في هذا العصر وقد كان العرب في هـذا العـلم أسبق من غيرهم للسير به خطوات كبيرة وبلوغ المرحلة التي اصبح فيها علماً قائماً بذاته ، واضح المعالم ، علمي الاسس والطريقة . ولكن هذه المباحث اللغوية في العصر الحـديث خطت خطوات كبيرة اخرى بفضل ما أتيـح للباحثين من وسائل كانت مفقودة أو قليلة في العصور السالفة منها ما قدمه علم النفس وعلم الاجتماع من مباحث ونتائج ونظريات وحقائق لم تكن منكشفة من قبل ، وهي مباحث ذات صلة قوية باللغة التي هي حادثة نفسية اجتماعية في آن واحد . ومنها اتساع نطاق معرفة اللغات القديمة والحديثة ، فقد بلغ عـدد اللغات المعروفة ، المستعملة والمتروكة ، حداً لم يعرف من قبل في أي عصر من العصور . ففي اواخر القرن الثامن عشر ألف (بالاس) أحد علماء اللغة في فرنسا كتابا استشهد فيه بمئتين وثمانين لغـة ما بين لغة ولهجـة من لغات اوربا وآسيا وافريقيا وامريكا ولهجاتها .

وبلغ عدد اللغات التي نقلت اليها الانجيل جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا المؤسسة عام ١٨٠٤ سبع مئة وسبعين لغة في عام ١٩٤٧ .

وقد غدا لكل لغة من اللغات الحية لغويون اخصائيون ، وكثرت الدراسات اللغويه في كل لغة من اللغات المشهورة القديمة والحديثة ، وصنفت اللغات في مجموعات واسر كاللغات السامية واللغات الهندية الاوربية واللغات اللاتينية واستمر البحث في اللغات القديمة .

وقد نشأ علم اللغة عند الغربيين على دراسة القواعد النحوية وبعض المباحث الفلسفية المتعلقة باللغة وأعان على ذلك دراسة بعض اللغات القديمة كما كان للكتابة منذ القديم أثر في نشوء هذا العلم ونموه . فان تثبيت اللغات في شكل مكتوب أطلعنا على مراحل اللغة الواحدة في تطورها ودعا الى دراسة النصوص القديمة . وهذا يشبه ما حدث في تاريخ اللغة العربية اذ يلاحظ ان استنباط قواعد النحو وتدوين ملاحظات اللغويين انما ظهر إثر تدوين نصوص العصر الجاهلي .

وقد ظهر علم اللغة التاريخي في اوربا في القرن الثامن عشر إثر دراسة اللغات المختلفة واتصال الامم بعضها ببعض ، كما ظهر في القرن التاسع عشر علم اللغة المقارن . وقد أثارت فكرة تطور اللغات التي ظهرت للباحثين في القرن الثامن عشر من الاطلاع على اللغات وتاريخها أفكاراً عديدة عن منشأ اللغة . ولكن توسع البحث في علم اللغة التاريخي المقارن صرف النظر عن هذا البحث الى البحث في تاريخ اللغات .

منهج البحث في اللغة

وتقوم طريقة البحث في علم اللغة في هذا العصر على الاسس التالية :

اولا — الاستقراء :

ان ما بلغه هـذا العصر من السعة الكبيرة في معرفـة اللغات القديمة والحـديثة ، الشرقية والغربية ، هيأ للباحث اللغوي مادة غنية جـداً للبحث والدرس . فاذا ما اراد بحث ناحيـة من نواحي اللغة استطاع ان يستمد الامثلة والشواهد الكثيرة من عدد كبير من اللغات وبذلك يكون بحثه أدق وأضبط واستنتاجاته أصح وأحكم . واذا أراد البحث في تطور معاني الالفاظ عمـد الى مباحث الاخصائيين في كل لغة من اللغات ليستمد من ابحاثهم الخاصـة ويستقي من أمثلتهم ما يعينه على استخراج القوانين والضوابط التي تنطبق على هـذه اللغات جميعاً . وكذلك الشأن في بحث الاشتقاق أو الأصوات اللغويه أو التعبير عن الازمنة في الافعال مثلا .

ولا مجال للمقارنة مطلقاً بين هذه المادة التي لا تنفد من دراسات اللغات التي تجاوزت المئات في عـددها واختلفت في مراحل تطورها وبين المـاده التي كانت عدة الباحث في اللغة قديماً إذ كان العالم لا يعرف إلا لغته وقد يزيد على ذلك بمعرفة لغة أو لغتين ويندر أن يتجاوز ذلك الى بضع لغات .

ثانياً — المقارنة :

لا شك أن استقراء الشواهد والامثلة من لغات مختلفة يفسح المجال للموازنة بين هذه اللغات ومعرفة ما بينها من تشابه أو اختلاف وما بين خصائصها من اشتراك أو تباين والضوابط والقوانين التي تنظمها جميعاً أو تنظم بعضها دون بعض . وذلك مما يمكن الباحث من التحقيق في صحة ما يستنتجه من قوانين عامة في اللغة فقد تنكشف للباحث من الحقائق في لغة من اللغات ما غمض أو استتر في لغة اخرى . وقد يبعث التشابه في بعض الأمثلة أو الشواهد اللغوية من لغات مختلفة على التفكير في الصلة بينها أو تماثل تطورها أو انطباقها على قانون واحد .

ثالثاً — اعتبار التطور في اللغة

ان قواعد النحو في كل لغة انما استنتجت وسجلت في عصر من عصور اللغة ، فلو ابتعدنا عن ذلك العصر ونظرنا الى اللغة فيما قبله من العصور أو ما بعده لوجدنا ان تلك القواعد قد تختل قليلا أو كثيراً . وكذلك مفردات اللغة التي تدون معانيها في زمن من الازمان لا تحافظ دوماً على تلك المعاني ولم تكن كذلك ملازمة لها منذ الازل . فان الالفاظ قد تتبدل معانيها قليلا أو كثيراً خلال الزمن . وعلى ذلك فان سائر عناصر اللغة من ألفاظ وتراكيب وقوالب ومعان ، لا تبقى ثابتة على الزمن بل تتحول وتتبدل . ولذلك فان

البحث في اللغة لا يكون على أساس النظر الى وضعها في عصر من العصور بل على اعتبار المراحل التي مرت بهـا خلال العصور بالنسبة الى كل ناحية من نواحيها كالاصوات والصيغ والمعاني وطرائق تركيب الكلام والتعبير عن الزمن أو العدد (الجمع والمفرد) أو الجنس (المذكر والمؤنث).

فان اللغة كسائر الظواهر الاجتماعية يطرأ عليهـا التبدل والتغير ولهـذا وجبت مراعاة فكرة التطور في سائر الابحاث اللغوية. وهـذا ما يفعله الباحثون في علم اللغه في هـذا العصر. ولا بد لنا من ابـداء بعض الملاحظات المتعلقة بفكرة تطور اللغة والتي تدفع الالتباس وتلقي شيئاً من النور عليها:

١) لا يكون التطور واحداً في جميع اللغات من ناحية شموله فقد يكون شاملا لساحات واسعة من اللغة أو مقصوراً على نواح دون الاخرى كما انه قـد يكون بطيئاً لا يحصل إلا في الآماد الطويلة او سريعاً تبـدو نتائجه في زمن قصير لا يعدو العشرات من السنين. فاللغة العربيـة لم تتغير مثلا اصواتها (حروفها) منذ مدة تزيد على خمسة عشر قرناً وكذلك صيغها وأصول موادها على حين انا نري اللغة الفرنسية مثلا قد تبدل منذ خمسة قرون الكثير من عناصرها كالاصوات وتصاريف الافعال وبعض التراكيب ومعاني اكثر الفاظها

٢) ان التطور في اللغة يمكن ان يسير في احـدى طرق كثيرة لا يمكن التنبؤ سلفاً عن التي سيسير التطور فيها. ذلك ان العوامل المؤثرة في تطور

اللغة لا يمكن ان تضبط وتحصر بل ان بعضها غير قابل للحصر بطبيعته فان للحوادث التاريخية والمصادفات وغيرها من الحوادث والعوامل الخارجة عن النطاق اللغوي أثراً في مجرى التطور اللغوي وهذه الحوادث من العسير اذا لم نقل من المستحيل حصرها والتنبؤ عنها قبل وقوعها . فان التقاء لغة بأخرى في بلد من البلاد مثلا إثر استيلاء أمة على أخرى ينتج نتائج كثيرة تتعلق بلغتي هاتين الامتين إذ تتأثر احدى اللغتين بالاخرى أو كل واحدة منها بالاخرى سواء من ناحية تلفظ الحروف أو تداخل مفرداتها او غير ذلك من النواحي .

وان للعوامل الدينية والقومية أثراً كذلك في توجيه هذا التطور في وجهة دون اخرى مع ان الاصل امكان سيره في كل من هذه الوجهات دون مرجح . ومثال ذلك رغبة البلاد العربية اليوم في العودة الى الفصحى والابتعاد عن العامية اللهم إلا أصواتاً خافتة منكرة ارتفعت ثم انخفضت في مصر والشام . ومن هذا القبيل أثر القرآن والاعتقاد بقدسية لفظه في الابقاء على اللغة العربية في كلماتها وتلفظ حروفها وسائر عناصرها فلولا ذلك لانتهى الأمر الى ظهور لغات محلية تتطور نحو التباين والاستقلال في الشام والعراق ومصر والحجاز والمغرب ولأدى الأمر الى ما أدى اليه أمر اللغة اللاتينية التي تطورت الى لغات مختلفة هي اليوم الايطالية والاسبانية والفرنسية وقل مثل

ذلك في لغة الاوردو التي تتطور اليوم في اتجاهين مختلفين في الهند والباكستان بتأثير عوامل دينية وقومية في آن واحد .

٣) ان التطور في اللغة شأنه في ذلك كشأنه في سائر مجالات الحياة لا يتجه دوما نحو الاحسن ولا يكون دائماً بمعنى التقدم والارتقاء فقد يكون ترديا وانتكاساً . وان التطور لا يسير دوما في خط مستقيم مثال ذلك تطور اصوات الحروف العربية فقد تطورت في فترة من الزمن وفي بعض المناطق العربية نحو حذف بعض الحروف أو تغييرها كالذال والثاء والظاء والقاف ثم عادت الى الظهور مرة اخرى الى شكلها القديم بالتدريج وبقيت محافظة على حالتها في مناطق اخرى من البلاد العربية .

وان بعض اللغات التي لم تستطع ان تجاري تطور الحياة وتعبر عن اغراض أصحابها غزتها لغات أجنبية غزواً انتهى بها الى موتها وحلول لغة أجنبية محلها وبذلك كان تطورها نحو الفناء والموت لا نحو التقدم والارتقاء .

٤) ولذلك فان البحث في اطوار اللغة لا يفيد الحكم دوما بالحسن على الطور المتأخر في الزمن وبالقبح على المتقدم . فان البحث العلمي يتجرد عن مثل هذا الحكم وانما يدرس واقعاً ويصور حقيقة محسوسة ويحاول تحليلها وتعليلها دون أن يحكم عليها بالصحة أو الفساد . ولكننا بعد أن ننتهي من البحث

العلمي في تطور اللغة لنا أن نحكم على هذا التطور بالصحة أو الفساد بمقاييسنا ومفاهيمنا وآرائنا وعقائدنا . فتطور اللغة العربية من طورها القديم الى طور اللهجات العامية ثم من هذا الطور الى طور آخر حديث أمر واقع ، يمكن ان يدرس ويبحث عن أسبابه وعوامله ، ولكن ينظر اليه العربي بنظرة تختلف عن نظرة أصحاب النزعات الاقليمية كالفرعونية والسورية من جهة الحكم عليه . وان دخول الكلمات الاعجمية في اللغة العربية في هذا العصر حادثة واقعة يمكن ان تدرس على انها كذلك ، فتستقصى جزئياتها وتبحث أسبابها وتحصر ميادين استعمالها وتصنف مفرداتها وينظر كذلك في تطورها خلال نصف قرن وكيف اختلفت عدداً ونوعاً وشكلاً ، ولكن البحث في كون ذلك خيراً أوشراً تختلف فيه نظرات الباحثين اختلافا يرجع الى عوامل غير البحث اللغوي هي عوامل فكرية اعتقادية .

٥) ان استمرار الامة والحفاظ على خصائصها يبدو الى حد كبير في في لغتها ويظهر في تعبيرها . ولذلك قد يكون التطور طريق اتصال بالماضي ، اذا كان متصل الحلقات ، سائراً في اتجاهات اللغة محيياً لخصائصها . كما أنه قد يؤدي الى القضاء على معالم اللغة والبعد عن خصائصها وذلك اذا كانت اللغة عاجزة عن التعبير عن ظروف الحياة المستجدة أو كانت قادرة ولكن غزتها لغة

اخرى في مفرداتها وتراكيبها حتى ضاعت معالمها وملامحها وانقطعت عن الصلة بماضيها .

رابعاً — استنتاج القوانين العامة :

ان اللغة كما قدمنا مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية وهي تتبدل وتتطور فهي لذلك تخضع كما تخضع سائر الحوادث والظواهر الاجتماعية لقوانين تسير عليها وتتطور بحسبها . فليس تبدلها اعتباطاً ولا تطورها فوضى ، وقد أدرك ذلك علماء كل لغة فاستخرجوا بادىء ذي بدء قواعد لضبطها على الوجه الصحيح وتمييز الخطأ من الصواب . أو ليست هذه القواعد (النحوية والصرفية) دليلا على ان اللغة تنظمها ضوابط عامة مطردة ، فصيغة الفاعل والمفعول وحالات الاعراب المختلفة وتصريف الافعال وغيرها أليست تسير وفقاً لقاعدة عامة استنتجها من اللغة نفسها اولئك الذين دونوا نحو اللغة العربية وصرفها ؟ واذا كان ذلك ينطبق على اللغة في عصر من عصورها وطور من اطوارها ، أفليست الحال كذلك لو نظرنا اليها خلال العصور في انتقالها من طور إلى أطوار اخرى ؟ أليس هذا التبدل يجري وفقاً لسنة تسير عليها اللغة ؟ . لقد تبدلت معاني كثير من الالفاظ خلال العصور فقد كانت الألفاظ (عقل ، وعى ، ادرك ، ورد) تفيد معنى (ربط، استوعب،

بلغ ، قصد الماء) ولكنها انتقلت في عصر مبكر من هـذه المعاني الحسية إلى معانيها المعروفة وكذلك انتقلت الألفاظ (انتاج ،استهلاك ، استيراد ،عاطفة، منطق) من معانيها السابقة التي هي (ما تولد من الحيوان ، اتلاف الشيء ، طلب الماء ، اسم فاعل من عطف بمعنى لوى وثنى ، النطق والكلام) إلى معانيها المعروفة في هذا العصر . ألسنا نلاحظ ان هـذا التبدل في معاني الألفاظ انما يكون بالانتقال من المعـاني الحسية إلى المجردة ، ويكون بتعميم الخاص أو تخصيص العام .

ان التبدل قد لا يكون شاملاً لجميع عناصر اللغة فقد كانت بعض هذه العناصر أو الجزئيات ثابتة مدة طويلة ولكن ما يتبدل منها انما يتبدل تبعاً لسنة مطردة قد تخفى أحياناً فتحتاج إلى بحث وتفتيش لاستخراجها .

لقد تطورت بعض الحروف العربيـة في بعض المناطق فتغيرت أصواتها فأصبحت القاف همزة في اللغة العامية في بعض البلاد وكذلك الثـاء والذال والظاء فقد أصبحت تاء ودالاً وضاداً إلا في بعض الكلمات . وقد كان هـذا التبدل عاماً في جميع الكلمات التي اشتملت على هذه الحروف وكانت كذا" عامة لدى جميع أفراد المنطقة التي جرى فيها هذا التبدل كما هو واقع في مـدن مصر والشام وبعض مدن الغرب .

ولو انتقلنا من اللغة الواحدة إلى اللغات المتقاربة التي يعتقد أنها ترجع إلى أصل واحد والتي جمعت أبحاثها تحت عنوان واحد كاللغات السامية والهندية والأوربية والسلافية لوجدنا انفسنا كذلك أمام قواعد وضوابط تنطبق على أفراد المجموعة الواحدة وإن كانت هذه القوانين أقل من تلك التي تنطبق على لغة واحدة .

وأخيراً لا بد لنا من أن نتساءل عما إذا كان للغة بوجه عام قوانين تنطبق على جميع اللغات . وإذا كان بين البشر منطق مشترك وخصائص مشتركة ، وكانت حياتهم الاجتماعية كذلك تسير في تطورها على سنن واحدة أو ليس من المعقول أن تكون كذلك لغاتهم خاضعة لقوانين واحدة ؟ إننا نلاحظ صحة هذا القول في بعض عناصر اللغة فان تطور معاني الألفاظ من الحسيات إلى المجردات وانتقالها بطريق التعميم أو التخصيص أو المجاورة ينطبق على ما يظهر على جميع اللغات . وإن الأمثلة التي أوردناها آنفاً يمكن أن نأتي بما يماثلها من اللغات الأخرى . ولكن الواقع اننا لا نزال بعيدين في أبحاثنا اللغوية عن بلوغ المرحلة التي نرى فيها عدداً من القوانين التي تنطبق على اللغات عموماً . ولا تزال هذه القوانين محدودة قليلة ، وذلك لأن الأبحاث اللغوية بالنسبة إلى كل لغة وبالنسبة إلى كل مجموعة من اللغات المتقاربة لم تبلغ بعد حد

النضج ولا تزال تحتاج إلى استمرار ومتابعة وإن هـذه الأبحـاث المستمرة في مجموع اللغات ستؤدي في اعتقادنا إلى استنتاج قوانين عامة يبني عليهـا علم اللغة العام .

إن الوسائل السابقة من استقراء الحوادث والشواهد ، ومقارنة بعضهـا ببعض ، والنظر إلى الأطوار التي تمر بها اللغة ، تعين كلها على استنتاج القوانين العامة أو على الأقل تنير الاتجاه الذي تتجه نحوه اللغة سواء في أدائها وظيفتهـا في عصر معين أو تطورها خلال العصور المتعاقبة ، ولو لم نستطع ضبط هـذا الاتجاه وحصره في قانون عام .

تسمية علم اللغة :

إن علم اللغة بهذا المفهوم الذي بسطنـاه والذي آل إليـه الأمر في تطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحـد الاسمين (علم اللغة) أو (فقه اللغة) وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغـة . أما اسم (الفلسفة اللغوية) الذي أطلقه عليه بعض المؤلفين في هذا الموضوع من أبنـاء العصر المنصرم كجرجي زيدان الذي ألف كتاباً عنونه بهذا الاسم فاننا نرى أنه لا يقابل المفهوم العلمي الحديث لادخاله في باب العلم مباحث هي إلى الفلسفة أقرب في حين أن سائر مبـاحث اللغة دخلت في طور البحـث العلمي وأخرج

منها ما كان من قبيل البحث في فلسفة اللغة كالبحث في أصل نشوء اللغة . هذا وانّنا باستعمالنا هذه التسمية وإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين نكون قد جارينا قدماءنا الذين استعملوهما كليهما وأصابوا كل الإصابة في ذلك .

فوائد علم اللغة :

١) إن معرفة اللغة معرفة عميقة وتفهمها وتذوقها لا يكون بمعرفة جزئياتها ومفرداتها ولا بقواعدها المحدودة وإنما يكون بالغوص إلى أعماقها ومعرفة قوانينها وسنن تطورها . وإن فقه اللغة يكشف عن خصائص اللغة وينير تطورها وبذلك تفهم كثير من الجزئيات وتحل كثير من المشكلات .

٢) إن علم اللغة يكشف عن عقلية الأمة التي تتكلم تلك اللغة ، كما يكشف عن جوانب من تاريخها ومدنيتها . إن الخاصة الاشتقاقية في اللغة العربية تعبر عن حيوية اللغة كما انها تعين على ارجاع كل كلمة إلى أصلها وردها إلى نسبها بحيث تعرف الألفاظ التي ترد إلى نسب واحد وتجمعها أسرة واحدة أو مادة واحدة وهذه المادة هي الحروف الأصلية الثلاثة أو الاثنان فلا تضيع انساب الألفاظ في العربية بل تحفظ كما تحفظ انساب

الناس عند العرب خلافاً للغات الأخرى التي قد يطرأ فيها على الألفاظ من التغير في أصواتها وفي صيغها وتأليفها ما يضيع معه أصلها .

ويمكننا أن نورد مثلاً آخر من النحو العربي هو المفعول لأجله . إن علم اللغة يبحث في الصلة بين تركيب الكلام وقواعد النحو وعقلية الأمة فالمفعول لأجله في اللغة العربية يعبر عن الدوافع النفسية فتقول فعلت هذا رغبة أو رهبة أو حباً أو انتقاماً وتخصيص صيغة أو قرينة نحوية للدلالة على الدوافع النفسية من خصائص اللغة العربية .

وإن الرجوع إلى المعاني الأصلية القديمة للألفاظ في لغة من اللغات تعطينا صورة عن البيئة الأولى التي عاش فيها أصحاب تلك اللغة كما تفيدنا دراسة تطور هذه المعاني في تفهم عقليتهم والوقوف على مفاهيمهم ومجرى تفكيرهم .

ولذلك كان علم اللغة كاشفاً تاريخياً للعادات والأخلاق والبيئات .

٣) إن معرفة خصائص اللغة وقوانينها وسنن تطورها يمكننا من اصلاحها ومراقبة تطورها والسير به في اتجاه صحيح يناسب خصائصها الأصلية ولا يعرضها للذوبان والانحلال . فاللغة العربية واقعة الآن بين نزعتين : إحداهما لا تبالي بخصائص اللغة فترى دخول الألفاظ

والتعابير الأجنبية بلا قيد ولا شرط ، بل يصل الأمر ببعض الشعوبيين إلى الرغبة في تثبيت اللغة العامية يرمون بذلك إلى القضاء على الفصحى . والنزعة الأخرى ترى الاحتفـاظ باللغة كما رويت عن القدماء دون تبديل في الألفاظ أو المعاني أو التعابير . ولا بد من الموازنة بين النزعتين والإشراف على سير التطور ليكون حاضر اللغة استمراراً لماضيها مراعياً لظروفها الحاضرة .

★ ★ ★

الاصوات اللغوية

إن بحث الحروف التي تتركب منها الكلمات في كل لغة من الناحية الصوتية يؤلف البحث الأول من مباحث فقه اللغة . وقد أفرد هذا البحث بمؤلفات ومؤسسات خاصة حتى غدا علما قائماً بذاته . والعرب هم أول من أفرد هذا الموضوع بالبحث وذلك لضبط القرآن وأطلقوا عليه اسم تجويد القرآن أو علم التجويد . كما أنهم تطرقوا لبحثه في بعض مباحث اللغة والصرف في تعليل بعض الصيغ والألفاظ كادغام التاء في بعض الأفعال وذلك مثل الاضطراب والادعاء والادخار والاصطراع و ...) . وقد ألف أبو الفتح عثمان بن جني كتاباً في الموضوع أسماه (سر صناعة الإعراب) بلغ فيه من الروعة والابداع حداً كبيراً . كما ألف ابن سينا رسالة عنوانها (أسباب حدوث الحروف) . وقد تعرض علماء البلاغة لبعض المباحث الصوتية في بحث فصاحة الكلمة .

الجهاز الصوتي وحدوث الصوت :

إن الجهاز الصوتي في الانسان جهاز رائع لما فيه من مرونة عجيبة تمكن الانسان من اخراج عدد لا يحصى من الأصوات ولا يمكن أن تشبهه من

هذه الناحية آلة من الآلات الصوتية . ويتألف هذا الجهاز من الرئتين ، وهما منفاخ الهواء ، ومن القصبة الهوائية ، التي هي كالأنبوب الصوتي ، والحبال الصوتية ، التي باهتزازها يحدث الصوت ، ثم من تجويف الحلق أو الحُنجرة ، ومن تجويف الفم والخياشيم ، وهي كلها أشبه بانتفاخات أو أجواف تلي الانبوب الصوتي تفصل بينها حواجز متحركة هي اللهاة واللسان ، وينتهي الجهاز بالشفتين . وهذا الجهاز ليس جامداً على هيئة واحدة بل فيه مرونة تجعله يتغير تغيراً كبيراً من جهة سعة التجاويف أو ضيقها وشدة اهتزاز الحبال الصوتية أو ضعفه (راجع سر صناعة الإعراب لابن جنى ج ١ ص ٩) .

يحدث الصوت باندفاع الهواء من الرئتين ومروره بالقصبتين وتحريكه الحبال التي يحدث الصوت باهتزازها . وتكسبه ، بحسب استمرار الاهتزاز وسعته وقوته ، صفات الاستمرار والارتفاع والشدة . ثم يمر الهواء بتجويف الحلق ثم بتجويف الفم وقد يمر من الخياشيم أو لا يمر . وإذا ما مر الهواء في هذه الأقسام فاما أن يترك له مجال المرور دون أن يعترضه شيء وإما أن يسد الطريق أمامه بأحد الحواجز التي هي اللهاة واللسان والشفتان بأوضاع كثيرة تحديث أصواتاً مختلفة متنوعة وهذا هو السبب في اختلاف مخارج الحروف وإليك تفصيل ذلك :

مخارج الحروف :

١) فاذا مر الهواء دون أن يعترضه عائق حدثت حروف المد وهي كثيرة متنوعة . وينشأ هذا التنوع من الأوضاع المختلفة التي يمكن أن يكون عليها الجهاز الصوتي أثناء اخراج الهواء ، من تضييق التجاويف أو توسيعها ، ومن أوضاع الشفتين والعضلات المتصلة بها ، وحسب اطالة الصوت أو تقصيره . ففي اللغة العربية ستة مدود ثلاثة منها طويلة هي الـ (ا ، و ، ي) وثلاثة قصيرة هي الـ (َ ، ُ ،) [1] وفي اللهجات العربية القديمة أنواع اخرى كالألف الممالة أو التي فيها اشمام بضم مما نلاحظه في القراءات التي لا تزال محفوظة عند قراء القرآن . وكذلك في اللهجات العامية أنواع أخرى وفي اللغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية أنواع مختلفة من حروف المد. وتسمى حروف المد كذلك الجوفية أو الهوائية .

---

(١) يرى ابن جني ونحن على رأيه ان حروف المد والحركات في العربية من جنس واحد ولكنها تختلف في مقدار مد الصوت . قال في (سر صناعة الاعراب) : « اعلم ان الحركات ابعاض حروف المد واللين وهي الالف والياء والواو ... وقد كان متقدموا النحويين يسمون الفتحة الالف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة . ج ١ ص ١٩ و ٢٦ .

وأما إذا اعترض الهواء الخارج من الرئتين والصوت الحادث منه باهتزاز الحبال الصوتية عائق فانه تحدث أنواع اخرى من الأصوات (الحروف).

وللصوت في هذه الحال مراحل ثلاث يمر بها أولها مرور الهواء وانحباسه في موضع الحاجز. وثانيها استمرار انغلاق الحاجز مدة من الزمن. وثالثها انطلاق الهواء. فاذا تصورنا نطق حرف الكاف مثلاً وتأملنا في حدوثه نرى أن الهواء يندفع من الجوف إلى أن يقف في موضع في أعلى الحنك وبعد انحباسه قليلاً ينطلق الهواء ويفتح أمامه الطريق.

فالموضع الذي يكون فيه انحباس الهواء وحجزه عن المرور كلياً أو جزئياً بأحد الحواجز الموجودة في الحلق أو الفم كاللهاة أو اللسان أو الشفتين يسمى مخرج الحرف.

٢) وإذا وزعنا الحروف حسب مخارجها وجدنا أقربها إلى الجوف وأولها الحروف التي يكون مخرجها من الحلق وهي في اللغة العربية: ء، هـ ومخرجها أقصى الحلق (Glottales) ويليها ع، ح ومخرجها وسط الحلق (Pharyngales) وبعدها غ، خ ومخرجها ادنى الحلق من الفم (Postvélairserio) وتسمى هذه الحروف الستة الحروف الحلقية وهي مفقودة في بعض اللغات وبعضها موجود

في بعض اللغات كالخاء في الالمانية والهمزة في الفرنسية والانكليزية مع ملاحظة أنها مخففة لا شدة في الاعتماد على مخرجها .

ويلي هذه الحروف بحسب ترتيب مخارجها ، ابتداء من الحلق حتى الشفتين :

٣) الحروف اللهوية وهي الـ (ق ، ك) ، سميت بذلك لخروجها من قرب اللهاة اي من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى .

٤) والحروف الشَجْرية (Palatales) وهي الـ (ج ، ش ، ي)[1] سميت بذلك لخروجها من شَجْر الفم أي منفتحه ومخرجها من وسط اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى (Latérale)

٥) والحروف التي تخرج من حافة اللسان الـ (ض) .

٦) والحروف الذلقية (Liquides) (ل ، ن ، ر) لخروجها من ذلق اللسان أي طرفه .

والحروف النطعية (ط ، د ، ت) ، لمجاورة مخرجها من نطع الفم وهو غار

---

(١) هذه الياء هي الساكنة المسبوقة بفتح كالياء التي في بيت وعين وهي تختلف في مخرجها وصفاتها عن ياء المد .

الحنك الأعلى ومخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا .

٨) والحروف الأسلية (ص ، ز ، س) لخروجها من أسلة اللسان وهي مستدقة ومخرجها من طرف اللسان ومن بين الثنايا العليا قريباً من السفلى ولما كان مخرج الحروف النطعية والأسلية متصلاً بالاسنان العليا سميت بالفرنسية (Dentales) نسبة إلى الاسنان .

٩) والحروف اللثوية (Interdentales) (ظ ، ذ ، ث) لخروجها من قرب اللثة وفي هذه التسمية تجوز ومخرجها من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا .

١٠) والحروف الشفوية (Labiales) (ف ، و ، ب ، م) .

وزاد بعضهم الخيشوم فجعله مخرجاً للميم والنون المشددتين في حال الادغام والاخفاء . وأرى أن الخيشوم ليس مخرجاً من مخارج الحروف ولكن الهواء يخرج منه في الحروف التي تلحقها الغنة بدليل انك إذا سددت أنفك في حال النطق بهذه الحروف التي تتصف بالغنة أفسدت جرس ذلك الحرف وليس معنى ذلك ان مخرج الحرف من الخياشيم [1] .

---

(١) انظر بحث مخارج الحروف عند ابن جني في سر صناعة الأعراب ص ٥٢ .

وقد زاد ابن جني على الحروف التسعة والعشرين حروفاً فرعية هي النون الخفيفة أو الخفية والهمزة المخففة [1] وألف التفخيم (سلام ، الصلاة ، الحيوة) وألف الامالة (عالم ، خاتم) والشين التي كالجيم والصاد التي كالزاي (قصد ، مصدر) وهذه الستة اعتبرها مستحسنة وألحق بها ثمانية غير مستحسنة [2] .

ونلاحظ ان في بعض اللهجات العربية القديمة حروفاً زائدة على الحروف المعروفة كالكاف المقاربة للشين في لغة ربيعة وغيرها كما ان في اللهجات العربية العامية في مختلف البلاد العربية حروفاً خاصة وأنواعاً من المدود والحركات تختلف عن الحروف والحركات المعروفة في الفصحى وقد حفظت القراءات القرآنية التي دونت ورويت كثيراً من هذه الحروف والحركات المندثرة .

صفات الحروف وأقسامها :

١) ان انحباس الهواء حين حدوث الحرف قد يكون تاماً بحيث يمتنع خروجه حين الاعتماد على مخرج الحرف ولا يكون النطق بالحرف تاماً إلا بازالة هذا الاعتماد وترك الهواء ينطلق بعد انحباسه . وقد يكون هذا الانحباس

---

(١) كالهمزة الثانية من قوله تعالى (أأعجمي وعربي) كما يلفظها القراء .

(٢) ابن جنى ص : ٥١

ناقصاً بحيث يخرج الهواء مع وجود الاعتماد على مخرج الحرف ، ويسمع صوت الحرف مع خروج الهواء في آن واحد .

الحروف التي هي من النوع الاول تسمى الحروف المجهورة ، والتي هي من النوع الثاني الحروف المهموسة ، وأما حروف المد فلا يكون فيها اعتماد على مخرج مطلقاً .

وقد عرف قدماؤنا الحروف المهجورة بأنها التي أشبع الاعتماد في موضعها ومنع النفس أن يجري معها حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت وهي : أ ، ب ، ج ، د ، ذ ، ر ، ز ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ق ، ل ، م ، ن ، و ، ي[1] .

وأما المهموسة فهي التي ضعف الاعتماد على مخرجها حتى جرى النفس معها ، وقد جمعت في قولك (فحثه شخص سكت) .

---

(1) هذا ما ورد في تعريف الجهر في كتاب سر صناعة الاعراب لابن جني وفي سائر كتب المتأخرين من علماء العربية كالشيخ طاهر الجزائري في رسالته تدريب اللسان على تجويد البيان وأرى ان تعريفهم هذا غير مطابق لجميع الحروف التي وصفوها بالجهر كما ان تعريف المهموس غير منطبق على الكاف والتاء إلا إذا نطقناها بكثير من الهمس فاخرجناها من النطق المألوف .

وهذا التقسيم موجود عند الغربيين ممن ألفوا في هذا العصر، وهم يسمون النوع الاول بالفرنسية (Occlusives) ومعناها المغلقة والثاني (Spirantes) ومعناها النافخة أو ذات النفس وقد يسمونها المستمرة (Continues) والمصطكة (Fricatives) وهي تقابل المجهورة والمهموسة حسب التعاريف التي أوردها مؤلفونا القدماء .

٢ — وتقسم الحروف كذلك إلى شديدة ورخوة ومتوسطة . فالشديدة هي التي يمتنع الصوت أن يجري معها مثل القاف والطاء فلا يمكنك أن تمد صوتك فيها في قولك الحق والشط مثلا . وهذه الحروف هي : أ ، ق ، ك ، ج ، ط ، د ، ت ، ب . ويجمعها قولك « أجدك طبقت » والرخوة هي التي يجري فيها الصوت كالسين والشين والحاء في المس والرش والشح . والمتوسطة بين الشديدة والرخوة ويجمعها قولك (لم يروعنا) . ويبدو أن بين التقسيمين السابقين تداخلاً والتباساً . وقد قالوا ان الفرق بينها أن المجهورة تمنع النفس والشديدة تمنع الصوت ولكن هذا التفريق غير واضح وضوحاً تاماً [١] .

(١) انظر في موضوع الفرق بين المجهور والشدة وبين الهمس والرخاوة سر صناعة الإعراب لابن جني ص ٦٩ وما كتبه الشيخ طاهر الجزائري في رسالة تدريب اللسان ص ١٥ ولست تجد فيها ما يشفي الغليل .

وللغربيين تقسيم آخر للحروف فالحروف التي تهتز ، حين اخراجها ، الحبال الصوتية تسمى حروفاً صائتة (Sonores) وعلامتها أن تشعر بهذا الاهتزاز إذا سددت اذنيك ونطقت بها . والحروف التي لا تهتز الحبال الصوتية حين اخراجها تسمى صامتة (Sourdes) ومثال الاولى الـ (ب ، د ، ذ ، ج ، ف ، ق) ومثال الثانية الـ (ف ، ت ، س ، ك ، ش ، ب) .

٣) ومن صفات بعض الحروف الاستعلاء وهو التصعد في الحنك الأعلى . والحروف المتصفة بالاستعلاء هي : (خ ، ص ، ض ، ط ، ظ ، غ ، ق) .

٤) ومن صفات الحروف القلقلة : (ق ، ط ، ب ، ج ، د) والذلاقة : (ب ، ر ، ف ، ل ، م ، ن) والتكرار : (ر) (Vibrante) والتفشي (Chuintante) (ش) والصفير : (ص ، س ، ز) Sifflantes .

٥) ومنها الغنة . وهي في العربية من صفات الميم والنون Nazales في أكثر أحوالهما ولكنها قد تعتري حروفاً أخرى في بعض اللغات فان جميع الحروف يمكن أن تلفظ بغنة وذلك إذا اخرج النفس من الأنف حين التلفظ بها .

٦) ومن صفـات الحروف اللين وهي صفة الواو واليـاء الساكنتين في نحو بيت وخوف وهما في هـذه الحالة متوسطتان بين (Diphtongues) حروف المـد الهوائيـة أعني الـ (ا ، و ، ي) والحروف الاخرى المتمـدة على مخارجها .

★ ★ ★

التغيرات الصوتية

إن لكل لغة مجموعة صوتية تتألف من مجموع حروفها الصوتية التي تزيد غالباً على حروفها الهجائية وبين هذه الحروف التي تتألف منها المجموعة الصوتية في لغة من اللغات انسجام يقيم بينها توازناً يؤدي الاخلال ببعض أجزائه إلى التغيرات التي تعيد التوازن والانسجام .

ومما يلاحظ ان هذه الأصوات أو الحروف في كل لغة ليست ثابتة فقد تتغير بمرور الزمن أو لوقوعها في وضع خاص في حالة التركيب . فان بعض اللغات يتغير عدد حروفها ويتبدل لفظ الكثير من كلماتها . فالحروف اللثوية مثلاً في اللغة العربية (ث ، ذ ، ظ) انتهى بها الامر إلى الزوال في كثير من اللهجات العربية العامية وأبدلت غالباً بالتاء والدال والضاد أو الزاي المفخمة . وكذلك حال الجيم التي أصابها بعض التغيير في بعض اللهجات العربية ولو نظرنا إلى حرف السين في اللغة الفصحى لوجدناه أشبه بالصاد في بعض المواطن نحو (أسطورة ، ومسيطر وسلطان) .

وكذلك حال اللغات الأخرى ، ففي اللغة الفرنسية مثلاً كانت تلفظ

الشين في Cheval كافاً والشين في Chien سيناً وثاء مدغمتين مهموستين والأصل اللاتيني لكلمتي école و échelle هو Schola و Scala .

إن هذه التبدلات جديرة بان تبحث وان يفتش عن عللها وأسبابها وأن يلاحظ ويستنتج القانون الذي ينظم جوادثها إن كان لها قانون مطرد .

ولهذا البحث فائدة كبيرة في علم اللغة فان معرفة علل تبدل الحروف وأصولها القديمة مفتاح من مفاتيح علم الاشتقاق فانه هو الذي يكشف الصلة بين كلمات تباعدت أشكالها وضاعت معالم قرباها ، سواء أكانت في لغة واحدة أم في لغات مختلفة . فان معرفة قوانين الابدال هي التي تكشف لنا الصلة بين (ضرب واضطراب) و (غبن وحبن) و (غفر و كفر) و (أود ومئاد) ويرينا ما بين هذه الالفاظ الفرنسية من نسب وقربى (Autre,Altruisme) و (Cavalier.Cheval) و (Scolastique,école,Scolaire).وما بين (Farine) الفرنسية و (Harina) الاسبانية .

عوامل التبدل وأسبابه :

ولنبدأ بذكر أسباب هذا التبدل والعوامل المؤثرة فيه :

١) فن ذلك انتقال اللغة من جيل إلى جيل عن طريق التلقي والتعلم . فان الاطفال يتلقون اللغة عن آبائهم محاولين تقليدهم بالتدريج خلال المدة التي .

يكتسب فيها الطفل اللغة لكن هذه المحاولة كثيراً ما تكون غير ناجحة ويكون التقليد ناقصاً ولو قليلاً فان أقل تغيير يحدث في تلفظ الحروف من تخفيف أو تشديد أو تقديم في المخرج أو تأخير يؤدي إلى تغيير هذه الحروف فاذا عم هذا التبديل في جيل من الأجيال وأضيف إلى ما يمكن أن يحدث بعده في الأجيال التالية من تبديل نَجَمَ عن ذلك تبدل في لفظ الحرف أو الحروف المتبدلة بمرور الزمن الطويل .

إن خطأ المؤلفين انهم اعتبروا هذا النوع من التبديل حتمياً واستنتجوا من ذلك ان حصول التبديل في اللغة حتمي لا مناص منه والحقيقة تخالف هذه النتيجة فليس هذا الافتراض الذي افترضوه محتوماً ولا ضرورياً بل قد يوجد من الأسباب ما يحول دون هذا التبديل أو يخفف تأثيره كالكتابة والتلقين في المدارس اللذين عزا إليها الاستاذ فاندريس بقاء حرف الراء في اللغة الفرنسية ، وقد كان القرآن الكريم والحض على ضبط حروفه والدقة في تلفظها سبباً في بقاء الأصوات العربية في اللغة الفصحى ثابتة في حين انها نفسها قد تبدلت في لغة الكلام اي في اللهجة العامية في اللغة نفسها . وعلى هذا فان ما ادعاه بعضهم من تطور الجهاز الصوتي تطوراً مطرداً مردود إذ لا برهان له عليه .

٢) ومن أسباب التبدل التأثر بأصوات لغة أخرى ، فقد تتصل لغة بأخرى عن طريق الغزو الثقافي أو الاستيلاء فيتعلم أهل البلاد لغة الفاتحين ولكنهم ينطقون بها محتفظين بخصائص لغتهم الصوتية . وهذا ما حدث للغة العربية حين دخولها العراق حيث تأثرت بالنطق الفارسي ، والشام حيث تأثرت بالسريانية . وكذلك شأن اللاتينية في فرنسا وأسبانيا . ومن هذا الباب دخول بعض الحروف العربية في لغة الاوردو وفي اللغة التركية.وهذامايحدث حين انتقال لفظ من لغة إلى أخرى كما وقع في الالفاظ المعربة التي بدل العرب حروفها وأصواتها كالاقليد (Cleda) والفالوذج (بالوده) .

٣) ومن ذلك أسباب اجتماعية مختلفة من دينية وقومية فان الرغبة في العودة إلى الفصحى في البلاد العربية في العصر الحاضر هي التي عادت ببعض الحروف من الشكل الذي آلت إليه (كالهمزة بدل القاف في كثير من المدن العربية والثاء والذال والظاء في لفظها العامي) إلى نطقها القديم الفصيح . وكذلك كان القرآن سبباً في بقاء اللفظ القديم للحروف في البيئات العلمية وأحياناً في البيئات العامة .

وبهذا يعلل دخول بعض الحروف العربية في اللغة التركية والاردية بسبب ديني .

٤) ومن الأسباب ما هو صوتي لا دخل للعلل الخارجية فيه ، وذلك كتفخيم بعض الحروف إذا وقعت في حال تركيبها موقعاً يستوجب ذلك كاخفاء النون وادغامها وتفخيم الراء ولفظ السين صاداً في بعض المواطن من الكلام .

ومثل ذلك نطق الدال في الفرنسية مرققة في قولهم (de la maisou) ومفخمة في قولهم (dans la maison) .

ونضيف إلى ما ذكرناه من العلل والأسباب انه لا عبرة بالتبدل إذا حدث في حادثة فردية خاصة كأن يكون ناشئاً عن علة في نطق واحد من الناس أو عن خطأ في النطق يقع فيه بعضهم ويكون جواب الناس عليه السخرية أو الانتقاص ، وانما العبرة للتبدل الذي يكون عاماً في مجموعة من الناس كسكان بلد أو مدينة أو اقليم أو في طبقة من الطبقات الاجتماعية أو يظهر في جيل من الأجيال في عصر من عصور اللغة فيستدل من عمومه في جيل أو جماعة على أن له سبباً عاماً وان في الناس استعداداً لمثل هذا التبديل لسبب من الأسباب .

قوانين التبدل الصوتي :

انا إذا نظرنا في الأصوات أو الحروف في كل لغة نجدها مرنة

[illegible] الأحوال كانقلاب [illegible] ساكنة بل الباء ميماً في التلفظ في اللغة العربية ، وادغامها فيما بعدها إذا كانت ساكنة وكان مما بعدها أحد الحروف الستة (يرملون) ، أو للتبدل المستمر الذي أدى إلى ابدال صوت بصوت آخر كابدال القاف العربية في اللهجة العامة في بعض المناطق همزة والثاء تاء والذال دالاً ومثل هذا ما حدث في اللاتينية التي تبدل كثير من حروفها في تطورها في اللغة الفرنسية والاسبانية والايطالية .

فهل تخضع هذه التبدلات في وقوعها إلى قوانين تنظمها وهل هذه القوانين إذا كانت موجودة كالقوانين المعروفة في علم الطبيعة [illegible] هي خاصة في كل لغة أم يمكن أن تعم مجموعة من اللغات وهل منها ما يعم اللغات جميعها ؟ ...

إننا إذا استقرينا حوادث التبدل الصوتي في لغة من اللغات نجدها في اتجاه واضح ولو بعض الوضوح ونجدها تسير وفقاً لقانون عام ولو ان له استثناءات . أو ليس التبدل الذي طرأ على بعض حروف الفصحى في اللهجات العربية العامية عاماً بالنسبة إلى تلك الحروف شاملاً لقطر أو بلد أو لعدة أقطار ؟

أو ليس التبدل الذي يطرأ على بعض الحروف في بعض أحوالها التركيبية في اللغة العربية وكذلك في غيرها عاماً يقع كلما وقعت تلك الحالة المعينة كانقلاب النون الساكنة ميماً أو ادغامها أو تفخيم الراء وكتبدل الشين « Ch » في الفرنسية في أوائل كثير من الالفاظ أصلها كاف في اللاتينية :

champ = campum , chambre = camere , chair = carnom

chataigne = castanea , chat = cattum , chant = cantum

cheval = caballum , chemise = camisia , chaux = calcem

أو لم يطرأ على حرف الراء « r » في اللغة الانكليزية من التخفيف بل الحذف ما يكاد يجعل هذا التبدل عاماً في جميع ألفاظ اللغة الانكليزية ولا سيما حين تقع الراء في حشو الكلمة أو آخرها . ان أمثلة كثيرة في جميع اللغات تدل دلالة واضحة على أن ما يجري فيها من التبدلات الصوتية انما يجري تبعاً لنظام يمكن اكتشافه ومعرفة صيغته بعد الاستقراء والبحث .

وإن وجود هذا النظام أظهر للباحث في اللغة الواحدة وهو كذلك ظاهر ظهوراً دون ذلك في اللغات المتقاربة والتي ترجع إلى أصل واحد ولئن كان أخفى وأدق إذا انتقلت إلى دائرة اللغات بوجه عام فان تشابه بعض حوادث التبدلات الصوتية في كثير من اللغات المتباعدة التي لا يصل بينها أصل مشترك قرينة دالة ومثال ذلك ما رأيناه في اللغة الفرنسية من تبديل

الكاف شيناً فان مثل هذا التبدل قد حدث قديماً في اللغة العربية في بعض لهجاتها وكذلك نلاحظ أن إبدال الجيم ياء جرى في عدد من اللغات .

ولكن قوانين التبدل الصوتي حين نجدها و نستخرجها ليست في عمومها واطرادها كالقوانين الطبيعية التي تنطبق على المادة . ذلك انها ليست متولدة عن طبيعة الأشياء بالضرورة وانما هي في أكثر أحوالها نتيجة اتفاقات ومصادفات ليس من الممكن التنبؤ عن وقوعها . فهجرة قبيلة من بلد إلى بلد ودخول لغة على أخرى في حوادث هجرة اقتصادية أو حرب تسبب تبدلاً في أصوات اللغة ولو أن تلك الهجرة لم تحدث أو أن التقاء تينك اللغتين لم يقع أو وقع ولكن بالالتقاء بلغة أخرى لكانت النتائج مختلفة وهذه حوادث تاريخية لا يمكن ضبطها بقانون . إن المهم معرفة الملابسات والشروط التي تتم فيها التبدلات الصوتية كتحديد الزمان والمكان فقد بحث التبدل في منطقة من مناطق اللغة لا فيها كلها فتبدل القاف في الفصحى همزة في بعض اللهجات العامية ليس عاماً بل خاصاً ببعض البلدان دون بعض ومثل ذلك لفظ الراء والنون في اللغة الفرنسية في مناطق فرنسا الشمالية والجنوبية [1] .

---

(١) يمكن رسم المخطط الجغرافي لكل بلد أو لكل لغة بحسب حروفها وأصواتها وتكون =

وقد يكون التبدل واقعاً في عصر دون عصر وفي جيل دون جيل فأن كثيراً من الأحرف الغريبة ولا سيّما في بعض اللهجات في هذا القطر عادت إلى لفظها القديم الفصيح كالقاف ومثل ذلك نطق الحرف الأول من كلمة « Cheval » في الفرنسية فقد كانت تنطق في عصر سابق [illegible] إن الرابطة بين الحرفين أو الصوتين المبدل والمبدل منه ليست رابطة تقتضيها طبيعة الأشياء حتى يكون هذا التبدل حتمياً لا مناص منه كما يزعم بعض الباحثين وإنما هي رابطة ظروف لا بد من دراستها في جزئياتها وخصوصها فلا يمكن التنبؤ بها سلفاً .

ومن الواجب التمييز بين التبدل الناشىء عن أسباب صوتية خالصة والناشىء عن تطور لتلفظ الحرف من عصر إلى آخر والتبدل الناجم عن سبب خارجي كالدين أو الاقتباس من لغة أخرى أو التقليد لبيئة غير بيئة المتكلم

= الحدود في هذا المخطط مختلفة عن الحدود السياسية والادارية فتجمل المناطق التي يكون لها لفظ واحد للحروف وحدة تفصلها حدود مرسومة عن المناطق التي يكون لها لفظ آخر وبعد هذا التحديد يمكن أن يبحث عن عوامل الوحدة أو الاختلاف كوحدة الأصل بسبب الهجرة أو غيرها أو اختلاف اللغة السابقة التي حلت محلها اللغة السائدة أو وحدتها أو غير ذلك من الأسباب .

كالتفاصح في بعض البيئات العامية الذي قد يؤدي إلى بعض التبدلات الغريبة المضحكة أحياناً.

ومما يلاحظ في قوانين تبدل الأصوات إنها لا تخلو من استثناءات خلافاً للقوانين الطبيعية فكل ذال في الفصحى قلبت دالاً في عامية بعض المناطق العربية (كالذباب والذرة والذراع والأذن) ولكنها قلبت زايا في (ذنب وذم وإذن). وكل ثاء إلى تاء نحو (ثوب وثلج وثوم وثور) ولكنها قلبت إلى سين في (ثواب، وإثم وثورة)[١] ومثل ذلك الكاف في اللغة اللاتينية فانها قلبت في كثير من الكلمات في الفرنسية إلى (Ch) ولكنها كذلك لم تقلب فيها جميعاً.

هذا وإن ما يحدث من تبدل صوتي في حروف لغة من اللغات يكون بطيئاً فتمضي القرون الطويلة حتى يحدث مثل هذا التبدل وقد يكون سريعاً فلا يمضي قرن أو أقل حتى تقع في أصوات اللغات بعض التبدلات وهذا يختلف من لغة إلى أخرى فالعربية الفصحى لم تتبدل أصواتها منذ خمسة عشر

---

(١) إن هذا الاستثناء ناشىء عن أن الكلمات التي يتردد نطقها الفصيح على الألسنة كثيراً لسبب ما كتكررها في قراءة القرآن أو في المواعظ أو المحاكم أو لكونها تستعمل في الطبقة المتعلمة لا يتشوه نطقها كثيراً ويبقى لفظها قريباً من اللفظ الفصيح.

قرناً أو تزيد في حين أن اللغة الفرنسية تبدلت أصواتها منذ القرن الثاني عشر حتى العصر الحاضر في عدة فترات .

وإن التطور الصوتي ليس متجهاً دوماً نحو اليسر والسهولة أونحو الكمال كما قد يتوهم بعض الناس بل قد يحدث عكس ذلك .

وعلى هذا فان كل لغة من اللغات تجتمع فيها عوامل مختلفة وظروف خاصة تسبب تبدل بعض أصواتها في بعض العصور والأمكنة والأحوال وتنشأ عنها آثار متنوعة في مجال الأصوات يحتاج البحث فيها وفي أسبابها وقوانينها إلى كثير من الدقة في البحث والتعليل . وإن من العسير حالياً الوصول إلى قوانين في التبدلات الصوتية تعم جميع اللغات وان كان ذلك ليس مستحيلاً وهذا ناشيء عن عدم استكمال البحث في هذا الموضوع الذي يقتضي أولاً استقراء التبدلات الصوتية في كل لغة وحصرها في ضوابط أو قوانين عامة والانتقال بعدئذ لجمع هذه النتائج واستخراج الضوابط والقوانين العامة في كل اللغات .

انواع التبدل الصوتي ومظاهره وقوانينه :

لقد قسمنا حوادث التبدل الصوتي في أول البحث إلى نوعين : أحدهما ما ينشأ عن تفاعل الأصوات وتأثير بعضها في بعض أثناء التركيب وهو

أمر واقع في جميع اللغات . وثانيهـا ما ينشأ بنتيجـة تطور زمني يؤدي إلى ابدال حرف بآخر .

وقد أحصى القدامى من مؤلفينا ضوابط للنوع الأول من التبـدل في كتب الصرف وفي كتب التجويد ويمكننـا أن نسرد البارز منهـا فـيما يلي :

١) ابـدال حرف بآخر كانقلاب النون الساكنة ميما إذا وليهـا باء وابدال تاء الافتعال إلى حرف من جنس فاء الكلمة إذا كان هذا الحرف دالاً أو طاءً (ادعى ، اطرد) أو قلبها إلى طاء مع الضاد والصاد (الاضطراب ، الاصطراع) .

٢) تغيير صفات الحروف كتفخيم الراء المفتوحة والمضمومة والساكنة الواقعة بعد ضم أو فتح وترقيق ما سواها وإعلاء السين حتى تصبح كالصاد نحو (بسطة ومسيطر) وما يعتري النون من ادغام إذا وقعت ساكنة وبعدها أحد حروف (يرملون) وانقلابها إلى ميم إذا وليهـا باء مثل (من باع وينبع ومنبوذ) واظهارها قبل حروف الحلق واخفائها قبل بقية الحروف .

٣) وقد يقع التبدل في حال انتقال كلمة من لغة فانها لا بد أن تنسجم

مع المجموعة الصوتية للغة المنقول إليها فالكلمات التي عربت تبدلت أحياناً كالفردوس (Paradis) والفالوذج من (بالوده) .

وأما التطور الصوتي فلم يحدث في اللغة العربية الفصحى منذ أمد طويل على الأقل . فان القرآن حفظ لنا أصوات الحروف كما لفظها العرب ونقل إلينا ما كان قبل عصره من أصوات اللغة العربية وعن طريقه حفظت حتى يومنا هذا . ذلك أن القرآن إنما انتقل بالمشافهة وأخذ بالتلقي الدقيق جيلاً بعد جيل.

وإنما طرأ التطور على لغة المحادثة التي تفرعت لهجات عديدة عن اللغة الفصحى ، فتبدلت بعض أصوات الفصحى من حروف ومدود وحركات ، كتبدل القاف والثاء والذال والظاء والجيم في مناطق مختلفة من البلاد العربية إلى أصوات تختلف باختلاف المناطق .

ويدخل في باب التبدلات الصوتية في اللغة العربية ظاهرتان لغويتان هما الإبدال والقلب وقد بحثا قديماً في باب الاشتقاق وجعلا نوعين من أنواعه .

أما الإبدال فهو إقامة حرف مكان حرف في بعض الكلمات مع بقاء الحروف الأخرى فتكون هذه الكلمات مشتركة في حرفين مثلاً وأبدل الحرف الثالث في إحداها بحرف آخر قريب في المخرج وقد يكون بعيداً ومن أمثلة ذلك (مت ومد ومط — وغبن وخبن — وقسم وقصم — ووسم

ووصم ووشم — وثاب وثاب وآب — وقدّ وقط — وأز وهز — وخرب وخرم) . وأمثالها كثيرة .

وأصل هذا التمدد في الكلمة الواحدة قد يكون ناشئاً عن مراحل صوتية مرت بها الكلمة وتبدل الحرف المتغير خلال الزمن في هذه المراحل وقد يكون ناشئاً عن تعدد القبائل واختلافها في أصوات الحروف ثم اجتماعها كلها في اللغة بتداخل لغات القبائل واجتماعها في لغة واحدة .

قال أبو الطيب اللغوي : « ليس المراد بالابدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلف إلا في حرف » .

ولكن كلام أبي الطيب ليس حلاً للمشكلة ولا يمنع أن تكون إحدى اللغتين هي الأصل وأن الاخرى نشأت عنها بالإبدال أو أن تكونا متولدتين عن لغة مشتركة تفرعت بالإبدال الصوتي إلى لغتين .

إن اعتبار التبدل الصوتي يعلل لنا كثيراً من حوادث الابدال ويكشف لنا عن أصول كثير من الكلمات ويرفع الستار عما بينها من روابط قديمة ويوسع دائرة الاشتقاق إذ يجعلها تتسع لألفاظ تختلف في بعض حروفها بسبب ما وقع فيها من تبدل صوتي في تاريخ حياتها وهي في الأصل ترجع إلى لفظ

واحد. فما لاشك فيه أن وصم ووسم ووشم في الأصل كلمة واحدة ثم تفرعت إلى ثلاث بابدال أحد حروفها وتنويعه، ومثلها في اللغة العربية كثير. كما أنه يربط كذلك بين الألفاظ المتشابهة في اللغات السامية المتفقة في بعض حروفها والمختلفة في بعضها الآخر بسبب ما وقع فيها من تبدل صوتي.

أما القلب فليس من باب التبدلات الصوتية التي تقع على الأصوات اللغوية أي الحروف وإنما هو تبدل صوتي يقع على الكلمة بابدال مواقع الأصوات أو الحروف فيها مثل يئس وأيس وجذب وجبذ وهو أقل من الابدال عدداً وأندر وقوعاً وأقل شأناً في مباحث اللغة.

مراجع للبحث

كتب التجويد.

تدريب اللسان في تجويد البيان للشيخ طاهر الجزائري طبع بيروت ١٣٢١ هـ.

سر صناعة الاعراب لأبي الفتح بن جني. مصر ١٩٥٤ م.

سر الليال في القلب والابدال لأحمد فارس الشدياق.

المزهر للسيوطي.

الابدال لأبي الطيب اللغوي ومقدمة المحقق الاستاذ عز الدين التنوخي من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.

الاشتقاق

لقد درسنا في الفصل السابق الحروف المفردة أو الأصوات التي تتألف منها ألفاظ اللغة ونتتقل في هذا الفصل إلى دراسة الأصوات المركبة في كلمات أو ألفاظ وهي الوحدات التي تتألف منها اللغة. فان الأصوات المفردة ليست إلا العناصر التي تتألف منها الوحدات اللغوية وليس لها في ذاتها حياة مستقلة وإنما تدرس على أجزاء تلك المفردات اللغوية. أما تاريخ تكون هذه المفردات من الأصوات والطريق الذي سلكته الأصوات خلال عصور التاريخ حتى كانت كلمات ذات دلالة والبحث عن الأصل هل هو الأصوات المركبة أعني الكلمات أم الحروف والأصوات المفردة فموضوع نرجح إرجاءه إلى ما بعد البحث في الاشتقاق وأن نبحث المفردات اللغوية كما تقدمها لنا اللغة أولاً لنسير بعد ذلك صعداً في البحث عن منشئها وتاريخها ومراحل تطورها الذي أدى بها إلى الحالة التي نجدها عليها بعد أن استقر أمر اللغة. إننا لا نرى سلوك الطريق ابتداء من الحروف المفردة فنحصي احتمالات تركيبها إحصاء رياضياً كما فعل الخليل بن أحمد في معجمه (العين) لنبحث بعد ذلك في الكلمات المستعملة ونترك التي أهملتها اللغة فان سلوك هذه الطريق مبني على قبول

سابق للنظرية القائلة بأن الحرف المفرد أسبق في الوجود من الكلمة المركبة وهي نظرية غير مسلم بها .

إن مجموع كلمات لغة من اللغات الحية ليس مجموع الاحتمالات الرياضية الممكنة التي تنشأ عن تركيب الأصوات المفردة أو الحروف وليست كلمات اللغة مفردات منعزلة مستقل بعضها عن بعض فان اللغات الحية تقدم لنا مفرداتها مصفتة في مجموعات يرتبط أفراد كل مجموعة منها بعضها ببعض برباط من القربى والنسب سواء في مبناها أو في معناها وإن كان هذا القدر المشترك بين أفراد المجموعة الواحدة يختلف من لغة إلى لغة في مقداره ووضوحه وظهوره فيختلف بحسب ذلك الرباطُ الذي يكون بينها قوة وضعفاً .

فألفاظ اللغة العربية تتجمع في مجموعات كل مجموعة منها تشترك مفرداتها في حروف ثلاثة وتشترك في معنى عام ثم تنفرد كل كلمة في المجموعة وتتميز من قريباتها في النسب بصيغتها أو مبناها وتختلف في معنى خاص بها ناشيء عن صيغتها أو عنها وعن غيرها من الملابسات التي أكسبتها حياة خاصة فلكل كلمة حياة وتاريخ وقد تبتعد قليلاً أو كثيراً عن المعنى الأصلي الذي يظل شبحه مخيماً بظله عليها . ولكنها مهما ابتعدت في معناها وفي حياتها وتاريخها تحمل طابع نسبها في الحروف الثلاثة التي تدور معها أنى دارت، وهذه مزية في اللغة

العربية ليست لغيرها من اللغات ذلك أن الألفاظ في اللغات الاخرى يعتريها من التبدل ما يمحو أصلها ويخفي معالمه .

فلو نظرنا في مادة (حـدق) وما تفرع عنها من كلمات (أحـدق — حديقة — حدقة العين) لوجدناها تتضمن كلها معنى الاحاطـة والألفـاظ المشتقة من مادة (ج ن ن) تتضمن معنى الاستتار ومنهـا (المجن والجُنة والجنون والجن والجنَة) والألفـاظ المشتقـة من مادة (ش ر ك) كالشرك والشركة والاشتراك تتضمن معنى التعدد والمشاركة .

ولو نظر الفرنسي إلى كلمتي Canine و Chien لما وجد ما يدل على أنهما من أصل واحد وكذلك Capilaine و Chef مع أنهما يرجعان إلى كلمة Caput اللاتينية ومعناها الرأس ومثل هذه الأمثلة كثير جداً في لغتهم .

ويمكننا أن نقول إن الألفاظ العربية كالعرب أنفسهم تتجمع في قبـائل وأسر معروفة الأنساب وتحمل هذه الألفاظ دوماً دليل معناها وأصلها وميسم نسبها وذلك في الحروف الثلاثة الأصلية التي تدور مع ما يتولد عنهـا ويشتق منها من ألفاظ وتختلف مفردات هذه المجموعات أو أسر الألفـاظ كثرة وقلة فهي كالقبائل منها المنجب والعقيم والمكثر والمقل . إن الألفاظ العربية تكثر وتتوالد بعضها من بعض باستمرار وتؤدي بهذه الطريقة الحية وظيفتها في الحياة .

إذ تقابل كل مولود جديد حسياً كان أم معنوياً بمولود جديـد مثله من اللفظ من الاصول الموجودة والاروصات القائمة .

ولا يحتاج المرء إلى كبير عناء لمعرفة هذه الألفاظ الجديـدة ومعرفة قرابة الألفاظ ونسبها وارتباط بعضها ببعض . ذلك أن الألفاظ التي ترجع إلى أصل واحد تشترك في عـدد من الأصوات المتميزة وهي على الغالب ثلاثة يعرف بها سامعها أصلها ويدرك بجرسها نسبها .

وقد يشتبه الأصل لتغير صوتي طارىء قد يخفى ويدق ولكنه سرعان ما يظهر على قلة هذه المشتبهات ومثال ذلك (التقوى فهي من الوقاية والتراث من ورث والمتأد من الأود وتجاه من الوجه وسيان من سوى) أما في اللغات الأخرى فان المشتبهات هي الأصل والغالب الشائع . وقد يكون التشابه من باب آخر وذلك أن بعض الألفاظ تتماثل حروفها وهي من مواد مختلفـة وليست من أصل واحد وأكثر ما يقع هذا في اللغات الأجنبية فكلمة Iouer في اللغة الفرنسية تفيد معنى المدح والثناء ومعنى التأجير والحقيقة أن ثمة كلمتين لا كلمة واحدة احداهما نتيجة تطور كلمة Iocare اللاتينية ومعناها التـأجير والثانية متحولة عن Iaudare بمعنى المدح ويقع مثل هذا في العربية في الألفاظ الأعجمية التي تلحق بمادة عربية كالاقليد في مادة (ق ل د) كما يقع في بعض

الألفاظ المشتبهة الأصل وهي قليلة نادرة كلفظ (الملائكة) واختلافهم في أصلها هل هو (أ ل ك) أم (م ل ك) .

الاشتراك في الأصوات الأصلية :

إن القدر المشترك بين الألفاظ التي ترجع إلى أصل واحد هو في اللغة العربية ثلاثة حروف ويسمى مادة الكلمة وأصلها وهو الأساس الذي اتخذ في ترتيب المعاجم العربية فقد رتبت الألفاظ وجمعتها بحسب أنسابها وأصولها فجعلت الكلمات التي ترجع إلى مادة واحدة في مكان واحد فجمعت في مادة (ض ر ب) جميع مشتقاتها المتولدة عنها وكذلك في (ق ط ع) و (ع ل م) وغيرها وليست كذلك معاجم اللغات الاخرى لتعذر ذلك بسبب ضياع أصول الألفاظ واندراس معالم أنسابها ولذلك رتبوها ترتيباً فردياً لا جماعياً راعوا فيه ظاهر اللفظ لا حقيقته وأصله فتباعدت الأقارب وتقاربت الأباعد اللهم إلا في معاجم تعرف بالمعاجم الاشتقاقية (Etymologique) ولكن هذه المعاجم لا يستعملها إلا الخاصة من المشتغلين باللغة .

إن هذه الحروف أو الأصوات الثلاثة هي المنصر الأساسي في تركيب الكلمة العربيةوهي كذلك المنصر الثابت فيها وأما الحركات أو المدود القصيرة وحروف العلة فهي عنصر ثانوي وكذلك حروف الزيادة التي تزاد على

الأصوات الثلاثة في مختلف تصاريف الكلمة . فالحركات وهي في الحقيقة حروف مد قصيرة تتبدل في اللفظ الواحد وتبدلها يولد ألفاظاً وتصاريف تفيد ألواناً من المعاني.فالحروف(ك ت ب) يمكن أن تقرأ : (كَتَبَ)و(كُتِبَ)، و (كُتُب) ولكل منها معنى خاص ويجمعها معنى عام هو الكتابة ولعل هذا هو السبب في عدم اثباتها في الرسم لكثرة تبدلها . وأما حروف العلة أو المد فهي كذلك عرضة للتبدل والحذف فقد تقلب الياء واوا والواو ياء والألف واوا أو ياء إلى غير ذلك من التبدلات مثل قال وقيل وقول ومقال ومقول وقد تقلب إلى حرف صوتي آخر وذلك نحو : اتقى واتعد واتسم وقد تحذف في نحو (لم يقل ولم يرم وهادٍ وقل) ، وذلك دليل على صحة تسمية النحاة لها (حروف علة) فهي من الكلمة موطن الضعف ومحل الاعتلال ولعل هذا هو السبب كذلك في حذفها في الرسم العربي القديم .

أما الحروف الزائدة على الحروف الثلاثة الاصلية في الكلمات العربية فهي محدودة محصورة جمعها علماء الصرف في (سألتمونيها) ولذلك كانت مشتقات الألفاظ جارية على نسق واحد في العربية .فالأصوات الثلاثة الأصلية تصب في قوالب معلومة وتصاغ في أشكال محدودة لأداء أنواع المعنى الواحد باضافة حروف مخصوصة من حروف الزيادة المذكورة وذلك مثل (كاتب

ومكتوب ومكتب وكتاب وكتب ويكتب واكتب ويكتبون ويكتبن... الخ) وهذه القوالب أو الأشكال هي المعروفة في اللغة بالأبنية أو الأوزان وهي موضوع بحث آخر يلي بحث الاشتقاق .

فالاشتقاق يحدد الكلمة أو (مادتها) الأساسية و (معناها) الأصلي وبحث الأبنية أو الصرف يحدد شكلها أو بناءها الذي يكسبها معنى زائداً يضاف إلى المعنى العام فيخصصه ويحدده .

الاشتراك في المعنى العام :

إن الألفاظ التي تشترك في الحروف أو الأصوات الثلاثة الأصلية تشترك كذلك في معنى أصلي عام ينظم مفرداتها ويسميه ابن فارس في مقاييسه الأصل ويصدر به الكلام في كل مادة فيقول مثلاً : « (خص) الخاء والصاد أصل مطرد منقاس وهو يدل على الفرجة والثلمة فالخصاص الفرج بين الأثافي ويقال للقمر بدا من خصاصة السحاب ... والخصاصة الإملاق والثلمة في الحال[1] ومن الباب خصصت فلاناً بشيء خصوصية بفتح الخاء[2] وهو

---

(١) هكذا في الأصل ولعلها في الحائط .

(٢) وبضمها كما في اللسان والقاموس .

القياس لأنه إذا أفرد واحد فقد أوقع فرجة بينه وبين غيره والعموم بخلاف ذلك والخصيّصى الخصوصية » . وقد يرجع المادة إلى أصلين أو أكثر ولكن الباحث المتأمل يستطيع أن يرجع هذين الأصلين أو الثلاثة إلى أصل واحد بقليل من إمعان النظر من غير تنطع ولا تعسف مثال ذلك مادة (خلف) التي أرجعها إلى أصول ثلاثة : « أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه والثاني خلاف قدام والثالث التغير » . وكذلك مادة (غ و ر) التي جعلها أصلين أحدهما خفوض في الشيء وانحطاط وتطامن والأصل الآخر اقدام على أخذ مال قهراً أو حرباً . وأما بقية المعاجم فانها تلاحظ ذلك عرضاً في شرح المادة وكثيراً ما تشير إلى ما بين ألفاظ المادة من صلة معنوية .

ويختلف هذا المعنى العام في كل واحدة من مفردات المادة بحسب الصيغة التي تصاغ بها مثل قطّاع ومقطوع ويقطعون من قطع ، إذ تشترك كلها في المعنى العام للقطع ولا تدل الأولى على من يقوم به بشدة أو استمرار وكثرة والثانية تدل على ما وقع عليه القطع والثالثة على حدوث الفعل من جماعة غائبين . على أن هذا المعنى العام للمادة قد يصيبه مع مر الزمن وتداول العصور تبدل بالتخصيص أو التعميم أو بالانتقال إلى معنى مجاور وقد يجتمع المعنيان القديم والحديث في المادة وقد يهمل القديم فيصبح أصلاً تاريخياً

ويبقى المعنى الجديد ،والافاضة في هذا البحث ليست من باب الاشتقاق وإنما هي موضوع بحث خاص في تطور معاني الألفاظ .

وقد يقع هذا التغير في بعض مفردات المادة دون شمولها جميعاً فتفرد بعض هذه المفردات المشتقة من المادة بمعنى خاص بها عن اخواتها في الأصل كالضريبة من ضرب والعقيلة من عقل والدقيقة للجزء من الساعة والراية للأرض المرتفعة والصفقة لعقد البيع .

وقد تفرد بعض الألفاظ من سائر مفردات المادة فتسير مسرعة تبدل معنى بعد معنى حتى يخيل للناظر أن لا صلة بينها وبين سائر المفردات وأن لا نسب يجمع بينهما لولا تشابه الملامح البادي في الأصول الأصلية .

ولذلك كان الاشتقاق كاشفاً عن الأصل القديم دالاً على الصلة والنسب وكان الاشتراك في المادة دليلاً على وحدة الأصل ولو تفرقت المعاني واختلفت الأشكال .

فتأمل في معاني المجموعات التالية من الألفاظ (عَقَل ، عقال ، عقيلة ، اعتقال ، عَقْل) (سفر ، سافر ، سفير ، أسفر) (دارَ ، الدار، استدار، دائرة ، مدير ، ادارة ، دارة ، دوار ، مدار) تجد الصلة ظاهرة بين مفرداتها وإن تباينت معانيها ولكنك إذا نظرت في كلمتي (الجار) بمعنى الساكن

الملاصق و (الجور) بمعنى الظلم لم تجد صلة ظاهرة بل احتجت إلى مزيد تأمل وإلى النظر في تاريخ اللفظتين في حياة العرب أصحاب هـذه اللغة فاذا فعلت ذلك ظهر لك أن (الجار) هو من يدخل في حماية القبيلة فليسكن في (جوارها) أي بالقرب منها وفي حمايتها فيجيرونه من (أجار) إذا رفع عنـه الجور وهو الظلم والتعدي والهمزة فيه للسلب نظير أشكى وأعدى وأعتب . قال الزجاج : « الرحل من الرحيل والثور لأنه يثير الأرض والثوب لأنه ثاب لباساً بعد أن كان غزلاً » .

آراء وملاحظات :

١ — الاشتقاق كما تبين لنا من العرض السابق هو توليد الألفاظ بعضها من بعض ولا يكون ذلك إلا من بين الألفـاظ التي يفترض أن بينها أصلاً واحداً ترجع إليه وتتولد منه فهو في الألفاظ أشبه بالرابطة النسبية بين الناس فلا بد لصحة الاشتقاق بين لفظين أو أكثر من عناصر ثلاثة :

(١) الاشتراك في عدد من الحروف وهي في اللغة العربية ثلاثة وأما الاشتراك فيما دون ذلك فسيأتي بحثه .

(٢) أن تكون هذه الحروف مرتبة ترتيباً واحداً في هذه الألفاظ .

(٣) أن يكون بين هـذه الألفاظ قدر مشترك من المعنى ولو على تقدير الأصل .

ولذلك فقد عرف قدماؤنا الاشتقـاق بانه « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئة كضارب من ضرب وحذر من حذر » (المزهر للسيوطي) .

٢ — ولا شك أن هذه الطريقـة في توليد الألفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسماً حياً تتوالد أجزاؤه ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية واضحة وتغنى عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لا بد منها لوعدم الاشتقاق وإن هذا الارتباط بين ألفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عنـاصر مادية ظاهرة وهي الحروف أو الأصوات الثلاثة وثبات قدر من المعنى سواء كان بادياً ظاهراً أو مختفيـاً مستتراً خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغـة تشعر متعلمها بما بين ألفاظها من صلات حية تسمح لنـا بالقول : إن ارتباطهـا حيوي وان طريقتها (حيوية توليدية) وليست آلية جامدة .

أما طريقة اللغـات الأخرى ولا سيما (الهندية الاوربية) فهي طريقـة آلية أكثر منها توليدية وإن كان للاشتقاق فيها نصيب ولكنه محدود فان الطريقة الغالبـة في هذه اللغـات هي طريقة النحت وإلصاق الكلمات بعضها

بعض ومثال ذلك هذه الألفاظ في اللغة الافرنسية misanthrope، anthrolopogie، automobile وفي الفارسية (روزنامة ، شاهنامه ، نيروز) .

٣ — ولهذا كان الاشتقاق في اللغة العربية وسيلة رائعة لتوليد الألفاظ للدلالة على المعاني الجديدة ولم ينقطع سيل الألفاظ الجديدة في اللغة العربية . في صدر الاسلام وفي العصور التالية وفي العصر الحديث ظهر عدد كبير من الألفاظ لأداء المعاني الجديدة للدلالة على أفكار أو أشياء مادية وذلك بطريق اشتقاق لفظ جديد من مادة قديمة كالجهاد والزكاة والعامل وكالعرض (المقابل للجوهر) والتأليف والتصعيد والتجريح والتعديل والشعوبية والتصدير والاذاعة والاشتراكية ....

وكان الاشتقاق كذلك طريقاً للتجديد والتنويع الفني كاستعمال القرآن للفظ الواقعة والغاشية والطامة والقارعة بمعنى القيامة لتجديد اللفظ وإلباس المعنى حلة جديدة وربما ألقى اللفظ بظله على معنى آخر فأكسب بذلك جمالاً وجدة . لاحظ مادة (شجر) في قول البحتري :

شواجر أرماح تقطع بينهم　　شواجن أرحام ملوم قَطوعها

٤ — وإذا كان الاشتقاق في اللغة العربية مظهراً من مظاهر حيويتها وقدرتها على التطور والتجديد فانه كذلك مظهر من مظاهر منطقيتها

وموافقتها للطبيعة في ارجاع الجزئيات إلى الكليات وربط الأجزاء المبعثرة بالمعنى الجامع وتجلى في ذلك مقدرة اللغة العربية في الربط والتصنيف سواء في الألفاظ أو في المعاني وتطبع بذلك عقلية أصحابها بهذا الطابع المنطقي العلمي وإن شئت عكست فقلت إن هذه الخاصة هي صدى ما في العقلية العربية من خصائص التفكير المنطقي والعلمي .

٥ — والاشتقاق يدلنا على أصول الألفاظ فيمكننا من ربط الكلمة بأخواتها وأفراد المجموعة التي تنتسب إليها وذلك مما يثبت معناها أو يوضحه فان كلمة سماء من (س م و) وشتى جمع شتيت من (ش ت ت) والتلاد من (و ل د) وهو المال أو المجد الذي يملكه الانسان منذ ولادته لأنه موروث و (الكفاءة) معناها التعادل فانها من (ك ف أ) ومنها الكفؤ والأكفاء أي المتعادلون والمكافأة وأما (الكفاية) ومعناها الاكتفاء والاستغناء فهي من (ك ف ى) ومنها الكافي والكفاة و (استكان) من سكن وهي من باب افتعل اشبعت حركة عينها ولفظها موهم أنها من باب استفعل وليست كذلك.

والاشتقاق هو الطريق إلى حسن فهم اللغة والتفقه فيها ومعرفة أسرارها والدخول في عالمها الخاص فانه يربط الألفاظ ويصل بين معانيها فان معرفة مادة

(ر ب و) تطلعنا على حقيقة معاني (الربا والربوة) وصلتها بمادة (ر ب ب) ومنها (التربية والرب والمربى) وفيها جميعاً معنى الزيادة والنماء وكذلك فان معرفة أن (الشرف) هو المرتفع من الأرض ومنها (أشرف) و (الشرف) بمعنى سمو الخلق والشعور بالكرامة وأن (الاشتجار) التشابك من (الشجر) يدخلنا في صميم اللغة ويشعرنا بارتباط هذه المعاني ويجمع الصور المتماثلة والمعاني المتشابهة فيفسر بعضها بعضاً وينير الواضح منها الغامض والحسي المعنوي .

٦ — وإذا كان الاشتقاق قد جعل ألفاظ اللغة العربية مجموعات ينظم كل واحدة منها سلك جامع مؤلف من مادة ومعنى فانه بذلك أصبح كاشفاً عن أصل الألفاظ وسبيلاً إلى معرفة الأصيل من الدخيل فان الكلمة الدخيلة في العربية تبقى غالباً في معزل عن هذه المجموعات فلا تجد لها أصلاً لفظياً ذا معنى يدل على أصالتها كالصراط والفردوس والكوب فليس في العربية مادة (ص ر ط) ولا (فردس) ولا (كوب) هذا وإن بعض الألفاظ الدخيلة قد يخفى أصلها لالتحاقها بأصل عربي لمشابهة لفظية ولا بد للألفاظ الدخيلة من الالتحاق بأصل عربي شأنها في ذلك شأن الغرباء عند العرب إذ لا بد من التحاقهم بالولاء بقبيلة عربية ، وقد يكون بين هذا اللفظ الدخيل والمادة التي ألحق بها تناسب وتقارب بحيث يمكن تخريجه على الأصل العربي ولكن

العبرة بالرجوع إلى الحقيقة التاريخية لمعرفة الأصل ومثال ذلك (المقاليد) بمعنى المفاتيح ومفردها (إقليد) وأصلها يوناني وهو (Kleida) وقد يظن الناظر من غير بحث أنها عربية من مادة (ق ل د) وهو ظن خاطئ يكشف عنه البحث الاشتقاقي التاريخي .

على أن اللفظة الغريبة التي يدخلها العرب في لغتهم قد تلد ألفاظاً من جنسها على طريقة العرب في الاشتقاق ومن ذلك تدوين الدواوين والتقنين والتقسيط ومن ذلك قول الامام علي (ر ض) نورزونا كل يوم حينما قدمت له الحلوى في يوم (نوروز) . وقد بينا آنفاً كيف يكون الاشتقاق سبيلاً إلى كشف الصلة بين المعاني المتباعدة لألفاظ من مادة واحدة كالجار والجور وقد يكشف عن عادات وأحوال ماضية فألفاظ (الصفقة والعفر والعربون) تدل على عادات قديمة بل قد يكشف عن عقليات الأمم ومفاهيمها فالصديق في اللغة العربية مشتقة من الصدق وعليها يبنى مفهوم الصداقة عندهم وأما في اللغة الفرنسية المأخوذة من اللاتينية فان كلمة (Ami) مشتقة من (Aimer) ومعناها الحب فمفهوم الصداقة عندهم مبني على أساس المحبة وكذلك العدو في العربية فهو مأخوذ من عدا عدواً وعدواناً بمعنى التجاوز والاعتداء فالعداوة سببها عند العرب الاعتداء والظلم وأما في الفرنسية فان كلمة (Ennemi) عدو مأخوذ من البغض أو نفي الحب (في اللاتينية Inimicum) .

وبهذا يكون الاشتقاق هو الجسر الموصل بين اللغة والحياة الفكرية والاجتماعية والسبيل إلى البحث في الصلة بين التعبير والتفكير والعمل أو العادة عند الأمم ولم يعن به الباحثون المحدثون في اللغات الاجنبية عناية كافية كما أن قدماء الباحثين في اللغة العربية لم يبلغوا من بحثه مبلغاً شافياً ولا سبروا أغواره واستخرجوا أسراره ولا يزال مجال القول فيه واسعاً رحباً .

إن الاشتقاق الذي بحثناه فيما تقدم والقائم على اشتراك الألفاظ في حروف ثلاثة أصلية هو الطريقة الأساسية التي لا تزال حية مستمرة في توليد الألفاظ في اللغة العربية منذ العهود التي اكتملت فيها اللغة ونقلت إلينا آثارها ونصوصها وهو المراد حين تطلق كلمة الاشتقاق تمييزاً له من أنواع أخرى من الاشتقاق سنستعرضها في البحث اللاحق .

★ ★ ★

أنواع الاشتقاق

الاشتقاق الكبير والاشتقاق الأكبر — النظرية الثنائية

القيمة التعبيرية للحرف الواحد في اللغة العربية

إن ألفاظ اللغة العربية كما دلنا البحث السابق وكما تبدت للناظرين والباحثين فيها قديماً وحديثاً تقوم على حروف ثلاثة أصلية هي ملاك أمرها والعنصر الأصلي الثابت فيها على اختلاف تقلباتها وتصاريفها وتتألف اللغة العربية من مجموعات ثلاثية قوام كل مجموعة منها ثلاثة حروف هي بالنسبة للألفاظ المندرجة في تلك المجموعة مادتها الأصلية وإطلاق كلمة (المادة) على هذا المعنى تسمية لقدامى اللغويين من أهل العربية وما سوى الثلاثي من الألفاظ المؤلفة من أربعة حروف أو أكثر ترد إلى هذه الثلاثة بطريق الاشتقاق أو النحت ويسمى أخذ الكلمة من هذه المادة الأصلية اشتقاقاً .

وقد سمى اللغويون الاشتقاق المبني على هذا الأساس الثلاثي أي على الاشتراك في ثلاثة حروف مرتبة ترتيباً ثابتاً دون تبديل في مواقعها بين الكلمة

المشتقة والمادة الأصليـة الاشتقاق الصغير وإذا أطلقوا كلمة الاشتقاق فانما يريدون هذا النوع منه .

ونريد الآن أن نتقدم خطوة أخرى في تحليل عناصر الكلمة العربيـة ومعرفة أسرار تركيبها وخصائص تكوينها والبحث من وراء ذلك عن وجود صلات بين المجموعات الثلاثية تمكننا من رد هذه المجموعات إلى مجموعات أوسع منها وأجمع تكون هي منها كالأفخاذ من القبائل .

ولننظر أولاً في المادة الثلاثية للألفاظ العربية ولنحاول حل عناصرهـا وتحطيم ذرتها ومعرفة الطريقة التي بها ركبت والعمل الوظيفي لحروفها وطريقنا إلى هذا الهدف هو استعراض الألفاظ المشتركة في حرفين من أصل الثلاثة أولاً والبحث عن وجود صلة معنوية بين هذه الألفـاظ وعن الصلة كذلك بين الألفاظ التي تشترك في حرف واحد وعن الرابطة بين الألفاظ التي تتشابه حروفها المتقابلة في مخرجها سواء أكان ذلك في الحروف الثلاثة أو في بعضها .

ولقد أبدى عدد من قدماء اللغويين كالخليل وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني ملاحظات كثيرة حول هذا الموضوع وكان ابن جني أبينهم وأوسعهم نظراً وأوضحهم بحثاً فقد بسط ما لاحظه من صلات بين الألفاظ المشتركة في حرفين أو في حرف واحد مع التشابه في الحروف الأخرى مثل (از وهز)

و (قرم وقلم) و (جرف وجلف وجنف) و (الغرب والغرف) و (السر والصر) و (القسم والقصم) و (الخضم والقضم) و (النضخ والنضح) و (القد والقط). وغير هذا من الأمثلة والملاحظات التي أوردها في أبواب متفرقة من كتاب الخصائص وسار على أثره عدد من الباحثين القدماء والمحدثين كجرجي زيدان والكرملي والعلايلي [1] في المتأخرين وخرجوا من ذلك بنظرات متقاربة في أصل الألفاظ العربية وتاريخ نشوئها وتكونها .

الاشتراك في حرفين — المجموعات الثنائية — النظرية الثنائية

لنستعرض قبل البحث عدداً من الأمثلة التي يلاحظ فيها الاشتراك في معنى كلي بين ألفاظ تشترك في حرفين من أصولها لنستطيع أن نبني عليها بعدئذ بحثنا ويلاحظ أن كل واحدة من هذه المجموعات الثنائية أي المشتركة في حرفين اثنين تضم عدداً كبيراً أو صغيراً من المجموعات الثلاثية :

(١) النون والفاء وما يثلثهما (نف ...) :

---

(١) الفلسفة اللغوية لجرجي زيدان ص ٥٦ . نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها الأب انستاس الكرملي ص ١ و ٢ و ١٠٧ مقدمة لدراسة لغة العرب للشيخ عبد الله العلايلي ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

نفث ، نفج [١] نفح ، نفخ ، نفر نفز ، نمر نفز [٢] نفس ، نفش ، نفض [٣] نفع ، نف ، نفق ، نفل ، نفى .

وتتضمن كلها معنى الخروج والانتقال أو الاخراج .

(٢) النون والباء وما يثلثهما (ن ب ...) :

نبأ [٤] نب ، نبت ، نبث [٥] نبح ، نبذ ، نبر ، نبز ، نبس ، نبش ، نبض ، نبع ، نبغ ، نبك [٦] نبه ، نبا .

وتتضمن كلها معنى الخروج أو الاخراج ولكن إلى الأعلى غالباً ويلاحظ أن هذه المجموعة الثنائية تتشابه مع سابقتها في المعنى وتشتركان في النون وتتشابه الفاء والباء وهما حرفان شفويان .

---

(١) نفج الارنب ثار والفروجة خرجت من بيضتها .

(٢) نفز الظبي وثب .

(٣) نفض القوم ذهب زادهم . والزرع خرج آخر سنبله والكرم تفتحت عناقيده .

(٤) نبأ ارتفع وعليهم طلع وخرج من أرض إلى أرض والنبيء والنابيء المكان المرتفع .

(٥) انبث كالنبش .

(٦) النبكة الاكمة المحدودة الرأس وانتبك ارتفع والنابك المرتفع .

(٣) غمر ، غمس ، غمص ، [1] غمض ، غمط ، غمّ

وتتضمن معنى الاخفاء وإذا كان بدل الميم باء وكلاهما شفوي المخرج وجدنا الألفاظ التالية : غبر ، غبش ، [2] غبط ، غبن ، غبن وتتضمن المعنى نفسه .

(٤) غا ...

غاب ، غار ، غاص ، غام ، وتتضمن كذلك معنى الاختفاء

(٥) فل ..

فلج ، فلح ، فلع ، فلق ، فلّ وتتضمن معنى الشق ولو أبدلنا اللام راء وكلاهما من مخرج واحد لوجدنا المجموعة التالية وهي كذلك تدل على الفصل والتفريق :

(٦) فرث ، فرج ، فرد ، فر ، فرز ، فرش ، فرص [3] فرض ، فرط ، فرع ، فرغ ، فرق ، فرك ، فرم ، فره ، فرى .

(٧) قط ..

---

(١) غمصه احتقره وعابه وتهاون بحقه والنعمة لم يشكرها .

(٢) الغبشة الظلمة آخر الليل والنابش النباش الخادع .

(٣) فرصه قطعه وخرقه وشقه والمفراص الحديد يقطع به الحديد .

قط ، قطع ، قطف ، قطل ،[1] وتفيد كلها معنى القطع والفصل ولو أبدلت الطاء دالا أو تاء لوجدنا قدّ وقتل .

(٨) حج …

حجب ، حجر ، حجز حجم ، (الاحجام) ، حجل ، الحجى وتفيد المنع .

(٩) خ ر …

خرب ، خر ، خرز ، خرس ، خرط ، خرف ، خرم وفيها معنى النقصان .

(١٠) قص …

قصر ، قصف ، قصم ، قصى ، اقصى وتتضمن معنى الانتقاص والفصل .

(١١) خس …

خسىء ، خسر ، خسى ، خسف وإذا أبدلت السين صاداً وجدنا الأصول التالية خصى (الخصاصة الحاجة) خصر خصى وقريب منها (كسر وكسح وكسف) وتفيد كلها معنى الانتقاص والتجزئة وصلتها بالمجموعة السابقة ظاهرة .

(١٢) ماج ، ماد ، مار ، ماس ، مال وكلها تفيد الحركة والاضطراب .

---

(١) قطله قطعه وعنقه ضربها ونخلة قطيل قطعت من أصلها وكمكنسة حديدة يقطع بها .

(١٣) جمر : جمع ، جمل ، جم ، جمد ، جمر [١] .

ومن هذا القبيل : (ضم وضمن وضمر) و (كد وكدح) و (رسا ورسب) و (رص ورصف) و (سار) للتحرك في المكان (وصار) للتحرك في الزمان و (مت ومد ومط ومطل) و (وسم ووشم ووصم) و (جنن وكنن) و (غفر وكفر) و (غبن وغبن) و (آب وناب وثاب) و (نقد ونقض ونقص) و (وطمر وطمس وطم وطما) و (سار وسال وساح وسام) و (حفظ وحفل وحف) وتتضمن معنى الجمع والاحاطة و (بدأ وبدر وبدع وبده وبرأ) وتتضمن معنى الظهور و (نكر ونكس ونكص ونكل) وتتضمن معنى الرجوع .

ويمكن أن نستعرض أمثلة كثيرة جداً من هذا النوع أي من الألفاظ التي تشترك في حرفين دون الثالث وفي معنى عام يجمعها وينظم مفرداتها وبذلك نكون قد اكتشفنا صلة جديدة بين المجموعات الثلاثية التي تشترك في حرفين من أصولها وفي فكرة كلية تجمعها وتتكون بذلك مجموعات ثنائية كبيرة ، ولتعليل هذه الصلة نجد أنفسنا أمام عدد من الاحتمالات والآراء :

---

(١) جمّره تجميراً جمعه وتجمر القوم تجمعوا كجمروا وجاؤوا جمارى أي بأجمعهم والجمير مجتمع القوم .

أولاً — يمكن أن نقول ان الأصل في اللغة هو المجموعات الثلاثية فالمادة الأصلية في الكلمات العربية تتألف من حروف ثلاثة ولكن قد يعتري أحد هذه الحروف تبدل صوتي بتوالي الأزمان أو باختلاف القبائل والبيئات ومن ذلك تتكون هذه المجموعات الثنائية ويكون هذا الاشتراك بين المجموعات الثلاثية في حرفين دون الثالث ولكن هذا القول لا يمكن تعميمه فان في الأمثلة التي قدمناها وفي غيرها حالات ليس فيها أي تقارب بين الحروف الثوالث في الألفاظ ولم يجر التبدل الصوتي في اللغات على هذا السنن ولم يقع تبادل بين حروف متباعدة كالفاء والعين في قطع وقطف والراء والضاد في غار وغاض ، على أن هذا الرأي يمكن أن يقبل بالنسبة لبعض الألفاظ مثل (قدوقط) و (وسم ووشم ووصم) و (مت ومد ومط) ولكن من العسير تعميمه على جميع الأمثلة فلا يمكن أن نقيم من هذا التعليل نظرية عامة في أصول الألفاظ العربية (١) .

ثانياً — ويرى عدد من فقهاء اللغة قديماً وحديثاً أن الألفاظ العربية ترجع في منشئها التاريخي القديم إلى أصول ثنائية زيدت حرفاً ثالثاً في مراحل

---

(١) انظر بحث الابدال في المزهر ج ١ ص ٤٦٠ (طبعة دار احياء الكتب العربية) وكتاب سر الليال لاحمد فارس الشدياق .

تطورها التاريخي وقد جاء هذا الحرف الثالث منوعاً للمعنى العام الذي تـدل عليه تلك الأصول الثنائية ومثال ذلك قط ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم فالأصل فيه على رأي القائلين بالثناية هو (قط) والحروف الثالثة الأخرى وهي (ط ، ع ، ف ، ل ، م) منوعة لمعنى القطع ومخصصة له وكذلك (غمر ، غمس ، غمص ، غمط ، غمق [1] غم [2] ، غما [3] ، غمى) الأصل فيها (غم)ويفيد التغطية والاخفاء والحرف الثالث مخصص تفيد الكلمة باضافته معنى خاصاً من معاني التغطية ويمكن القول بمثل هذا في المواد أو المجموعات التي تشترك في النون والفاء أو النون والباء (نب) أو القاف والصاد (قص) أو الفاء والراء (فر) وأمثالها .

وأكثر الذين يقولون بالأصل الثنائي للالفاظ العربية يقولون كـذلك إن هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية المقارنة للفعـل أو الحـدث الذي تدل عليه تلك الأصول فال (قط) حكاية للصوت المقـترن

---

(١) غمقت الارض مثلثة ركبها الندى فهي غمقة .

(٢) غمّ الشيء غطاه وامر غمة مبهم وغمّ الهلال حال دونه غيم رقيق وغم عليه الخبر استعجم والغمامة السحابة .

(٣) غما البيت يغموه غطاه بالطين والخشب واغمي عليه غشي عليه .

بالقطع والـ (قص) للصوت الذي ترجع إليه معاني (قص ، قصم ، قصر ، قصي ، خص ، خصم ، خس ، خسف ، كسر ، كسف ، قسم ...) ويتفرع عن هذا الرأي القول بتقارب معاني الألفاظ لتقارب أصواتها وقد عقد ابن جني العبقري اللغوي في كتابه الخصائص فصلاً خاصاً عنوانه (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) وجاء فيه بكثير من الأمثلة الشاهدة لرأيه مثل (از) بمعنى ازعج واقلق و (هز) و (غرب) ومنها الغرب بمعنى الدلو و (غرف) و (جرف ، جلف ، جنف) إلى أن أتى بشواهد من ألفاظ تتشابه حروفها في مخارجها دون أي اشتراك بينها مثل (غدر ، ختل) وختم الباب بقوله « وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفَرْش اللغة وإنما بقي من يثيره ويبحث عن مكنونه ؛ ثم يتبع هذا الباب بباب آخر عنوانه (باب في امساس الالفاظ أشباه المعاني) .

ويستطرد ابن جني من ذلك إلى شرح نظريته الصوتية في اللغة بوجه عام دون أن يخرج منها إلى نظرية واضحة في تركيب الألفاظ ومنشئها التاريخي ، وان كان أشار إلى ذلك بقوله في معرض دلالة أصوات حروف الكلمة على أجزاء الحدث الذي تدل عليه : « فان أنت رأيت شيئاً من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين إما أن تكون

لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه أو لان لهذه اللغة أصولاً وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا »[١] .

وإذا صح أن الأصل من الحروف الثلاثة حرفان والثالث منوع للمعنى العام ومخصص له فأين يقع الحرفان من الثلاثة وأين يقع الحرف المضاف ؟

ان أكثر الأمثلة التي أوردها الباحثون تدل على أن الحرف المضاف هو الأخير ولكنهم كذلك أوردوا أمثلة يقع فيها الحرف الثالث في وسط الكلمة الثلاثية أو في أولها .

قال زيدان في الفلسفة اللغوية[٢] : « فترى مما تقدم أن الحرف المزيد واقع في آخر الكلمة وهذا هو الأغلب إلا أنه قد يكون في الوسط أي بين الحرفين الأصليين كشلق من شق وفرق من فق وقرط من قط وقرص من قص وقرض من قض وشرق من شق ولحس ولسع ولمس من لس ... وقد يكون في أول الكلمة نحو رفت من فت و لهب من هب و رفض من فض و لمس من مس و فطح و بطح من طح و نزل من ذل و غلف من لف وقس عليها » . وقال الكرملي في كتابه نشوء اللغة العربية : « ان الكلم وضعت في

(١) الخصائص ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) ص : ٥٧

أول أمرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة ثم فثمت أي زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر أو القلب أو الطرف فتصرف بها المتكلمون تصرفاً يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات والاهوية » (ص ١) .

وقال تحت عنوان (أصول الكلم وتراكيب حروفها) : « ان أول ما وضعت عليه اصول هذه اللغة كان يتقوم من حرفين ثم كسع بحرف ثالث للتثبت من تحقيق لفظ الحرف الثاني من الكلمة ومنذ ذلك الحين بنيت كل لفظة عربية على ثلاثة أحرف وأصبحت لها كالأثافي وعليها أحكم وضع أصولها وما زيد على ذلك القدر من الأحرف ألحق بها لغايات شتى يذكرها علماء العربية في مطاوي مباحثهم » (ص ١٠٧) .

وقد أورد الكرملي للتصدير أي لزيادة الحرف في أول الكلمة هذه الأمثلة (ثرم ، جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، فرم) وجعل الأصل فيها كلها (رم) . وهذه الأمثلة الأخرى للحشو أي لزيادة الحرف في قلب الكلمة : (رتم ، رثم ، رجم ، ردم ، رسم ، رشم ، رضم ، رطم ، رغم ، رقم ، ركم) والأصل فيها كذلك (ارم) ، وقال الاستاذ العلايلي في مقدمته لدراسة لغة العرب . « الثلاثي وحدة كلم العربية وعليه استقرت

في الثروة البالغة عظماً واتساعاً وعلى ملاحظة الثلاثي بين اللغويين أبحاثهم ». (ص ١٩٩) وهو يوافق اللغويين القدماء في رأيهم هذا ثم يحصر خلافه معهم في وجهين :

(١) كيف نشأ الثلاثي .. ٢) ليست كل مادة من الثلاثي وحدة على حدة بل طرف من وحدة تستوي في دائرة الثلاثي . ويرى أن القدماء لم يعتبروا الثنائي مرحلة تاريخية سبقت الثلاثي وانه به تعلل نشأة الثلاثي ويقول بعد هذا : « وكيفما كان الأمر فحديثنا الآن عن تأكيد ان للثلاثي نشأ عن الثنائي وان كثرة من الثلاثيات احتفظت بها العربية بعد تصحيح الصوت حرفاً وهي الثنائيات التي نظنها هي المعلات وهذه المعلات المحفوظة في شتى المعاجم يجب أن نتخذها عدتنا في الدرس لفهم الثلاثي على وجهه لانها الأصل الذي انفصل عنه ولم يكن عمل التصحيح إلا ضرباً من إقرار اللغة على صورة واحدة من الثلاثية فالواوي منها ينظر إلى الضمة الممدودة واليائي إلى الكسرة كذلك ومن ثم يتأيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الحركات تراد لمعان بعينها في العهد الصوتي ثم تصححت كل حركة بحرف من جنسها بعد أن اتخذت العربية وحدتها في الثلاثي .. ونستطيع أن نقول بعد هذا ان مطلق

الثلاثي نشأ عن الثنائي على هـذه الصورة التي عليها المعلات بزيادة حرف من الهجاء قد سبق لنا بيان ان محله [١] الوسط » ومن الأمثلة التي أوردها : (عبل) ويفتش عليها في (عل — علا) . فلا يجمعها مع (عبث وعبر) جامع فان (عبث) مثلا مأخوذة من (عث) التي منها (عثل وعثل) ويختم مناقشة هـذه القضية بقول هو الحق كل الحق : « وكيفما كان فانه لا يعنينا في العمل اللغوي أبـداً لأن العربية لم تعد على شيء سوى الثلاثي وانما هو يمت إلى التاريخ اللغوي في التأصيل والتفريع على المواد المحفوظة » ص (٢٠٠ ـ ٢٠٣) .

ولكن جرجي زيدان يرى احتمالاً آخر هو ان الثلاثي يمكن أن يكون مأخوذاً من أصلين ثنائيين على طريق النحت : « نحو قطف ويفيـد القطع والجمع والأصل فيه على ما أرى قط لف الاولى قطع والثانية جمـع وبالاستعمال

---

(١) ويقول العلايلي في الحاشية في هذا الموضع : « لا انكر ان الاخـذ الاحتمالي في ان يكون المزيد على الثنائي الفاء أو العين أو اللام الذي قرره دارسو اللغة من قبل قد يبدو على بعض الكلمات ضرورياً حين لا يظهر تمـام الجامع في الحشو ولكن مع ذلك لا أرى في هذا ما يهدم النظرية كشيء يشمـل اللغة في أكبر عـدد من المواد المحفوظة ... وطريقة تطبيق النظرية ان نتناول المادة بعد تجريد حرف الوسط ونتناول منها المعلات التي وقع فيها هذان الحرفان على ترتيبها » .

ملت اللام ونقلت حركتها إلى ما قبلها فصارت قطف . وقش أي جمع ما على الأرض من فتات فانها ترد إلى أصلين قم وقش الأول بمعنى كنس والثاني جمع فكانوا إذا أرادوا كنس شيء ما وجمعه قالوا (قم قش) وبالتخفيف النيت القاف الوسطى فقيل قش . . . . وان استبعد بعضهم هذا التعليل فهو غير مستبعد عند من له شيء من الاطلاع على خصائص الألفاظ وقابليتها للابدال والنحت » ثم قال : « وإذا لم يكن لكل من اللفظين معنى في نفسه فلا يخلو أن يكون لاحدهما أولاً فان كان الأول كان أحد اللفظين فعلاً والآخر حرفاً زيد إعتباطاً . وهو في الغالب أحد هذه (ل م ن ر) وربما توهم الواضع في هذه الزيادة شيئاً من المبالغة أو تنويع الفعل بما يطابق قصده نحو فض ورفض وهب ولهب وشق وشلق وكو وسكو . . . وإذا لم يكن لاحدهما معنى في نفسه أي لا يكون اسماً ولا فعلاً فلا يخلو أن يكون حرفاً وربما كان اسماً أو فعلاً في الأصل ولم يعد مميزاً الآن . ولدينا من هذا النوع بعض الكلمات العربية نقدمها مثالاً : من ينظر في لفظة (مال) بمعنى مقتنيات لا يخطر له إلا أنها أصل مستقل ولكنها في الواقع مركبة من (ما) الموصولة ولام الاضافة فكانوا يريدون بقولهم (مالك) الذي لك أي مالك ومقتنياتك » ويعلل زيدان بهذه الطريقة كلمة نار ونور فيجعلها من (اور)

وهي في العبرانية بمعنى النار ويقابلها بالعربية (اوار) والنون إمـا أن تكون بقية كلمة ذات معنى أو أنها لا معنى لها الحقت اعتباطاً ومن هـذا القبيل كلمة (ويل) فان أصلها وي مع اللام وي + لي أوله وبهذا علل بعضهم ليس من لا النافية وايس الدالة على الكون المطلق في بعض اللغات السامية .

ونوافق الاستاذ العلايلي في رأيه السديد الذي يتلخص باستقرار العربيـة على الأساس الثلاثي واعتبار الأصل الثنائي مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيهـا مجدياً إلا ضمن هذا الاعتبار التاريخي ولكني أرى مع ذلك أن النظرية الثنائية عدا صفتها التاريخية لا تزال في بداية البحث والذين قالوا بهـا لم يبنوا أبحاثهم على أساس استقراء واسع ولا يكفي لاثبات صحـة هذه النظرية في لغة عـدد موادهـا لا ألفاظها تزيـد على ثمانين ألفاً ـ وهو عـدد مواد لسان العرب لابن منظور ـ صدقها في عشرات الأمثلة بل في مئات منها كما أن البحث يجب أن يتناول اللغات السامية التي يفرض أنها تلتقي مع العربية في تلك المرحلة التاريخية البعيدة . ومثل هذاالاستقراء والبحث الواسع لم يحصل حتى الآن ولكننا نسجلها على أنهـا ظاهرة تلفت النظر في اللغة العربية وتستـدعي البحث ولا يعقل أن تكون هذه الأمثلة التي أوردها اللغويون حتى الآن

والتي يتزايد عـدد المكتشف منها كل يوم من قبيل المصادفة ولا شك أنها تدل على ما في العربيـة من أسرار في تركيب ألفاظهـا ومن روابط خفية بين موادها وأصولها ومجموعات ألفاظها وهي جديرة بمتابعة البحث والامعان في التحري والاستقراء .

القيمة التعبيرية للحرف الواحد في العربية

إن مباحث ابن جنى ورأيه في المقابلة بين الخاصة الصوتية للحروف التي تتألف منها الألفاظ ودلالاتها تشير إلى وظيفة الحرف المعنوية وان كان ابن جني لم يخرج من مباحثه وشواهده بهذه النتيجة الصريحة الواضحة .

يقول اللغوي العبقري في كتابه الخصائص : « نعم ومن وراء هـذا ما اللطف فيه أظهر والحكمة أعلى واضع [١] وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيـار الحروف وتشبيه أصواتها بالاحداث المعبر عنها بها ترتيبها وتقـديم ما يضاهي آخره وتوسيط مـا يضاهي أوسطه سوقـاً للحرف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب » ويستشهد لذلك بلفظ (بحث) « فالباء لغلظها تشبه خفقة الكف على الأرض والحـاء لصحلهـا [٢] تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب

(١) هكذا وردت في طبعة دار الكتب المصرية ولعلها اجلى واصح .
(٢) الصحل البحة في الصوت .

ونحوهما إذا غارت في الأرض والشاء للنفث والنبث للتراب » « ومن ذلك قولهم (شد) الحبل ونحوه فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأريب العقد فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذي أريد بها ... ومن ذلك أيضاً (جرّ) الشيء يجره قدموا الجيم لأنها حرف شديد وأول الجر عشقة على الجار والمجرور جميعاً ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر وكرروها مع ذلك في نفسها وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعداً عنها ونازلاً إليها وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق فكانت الراء — لما فيها من التكرير ولأنها أيضاً قد كررت في نفسها في (جرّ) و (جررت) أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها »[١].

وقال أيضاً في هذا الموضوع . « فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع .. وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره من ذلك قولهم خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم

(١) الخصائص ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ أو ج ١ ص ٥٥٥ .

للصلب اليابس .. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث » ثم يأتي بأمثلة مشابهة نحو (النضح والنضخ) و (القر والقط) و (الوسيلة والوصيلة) و (السد والصد) و (القسم والقصم)[1] .

إن هذه الفكرة التي تجلت عند ابن جني أوحت إلى بعض الباحثين في العصر الحديث بنظرية (القيمة التعبيرية أو البيانية للحرف في الألفاظ العربية) ولنقدم بعض ما جمعناه من الأمثلة على ذلك قبل البحث وإبداء الرأي فيها :

١) حرف الغين (غ) في المواد التالية وما يتبعها ويشتق منها يدلّ على الاستتار والغيبة والخفاء :

غاب ، غار ، غاض ، غال ، غام .

غمر ، غمر ، غمز ، غمص ، غمض ، غمط .

غرب ، غرز ، غرس ، غرف ، غرق ، غرم ، غلق ، غلف ، غل .

غفر ، غفا ، غبش ، غبر ، غبن ، غبى .

غش ، غشى ، غط ، غطى .

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ١٥٧ .

٢) حرف النون (ن) في المجموعات والمواد التالية وتدل على الظهور والبروز :

نفث ، نفغ ، وأخواتها (النون والفاء وما يثلثهما) — نبت ، نبث ، نبز وأخواتها .

نز ، نزف ، نزع ، وأخواتها — نجم ، نشأ ، نما ، نطو ، نهض..

٣) حرف القاف (ق) في الأصول والمجموعات التالية وكلها تتضمن معنى الاصطدام أو الانفصال وتقترن بحدوث صوت شديد تصوره القاف في شدتها :

قد وقطع وأخواتها قرع قرف وأخواتها .

دق ، شق ، طق ، عق ، طرق ، فرق ، عقر ، رقم .

٤) السين (س) ويتضمن كثير من الأصول التي تدخل فيها معنى الليونة والسهولة .

سهل ، سلم ، سل ، سلس ، سال ، سار ، ساب ، ساح ، ساق .

مس ، ماس ، ملس ، سحب ، سما ، سعد ، سكن ، بسم ، نسم ، سلف ، سعى .

فهل لنا أن نستنتج من هذه الأمثلة وأشباهها أن الحرف الواحد في

تركيب الكلمة العربية قيمة تعبيرية وأن الكلمة الثلاثيـة تعبر عن معنى هو ملتقى معاني حروفها الثلاثـة ونتيجة تمازجها وتداخلها كأن نقول مثلاً أن (غ ر ق) يحصل معناها من تلاقي معـاني حروفها فالغين تدل على غيبـة الجسم في الماء والراء تدل على التكرار والاستمرار في سقوطه والقاف تـدل على اصطـدام الجسم في قعر الماء والمعنى الاجمـالي الحاصل من اجتماع المعاني الجزئية للحروف هو مفهوم مادة (غرق) .

لا شك أن في اللغة العربية خصيصة تبهر الناظرين وتلفت نظر الباحثـين وهي تقابل الأصوات والمعاني في تركـيب الألفاظ وأثر الحروف في تقوية المعنى أو اضعافه والانسجام بين أصوات الحروف التي تتركب منهـا الألفاظ ودلالاتها وهذا مما يدعونا إلى استقراء هذا البحث وتحري دلالات الحروف ولكننا نرى انالأمثلة التي قدمناها والتي قدمها الباحثون في هذا البابلا تكفي لاستنتاج قانون عام يشمل ألفاظ العربية كلها ولكنـه طريق ينبغي أن يشق وباب يجب أن يفتح ولا ريب عندي أن متابعـة التحري والبحث في هـذا الاتجاه سيؤدي إلى نتائج عظيمة في تاريخ الكلم العربي ونظرات عميقـة في تركيبها وأنمن تعجل الأمور قبل الاستقراء والتحري تقديم قائمة كاملة بمعاني حروف العربيـة كما فعل الاستاذ العلايلي في كتابه (مقدمة لدرس لغـة العرب) ص ٢١٠.

الاشتقاق الكبير

ويتصل بهذه النظرة إلى الحرف العربي وقدرته في الدلالة وأثره في تكوين معنى الكلمة نوع من الاشتقاق سماه القدماء (الاشتقاق الكبير) تجمع فيه في قرن واحد جميع المواد المؤلفة من ثلاث حروف بعينها مهما اختلف ترتيبها فاذا أخذت الحروف الثلاثة ر ك ب استطعت ان تؤلف منها بتنويع الترتيب هذه المواد الست (ركب . ربك . كبر . كرب . برك . بكر) وقد ذكر المتقدمون بضع أمثلة من التراكيب الستة للكلمة الواحدة وزعموا أن للمقاليب الستة كما سموها معنى جامعاً كقولهم إن (ق و ل) وسائر تراكيبها تفيد الخفوق والحركة ومقاليب (ك ل م) تفيد القوة والشدة وكذلك (ج ب ر) ومقاليب (س ل م) تفيد الضعف واللين وهذا الموضوع هو أول ما افتتح به ابن جني كتابه الخصائص ورأيي أن اللنويين تسفوا في هذا الباب تسفاً كبيراً وتكلفوا شططاً هذا مع أنهم لم يوردوا إلا أمثلة قليلة نادرة وخانهم التوفيق حتى في هذه الأمثلة القليلة وليس ما اتفق في اللغة من هذا القبيل في رأيي إلا من باب القلب أي تبديل مواقع الحروف وذلك مثل

(حمد ومدح) و (جبذ وجذب) و (يئس وأيس) [1] ومثل هـذا يقع في سائر اللغات . وقد ميز البصريون تمييزاً يدل على نظرة لغوية عميقة بين تعـدد اللفظ الناشيء عن تبدل مواقع الحروف في الكلمـة فتكون احدى الكلمتين هي الأصل والثانية متولدة عنها وهذه هي حالة القلب وبين التعدد الناشيء عن اختلاف اللغات من الأصل وعلى هـذا يكون رأي البصريين أن الاشتقـاق الكبير موجود في اللغة وهو غير القلب « قال النحاس في شرح المعلقات القلب الصحيح عنـد البصريين مثل شاكي السلاح وشائك وجرف هار وهائر وأما ما يسميه الكوفيون القلب نحو جبذ وجذب فليس هذا بقلب عنـد البصريين وإنما هما لغتان [2] وقد ذهب ابن دستويه إلى انكار القلب من أساسه وألف في ذلك كتاباً سماه إبطال القلب وفي رأينا أن اعتبار البصريين لتعدد اللغات ناشيء عن أن حادثـة القلب الصوتية قد ترجع في بعض الألفاظ إلى عهد بعيد جداً في تاريـخ اللغة بحيث تأصلت كل واحدة من اللفظتين كمدح وحمد وجذب وجبذ في قبيلة من القبائل أو في معنى مختلف بعض الاختلاف عن معنى اللفظة الأخرى حتى بدت للباحث أنها لغات متعددة وتنوسيت الحادثة الصوتية التي

---

(١) ومن هذا القبيل (غرب وغبر) و (أعرب وعبّر) .

(٢) المزهر للسيوطي ج ١ ص ٤٨١ .

هي قلب مواقع الحروف ولذلك فان اللغويين كما نقل السيوطي يرون أن ذلك كله مقلوب ولا يفرقون كما يفرق نحاة البصريين بين القلب واختلاف اللغات .

وعلى كل حال فان محاولة فقهاء اللغة قديماً تفكيك الكلمة وحلها إلى أجزائها الصوتية التي هي الحروف فكرة بارعة ونظرة عميقة ثاقبة تدل على تفكير لغوي عميق عندهم بقدر ما تدل على ما في اللغة العربية من استعداد عظيم لهذه العمليات المخبرية وخصائص كامنة عريقة تذكرنا دوماً بمشابهتها للطبيعة التي أمكن ارجاع معادنها المختلفة إلى نوع واحد لا يختلف إلا في طريقة تركيبه الذري ولذلك فاني وان كنت أرى أن الاشتقاق الكبير في اللغة العربية في عهدها الأخير الذي يمتد إلى ما قبل بضعة عشر قرناً هو أضعف أنواع الاشتقاق وأقلها فائدة وجدوى من الوجهة العملية وأبعدها عن الوضوح والظهور للناظرين في اللغة فاني مع هذا أرى ضرورة ولوج هذا الباب واستشراف آفاق العربية البعيدة من هذا المرتفع ولكن الطريق وعرة لم تعبد وهي تتطلب رواداً يشقون الطريق بفكر ثاقب وبصر نافذ وقديماً قال ابن جنى بعد أن سرد معاني مادة (ق و ل) بتراكيبها الستة « فهذه الطرائق التي نحن فيها حزنة المذاهب والتورد لها وعر المسلك ولا يجب مع هذا أن تستنكر ولا

تستبعد فقد كان أبو علي رحمه الله يراها ويأخذ بها . . . وشاهدته غير مرة إذا أشكل عليه الحرف الفاء أو العين أو اللام استعان على علمه ومعرفته بتقليب أصول المثال الذي ذلك الحرف فيه فهذا أغرب مأخذاً مما تقتضيه صناعة الاشتقاق . . . على أن هذا وإن لم يطرد وينقد في كل أصل فالعذر على كل حال فيه أبين منه في الأصل الواحد من غير تقليب لشيء من حروفه فإذا جاز أن يخرج بعض الأصل الواحد من أن تنظمه قضية الاشتقاق كان فيما تقلبت أصوله فاؤه وعينه ولامه أسهل والمعذرة فيه أوضح »[١] .

وقد خص ابن جني هذا النوع من الاشتقاق بباب خاص جعل عنوانه « الاشتقاق الأكبر » فقال في أوله : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا غير أن أبا علي رحمه الله كان يستعين به ويخلد إليه مع أعواز الاشتقاق الأصغر لكنه مع هذا لم يسمه وانما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح إليه ويتعلل به وانما هذا التلقيب لنا نحن وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين كبير وصغير فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه وذلك كتركيب (س ل م) فانك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى

---

(١) الخصائص ج ١ ص ١٠ و ١١

والسلامة والسليم . . . وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته . . . فهذا هو الاشتقاق الأصغر وقد قدم أبو بكر رحمه الله رسالته فيه بما أغنى عن اعادته . . . وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة وما تصرف من كل واحد منها عليه وان تباعد شيء من ذلك رد بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد . »[1] .

وأول من فكر فيما نعلم في حل الكلمة إلى حروفها الأصلية الثلاثة ثم تقليب مواقع هذه الحروف هو الخليل[2] وعلى هذا الاساس رتب المعجم المنسوب إليه المشهور بكتاب العين في اللغة ولكن مبعث الفكرة عنده في رأينا ليس أنه يرى أن المقاليب الستة للكلمة الواحدة تدخل في باب اشتقاق واحد وترجع إلى أصل واحد يجمعها بسبب اشتراكها في الحروف الثلاثة مهما يكن موقعها وترتيبها وانما الباعث له على هذا الترتيب فكرة احصائية رياضية وهي فكرة مسيطرة في رأينا على تفكير الخليل غالبة عليه وليس هذا الموضع محلاً لشرح رأينا هذا في الخليل .

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٥٢٥

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ ـ ٢٠٤ هـ) .

على أن اللغويين بعد ابن جني ميزوا بين أنواع الاشتقاق وأطلقوا اسم (الاشتقاق الكبير) على ما سماه ابن جني بالأكبر أي الذي يعتمد على الحروف الثلاثة دون تبديل فيها ولكن في مواقعها وترتيبها وأطلقوا اسم (الاشتقاق الأكبر) على ما يكون فيه اشتراك في بعض الحروف الثلاثة سواء أكان بين الحروف المتغايرة تشابه أو تقارب في المخرج أم لم يكن على القول الارجح مع وجود تناسب وتوافق في المعنى مثل (نفث ونفس ونفر) و (نعق ونهق) مما بحثناه مفصلاً في موضعه ونحن نرى أن يتفق علماء اللغة في هذا العصر على متابعة ابن جني في تسميته لأنها أصح في نظرنا وذلك أن الاشتقاق القائم على المقاليب الستة قليل نادر بعيد عن واقع اللغة فتسميته بالأكبر أولى وأما الكبير فهو الأقرب إلى واقع اللغة والأكثر أمثلة وشيوعاً في العربية والأدنى إلى القبول ولكننا نؤثر السير على مصطلح اللغويين حتى يتم اتفاق الباحثين أو المجامع العلمية على هذا التبديل وذلك منعاً للالتباس .

الأبنية أو الأوزان

تشتمل الكلمة العربية على ثلاثة عناصر كل واحد منها موضوع بحث خاص ودراسة مطولة في فقه اللغة .

الأول : **المادة الأصلية** التي ترجع إليها الكلمة أو الحروف الأصلية التي تتكون منها وهي أصل اشتقاقها ومادة بنائها ، وذلك مثل (ش ر ي . ق ط ع . ك ت ب) بالنسبة إلى الألفاظ (**المشتري ، الانقطاع ، الكاتب**) والبحث في رد الكلمة إلى أصلها ومعرفة الصلة بين الكلمة ومادتها هو موضوع **علم الاشتقاق** الذي تقدم الكلام عنه .

والثاني : هو **الهيئة** التي ركبت فيها حروف الكلمة الأصلية والزائدة والبناء الذي جمعت فيه أو القالب الذي صبت فيه هذه الحروف وهو الذي يعطي الكلمة صورتها وشكلها ويجعل لها جرساً ووزناً معيناً ويسمى **البناء** أو **الوزن** أو **الصيغة** .

والثالث : معنى **الكلمة** المتحصل من مادتها الأصلية وهيئة تركيبها واستعمالها العملي خلال البيئات والعصور التي عاشت فيها .

وبحثنا هـذا يتناول العنصر الثاني من عناصر الكلمة وهو الوزن أو البناء أو الصيغة .

وإذا كان الاشتقاق في العربية جعل ألفاظها تجتمع في مجموعات تشترك ألفاظ كل واحدة منها في حروف أصلية ثلاثة وصنفها بحسب مادتها الأصلية فاننا نستطيع أن نصنف هذه الألفاظ تصنيفاً آخر تبعاً لوزنها وصيغتها بحيث نجعل هـذه الألفاظ مثلاً (سامع ، شارب ، ضارب ، قاتل ، كاتب ، قارئ ، جامع ، نافع ، ناثر . . . . الخ . . .) في صنف واحد وكـذلك (مسموع ، مشروب ، مضروب ، مقتول ، مقروء ، مجموع . . الخ) في صنف آخر و (خبير ، وعليم ، وحزين ، ورفيق ، وحليم ، وبديع ، وجدير ، وسميع ، ونفيس . . . الخ) في صنف ثالث والجامع بين ألفاظ الصنف الواحد هنا هو شكل البناء أو الصيغة والوزن الموسيقي ويجمع بينها كذلك جزء من المعنى أو صفة من صفاته كالفاعلية في الأمثلة الأولى والمفعولية في الثانية والاتصاف بالخبرة والعلم والحزن والرفق . . . الخ في الثالثة . ولو تأملت قول الرسول الكريم صلوات الله عليه (الولد مجهلة مجبنة مبخلة) لوجدت أن الألفاظ الثلاثة التي وصف بها الولد مشتقة من مواد مختلفة هي الجهل والجبن والبخل ولكنها على وزن واحد

وفي شكل واحد من التركيب والمعنى الذي تفيده هو أن الولد يكون بالنسبة لوالده سبباً للجهل والجبن والبخل لما يسببه من انصراف أبيه إليه وخوفه عليه وتوفيره المال له . فمادة الألفاظ هنا مختلفة ولكن الصيغة واحدة ووجهة المعنى التي بها تخصص المعنى الأصلي للمادة وتحدد واحدة أيضاً وذلك على عكس المثال الثاني في قوله عليه السلام (من تطبب ولم يعرف بطب فهو ضامن) أي أن من مارس الطب ولم يعرف عنه أنه طبيب فهو ضامن لما يحصل للمريض من ضرر فكلمتا تطبب وطب تشتركان في المادة الأصلية (ط ب ب) ولكنهما تختلفان في الصيغة وفي وجهه المعنى فكلمة (تطبب) تفيد هنا ممارسة الطب وكلمة (الطب) تقيد المهنة . وكذلك قول الشاعر :

(أنا الليث معدّياً عليه وعادياً) فالكلمتان (معديٌ عليه وعادي) مشتقتان من مادة (ع د و) المفيدة لمعنى التجاوز والعدوان ولكن الصيغة فصلت بينهما وخصت كل واحدة بمعنى من معاني الاعتداء فالأولى وهي صيغة المفعول (معديّ) عليه تدل على من وقع عليه العدوان والثانية (عادي) تدل على من وقع منه ويكون معنى قول الشاعر إنني أشبه الأسد في حالتيه حينما يعتدى عليه فيرد الاعتداء ويقابله وحينما يكون هو البادىء بالاعتداء فلا يأخذ إلا القوي المقتدر ويترك الضعيف الذليل .

وعلى هذا فان الألفاظ العربية يمكن أن تصنف على وجهين أحدهما أن تصنف بحسب موادها وأصولها فتجمع الألفاظ التي ترجع إلى أصل واحد وتشترك في حروفها الأصلية في زمرة واحدة مهما تختلف أشكالها وابنيتها وهذا ما فعله أصحاب المعاجم العربية اذ جمعوا الألفاظ وصنفوها على حسب حروفها الاصلية . والوجه الآخر يكون بجمع الألفاظ التي تتساوى أوزانها وتماثل صيغها وأبنيتها مهما تختلف أصولها وموادها كجمع الألفاظ الدالة على الآلة مثلاً والمتشابهة في هيئتها وبنائها أو الدالة على الفاعل والتي هي على وزن فاعل من الثلاثيات والرابط بين الألفاظ في التصنيف الأول والعنصر المشترك بينها هو المادة الأصلية أو الحروف الثلاثة والمعنى العام الذي تؤديه هذه الحروف وأما في التصنيف الثاني فالرابط بين الألفاظ المجتمعة في زمرة واحدة والعنصر المشترك بينها هو شكل البناء والتركيب والوزن الموسيقي من جهة والمعنى الذي يتحصل من هذا البناء أو الوزن من جهة أخرى .

إن بناء الكلمة أو صيغتها أحد العناصر الأساسية في تكوينها فماذا تكسب الكلمة من بنائها أو صيغتها وماذا يقدم البناء أو الوزن للكلمة ؛ ذلك ما نريد أن نبحثه ونوضحه .

دلالة الأبنية أو معاني الصيغ :

إن صيغة الكلمة أو وزنها عنصر من العناصر الأساسية التي تحدد معناها

ولولا ذلك لالتبست معاني الألفاظ المشتقة من مادة واحدة فالصيغة هي التي تقيم الفروق بين (كاتب ومكتوب وكتابة) وبين (شريك واشتراك وشركة) فهي التي تخصص المعنى وتحدده كتحديد معنى الفاعلية فيما كان على وزن فاعل من الثلاثي أو مُفعِل من أفعل أو مُفتعِل من افتعل الخ . . ومعنى المفعولية في أوزان اسم المفعول أو معنى الطلب في استفعل كاستغفر واسترحم .

إن للابنية أو الصيغ في العربية دلالات وللأوزان معاني وقد حاول فقهاء اللغة استخراج المعاني واستنباطها عن طريق التحري والاستقصاء فوفقوا في كثير منها ومن ذلك ما هو معروف مشهور كالأسماء المشتقة المذكورة في كتب الصرف (اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل واسم الزمان والمكان واسم الآلة) وكأوزان الأفعال وتصاريفها المختلفة وبعض أنواع الجموع القياسية السالمة منها وغير السالمة ومنها ما عني به فقهاء اللغة مما لم يذكره علماء الصرف . وإليك بعض أنواع من الأبنية مع دلالتها ومعناها :

فاعَلَ وتدل على تعلق الفعل بتعدد وعلى المنافسة . (**قاتل ضارب زاحم نافس طاول فاخر صارع صالح سالم شارك آكل ضاحك جالس خالط**) .

تفاعل وتدل على المشاركة وتعدد الفاعلين : (تشارك تقاتل تضارب تزاحم تصالح تعارف تعاون تداعى) .

وقد تدل على التظاهر بالشيء مثل : تجاهل وتغابي وتحامق وتمارض وتغافل وتدل على مطاوع فاعَلَ كتباعد وتضاعف وعلى التدريج كتناقص وتزايد .

تفعّل وتدل على مطاوع فعّل نحو كسّرته فتكسر وقطعته فتقطع .

وتدل على أخذ الشيء بعد الشيء بتمهل مثل تبصر وتفهم وتجرع وتحسى وتأمل وعلى تكلف الشيء أو ممارسته (تصبر . تفقه . تزندق . تفلسف . تدين . تطبب) .

فُعال تدل على الأصوات مثل : دعاء رغاء ثغاء عواء مواء هداء صراخ ويستثنى من ذلك النداء والغناء .

فُعالة وتدل على البقايا أو على ما تحصل بسبب القيام بالفعل :

كالحثالة والبراية والنحاتة والنخالة والنفاضة والقمامة والنفاوة والنفاية والخلاصة والصبابة والعصارة والسلافة والجراشة والثمالة والسلالة والجزازة والحشاشة والقتاتة .

فِعالة وتدل على الحرفة كالصناعة والزراعة والتجارة والنجارة والحدادة والحياكة .

فعّـال وتدل على مبالغـة اسم الفاعل كشراب وقتال وعلى الحرفة كحداد ونجار وعلى النسبة إلى الشيء وملازمته كعطار ولبان وسمان وفنان .

مَفعلة تدل على المكان الذي يكثر فيه الشيء (مَكمأة مقثأة مأسدة مفعية) وعلى ما يكون سبباً له (مجبنة مجهدة مبخلة منجاة مفازة مهلكة محرضة) .

فِعال ، وتدل على الأدوات والمرافق (لباس بساط زمام نطاق حزام لجام فراش اناء وعاء سقاء ...) .

وقد ذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب كثيراً من معاني الأبنية ونقل عنه وعن غيره من المؤلفين السيوطي في مزهره فجمع من ذلك ما لم يجتمع لغيره من أمثلة الأبنية وأورد معاني بعض هذه الأبنية فارجع إليـه إن أردت التوسع في هذا الباب .

إن الصيغ والأوزان بالنسبة للمفاهيم العامة المعبر عنها في العربية بالمواد بمثابة قوالب تصاغ فيها الألفاظ وتحدد بها المعاني الكلية أو المفاهيم العامـة فاذا وضعت مادة (ق ط ع) في قالب من قوالب الأبنية وصغتها على مقداره كأن جعلتها على بناء مِفعل فقلت مِقطع فقد أخرجت منها لفظاً يدل على آلة القطع وإن قلت (مَقطع) على وزن (مفعل) فقد دللت على مكان القطع وان

قلت (مقاطعة) على وزن (مفاعلة) فقد دللت على قطع الصلة بين اثنين أو جماعتين .

إن وجود هذه القوالب الفكرية العامة في اللغة العربية توفر على المتكلم والمتعلم كثيراً من الجهد ذلك أن في عالم الفكر معاني عامة كلية كالفاعلية والمفعولية والمكانية والزمانية والسببية والحدث أو الفعل والآلية ويمكن أن تزداد هذه المعاني الكلية أو القوالب الفكرية وأن ترد إليها جميع المعاني الجزئية والتفصيلية فاذا جعلت للمكان من أي فعل من الأفعال قالباً يعرف به سواء أكان الفعل كتابة أو قطعاً أو لمساً أو جمعاً أو قتلاً فقد سهل عليك أن تختصر القول وتفصح عن المراد وتفهم السامع فتقول (مكتب ، مقطع ، ملمس ، منظر ، مجمع ، مقتل) لتدل على مكان الفعل من هذه الأفعال كلها وهذه هي وظيفة الصيغة الفكرية وقيمتها المنطقية في اللغة وهي تدل على ما في العقلية العربية من نظرة منطقية تحليلية إلى الأشياء .

تتركب الكلمة العربية : (١) من حروف أصلية هي في الغالب ثلاثة وقد تكون أربعة تحدد مادتها الأصلية التي ترجع إليها وتشتق منها و (٢) من حروف زائدة تقع في أول الكلمة أو حشوها أو آخرها أو في مواضع متفرقة منها سواء أكانت هذه الحروف الزائدة صوتية أو هوائية أي حروف

مدو (٣) من حركات أو مدود قصيرة تتصل بحروفها الصوتيـة ولا فرق بين هذا النوع الثالث أعني الحركات والنوع الثاني أعني حروف الزيادة إلا في أن تلك تسجل في الكتابة العربية وهذه لا تسجل عادة وقد استقصى علماء اللغـة الحروف الزائدة وأحصوها فوجدوا أنها لا تخرج عن عشرة حروف جمعوها في قولهم (سألتمونيها) وإذا أضفنا إليها الحركات الثلاث واعتبرناها حروف مـد قصيرة كان مجموعها ثلاثة عشر هي سبب تنوع الألفاظ المشتقة من مادة واحدة[١] .

وهذه الطريقة في تركيب الألفـاظ واشتقاقها من موادها الأصليـة وتصريفها في أشـكال متنوعة تختلف عن طريقة التركيب الالحاقي المعروفة في لغات أخرى كثيرة والتي تقوم على زيادة أحرف مخصوصة في أول الكلمة أو في آخرهـا للدلالة على معنى خاص يحصل بهذه الاضافة كاضافة (ant) في الفرنسية و (er) في الانكليزية للدلالة على اسم الفاعل واضافة (in) في أول

---

(١) إن الألفاظ : (عَلِم . يعلم . علّم . علم . أعلم . تعلم . استعلم . عالم . معلوم . معلّم . علام . عالمين .. الخ) تشترك في مادة ع . ل . م ومرد اختلافها وسبب تنوع أشكالهـا الحروف الزائدة والحركات المتنوعة في كل منها وهي لاتخرج عن الحروف المجموعة في سألتمونيها مع الحركات الثلاث .

الكلمة للسلب و (re) للتكرار و (tion) في آخرها للحدث و (ment) للحال في الفرنسية وقد تركب الألفاظ وتكون الكلمات في تلك اللغات بطريقة النحت من كلمتين بادغام أو دون ادغام ومثال ذلك في الفرنسية أسماء كثير من العلوم فهي منحوتة من موضوع العلم وكلمة (logie)وهي من اليونانية(logos) ومعناها الكلام أو كلمة(graphie)ومعناها الكتابة(psychologie , sociologie géographie) وكالكلمات المبدوءة بهذه الاضافات (super, para,auto,trans) ومنها ما يكون دون ادغام مثل (الجد grand - père وأخاف faire peur).

وتختلف هذه الطريقة عن طريقة العربية وذلك أن الكلمة العربية تبدو كأنها اذيبت ثم صيغت وتوزعت أجزاؤها وحشيت أطرافها وأوساطها مع الاحتفاظ دوماً بمادتها الأصلية فخرجت في قالب معين ووزن محدود لا يختلف من مادة إلى أخرى فاسم الفاعل من المواد (فتح ، علم ، سمع ، كتب ، سلم ... الخ) لا يختلف أبداً وكذلك من (أكرم ، أقدم ، أعلم ، أسمع) ومثل ذلك اسم المفعول وأفعل التفضيل وغيرها وليست الحال كذلك في الفرنسية أو الانكليزية مثلاً فالألفاظ الدالة على الفاعل أو المفعول ليست من وزن واحد ولا من هيئة واحدة إذا نظر إليها بمجموعها فلا تشابه بينها في الزيادة المضافة في أولها أو آخرها وهذه الزيادة مع ذلك ليست دوماً متشابهة ولا مطردة

ومثال ذلك أسماء المفعول في الفرنسية والانكليزية فكثير منها سماعي ليس بقياسي .

وقد تتأصل الاضافات في الكلمة في هذه اللغات حتى تتوهم اصالتها ثم يشتق من الكلمة كلمة أخرى باضافة زوائد جديدة حتى يضيع أصل الكلمة وتغرق الزوائد أصل المادة ومثال ذلك في الفرنسية فعل (émovoir) بمعنى حرك وهيج فقد اشتق منه اسم (émotion) بمعنى هياج النفس ثم اعتبروا هذا اللفظ أصلاً واشتقوا منه فعلاً بمعنى هيج (émotionner) زاحم الفعل الأصلي وهذه الظاهرة كثيرة الحدوث في الفرنسية ولا يحدث مثل هذا في العربية فالمادة الأصلية تبقى هي الغالبة والأوزان أو الأبنية باطرادها تظهر الأصل من الزائد ولا يقع الالتباس لان طريقة التوليد بالصياغة والوزن على أوزان معهودة معروفة غير طريقة التوليد بالاضافات والزوائد التي لا حد تقف عنده .

وان الطريقة التي سلكها المتقدمون من علمائنا لمعرفة ابنية الألفاظ ومقابلتها باوزانها المعادلة لها هي في تحري حروف الكلمات الأصلية ومقابلتها بحروف (ف ع ل) ان كانت ثلاثية وبتكرار حرف (ل) لمقابلة الحروف الأصلية التي تزيد على الثلاثة وأما الحروف الزائدة في الكلمة فتؤخذ

كما هي لتوضع في ميزان الكلمة مع المحافظة على حركات الحروف وإليك بعض الأمثلة الموضحة :

الكلمة : يكتب — كاتب — مكاتب — كتائب — استكتب — كُتَّاب

الميزان : يفعل — فاعل — مفاعل — فعائل — استفعل — فُعَّال

الكلمة : دحرج — ابيضّ — مناظر — نواظر — نظائر — مَريد (من مرد)

الميزان : فعلل — افعلّ — مفاعل — فواعل — فعائل — فَعيل

وإذا كان في الكلمة اعلال أو ابدال أو ادغام وجب رد الحرف المعل أو المبدل إلى أصله وفك الادغام حتى يمكن معرفة وزن الكلمة وتركيب بنيتها كما تلاحظ ذلك في الألفاظ التالية :

الكلمة : مَدّ (مَدَدَ) — اتقد (أصلها اوتقدمن وقد) —

الميزان : فعَل — افتعل

الكلمة : مختار (أصلها مختيِر ان كانت اسم فاعل ومختيَر اسم مفعول)

الميزان : مفتعِل مفتعَل

الكلمة : مُريد (من أراد) مُراد

الميزان : مُفعِل مُفْعَل

ولذلك فقد يحصل اختلاف بين علماء اللغة على وزن الكلمة تبعاً لاختلافهم في تعليل الكلمة وردها إلى أصلها كاختلافهم في سيّد هل هي فعيل أو فيعل وكالقول في حسّان فمن ردها إلى الحسّ قال وزنها فعلان ومن ردها إلى الحسن قال فعّال .

ولحركات الحروف في الميزان منزلة كمنزلة الزوائد وكثيراً ما يتغير معنى الكلمة وصيغتها بتغيير الحركات من غير زيادة ولا نقصان في الحروف(١) .

الكلمة : أَسد . أُسْد . الجَدّ . الجُدّ . الجِدّ . عَلَم . عُلُم . عِلم .

الميزان : فعل . فُعل . الفَعل . الفُعل . الفِعل . فعل . فُعل . فِعْل .

وذلك لأن الحركات ليست إلا حروف مد قصيرة فحكمها في تصريف الكلام وبناء الألفاظ حكم حروف المد الزائدة ولكن العرب أثبتوا في الكتابة الحروف الأصلية الثلاثة مجردة من الحركات لثبوتها مهما تبدل شكل الكلمة بخلاف الحركات فانها كثيرة التحول والتبدل .

---

(١) وقد جمع المتقدمون الألفاظ المتماثلة في الحروف والمختلفة في بعض الحركات في فصول أو مؤلفات خاصة وبينوا ما بينها من فروق في المعنى كالعَلاقة والعِلاقة والجد والجد والمؤخر والمقدم بالفتح مع التشديد أو بالكسر مع التخفيف والسَداد والسِداد والحَمل والحِمل والخلف بالسكون والفتح انظر المزهر ج ٢ ص ٢٨٨ طبعة دار احياء الكتب العربية بعنوان (ذكر جملة من الفروق) وذكر جملة من الفروق .

أوزان الأبنية ووظيفتها الفنية :

إن صيغ الألفاظ يمكن أن ننظر إليها على أنها أبنية مركبة على هيئة مخصوصة تتألف على مثالها حروف الكلمة الأصلية والزائدة ويمكن أن ننظر إليها من جهة أخرى على أنها أوزان موسيقية خاصة فان جميع الألفاظ المبنية على هيئة (فاعل) مثلاً هي من وزن موسيقي واحد وكذلك ما كان منها على وزن مفعل أو مفعول أو فعيل أو فعول أو غيرها من الأبنية . إن الكلمات التي تكون على بنية واحدة تجمعها رابطة الجرس والنغمة وتميزها في الكلام المسموع من غيرها من الألفاظ كما تجمعها أو تكاد رابطة التناظر التزييني في الكلام المكتوب وإن كانت الأولى أوضح وأقوى . وهذه النغمة المشتركة بين الألفاظ التي تكون على وزن واحد تعين على استخراج المعنى المشترك بينها وتعين الطفل والمتعلم الغريب عن اللغة على معرفة جزء من معنى الكلمة وهو الجزء الذي يتأدى بالصيغة فاذا سمع الطفل أو الغريب كلمة على وزن (فاعل) عرف أنها تدل على من يقوم بالفعل (معنى الفاعلية) ولو لم يعرف مادة الكلمة إذا سبق له معرفة هذا الوزن أو معرفة عدد من الألفاظ على هذا النسق .

ولذلك كانت أبنية الألفاظ وأوزان الكلم العربي وحدات موسيقية

ترجع إليها جميع ألفاظ اللغة العربية وكان الكلام في حال تركيبه سواء أكان شعراً أم نثراً مجموعة من التراكيب والوحدات الموسيقية إذا أحكم تركيبها وتولتها يد صناع وحس مرهف وفكر نافذ كانت إلى جانب أدائها للمعنى قطعة فنية موسيقية تسابق المعنى إلى القلب عن طريق الحس والسمع حتى إن الكلام العربي ليبدو كأنه زخارف الفن العربي في صوره المتناظرة والمتكررة والمتشابهة والمختلفة وهذا هو سر موسيقية اللغة العربية وجمال ايقاعاتها وحلاوة نغماتها ولا سيما إذا وقع صائغ الكلام على أنواع موفقة من التأليف والمزاوجة بين الألفاظ ولا عجب إذا بلغت هذه الموسيقى ذروة الكمال في الكتاب العربي المبين الذي صاغه من صنع الطبيعة وجمالها .

وهذه الخصائص الموسيقية التي تتجلى في أوزان الألفاظ في اللغة العربية من الخصائص التي تميزت بها ولا نظير لها في اللغات الاخرى المشهورة فليس للألفاظ الدالة على اسم الفاعل أو على اسم المفعول من الأفعال في الفرنسية أو الانكليزية وزن موسيقي مشترك أو نغمة واحدة لأن طريقة هذه اللغات في تصريف ألفاظها هي طريقة الالصاق والالحاق وذلك باضافة بعض الحروف إلى الكلمة في أولها أو آخرها فتنشأ من ذلك ألفاظ لا يجمعها وزن ولا تركيب متشابه وليس بينها من مشترك إلا وجود أصوات متماثلة في أولها أو آخرها

أضف إلى هذا أن كثيراً من القوالب المعنوية أو الصيغ في اللغة العربية لا يقابلها شيء مطلقاً في تلك اللغات كأفعل التفضيل وأسماء الزمان والمكان والآلة فانهم يتوصلون إلى الابانة عنها بجمل أو تعابير تتألف من أكثر من كلمة واحدة .

وقد حاول بعض المتقدمين من فقهائنا كابن جنى كشف الصلة بين معاني الصيغ وأوزانها فبدت لهم في هذا الباب خواطر طريفة وملاحظات مفيدة ولكنها لا تصلح لأن تكون تعليلاً شافياً . فمن ذلك ما وجدوه من مناسبة بين تشديد العين في فعال — مبالغة اسم الفاعل — وفي فعّل وما تضمنه معناهما من المبالغة والتشديد أو التكثير وكذلك ما بين وزن فَعَلان في حركاته المتوالية الكثيرة ومعنى الحركة والاضطراب الذي تدل عليه ألفاظ (غليان وهيجان) وما في تشديد العين في تفعل من افادة التمهل والتدرج في مثل (تجرع وتبصر وتحسس) .

الصيغ والأوزان في اللغة العربية

عددها — تصنيفها

لقد سبق القول أنه يمكن تصنيف ألفاظ العربية إلى زمر وأنواع حسب أوزانها ولا يشذ عن هذه القاعدة من ألفاظ العربية إلا الحروف والظروف

الجامدة ولذلك لم تذكر لها صيغ وأوزان حين ذكرت للأفعال والأسماء التي حصرت فيها . والحق هو أن الحروف وبعض الظروف كلمات جمدت على شكل من الأشكال ويعتقد أكثر الباحثين أنها في الأصل مشتقة من ألفاظ حية انقطعت صلتها بها بعد تطورها إلى هذه الاشكال الجامدة وما حاجتها إلى الصيغ مادامت منفردة بنفسها بانقطاع صلتها بأصولها الاولى وبعقمها وانقطاع نسلها وإنما الحاجة إلى الصيغ للتوليد والتصرف في أشكال شتى على أن هذه الحروف والظروف الجامدة لا تعدم أن تكون ذات أوزان من الناحية الصوتية والموسيقية أو أن تكون هي نفسها صلات موسيقية بين الألفاظ إذ هي لا تعدو أن تكون حرفاً واحداً كالواو والفاء واللام والباء وهذه الحروف حين تتصل بالأفعال أو الأسماء لا تفسد موسيقاها بل تكون صلة بين الأوزان أو تتصل بالوزن فتكون معه وزناً جديداً وتتوزع في أي كلام عربي توزعاً لا يفسد الانسجام ولا ينقصه أو أن تكون حرفين مثل (قد ، لم ، لا ، لن ، من ، في ، أم) وهذه تؤلف فاصلة موسيقية صغيرة تدخل في حشو الكلام وفي تضاعيف أوزان الألفاظ أو أن تكون ثلاثة أحرف وتكون في هذه الحالة ذات وزن موسيقي كامل مشابه لأوزان الأسماء او الأفعال وذلك مثل (على وألا = فَعَل وإلى = فِعَل) ومثلها ثم ورب وعند .

وللعربية في توزيع حروفها ومدودهـا وحركاتها وسكونها في تأليف مفرداتها وتركيبها نظم خفية وقوانين مستسرة جديرة بالعناية والبحث .

عدد الأبنية في العربية :

اخذ علماء اللغة والنحو منذ بدء تدوينها باحصاء الأبنية في اللغة العربيـة فعدّ سيبويه (٣٠٨) مثالاً عدا اوزان الأفعال وما زال البحث عنها يزيد في عددها حتى بلغ بها ابن القطاع المتوفي (٥١٥) هـ في كتـاب الأبنية الذي الفه (١٢١٠) من انواع الأبنية وقـد نقل عنه السيوطي في كتابه الجامع (المزهر) كما نقل عن غيره في القسم الذي خصصه للأبنية بحثاً واسعاً مفصلاً ولكنه يحتاج إلى تصنيف وتنسيق لما فيه من المكررات بسبب تعـدد المصادر التي نقل عنها السيوطي .

وأرى أن عدد الأبنية المستعملة في اللغة العربية أقل من هذا العدد بكثير فان كثيراً من الأبنية التي ذكرها السيوطي لم يرد على وزنها إلا كلمـة أو بضع كلمات وحبـذا لو تقدم بعض الباحثين إلى هـذا الركام الذي قدمـه السيوطي كما جمعه ونقله ، وقام بدراسته دراسة احصائية تحليلية .

ونرى أن الأبنية التي أحصاها السيوطي يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الأبنية **الكثيرة الاستعمال** كأبنية الأفعال المعروفة وتصاريفها والمشتقات السبعة والجموع القياسية السالمة منها وغير السالمة وهذه الأبنية مطردة قياسية ويمكن أن نقول عنها أنها (صيغ حية) .

الثاني : الأبنية **القليلة الاستعمال** وهي التي ورد على وزنها عدد من الألفاظ يمكن عده واحصاؤه ولكنها وقفت عند هذا الحد المنقول عن العرب دون زيادة فيها وذلك مثل (فَعالية : رفاهية . علانية . سواسية .... الخ) و (فِعّيل : سكير . صديق . غريد . شرير ... الخ) و (أفعولة : أعجوبة . أسطورة . احدوثة الخ) . ورأينا في هذا النوع من الأبنية أنه يحتمل وجهين أحدهما أن هذه الأبنية كانت حية ثم جمدت ووقفت فيها الحياة وبقيت الكلمات التي ولدتها مستمرة الاستعمال ولكن الصيغة التي ولدتها عقمت. وثاني الاحتمالين أنها صيغ جديدة حديثة المولد ولكنها لم تر النور حتى هاجمها النحاة واللغويون حين تدوين اللغة والنحو وضبطوها على تلك الحال فحالوا بينها وبين المسير ووقفوا دون نموها على اعتبار أنهم وجدوها عند أصحابها العرب هكذا محدودة العدد ولم يراعوا أنها كانت في بدء نموها وأول نشأتها وأن اللغة لو استمرت

في حضن أهلها ولم تنتقل إلى أهل الصنعة من النحاة واللغويين لنمت وترعرعت.

وفي هذا النوع من الأبنية يقع الخلاف بين القائلين بالقياس والقائلين بالسماع وكأن الحجة القائمة في نفوس القائلين بالقياس هي أن العدد الوارد على وزن من الأوزان كاف لاعتبار هذه الصيغة حية وإن كان ما نقل عن العرب من الأمثلة من وزنها محدود.

ومن ذلك اختلافهم في فعّال للحرفة فقد قالوا أنها سماعية وقال المبرد قياسية وقالوا إن مَفْعَلة كمأسدة سماعية ورأى بعضهم قياسها لكثرتها ورأى سيبويه أن مصادر الثلاثي سماعية ورأى الزمخشري أنها قياسية لكثرتها[1].

وإن خرق الناس لبعض قواعد النحاة واللغويين واقدام الكتاب في عصور العربية الزاهرة على استعمال ما منعوا قياسه من الصيغ دليل على حيوية تلك الصيغ كاستعمال الكتاب حتى اللغويين منهم صيغة مفاعيل جمعا لمفعول من ذلك قولهم مشاهير — وقد استعملها صاحب القاموس في مقدمته — ومواضيع ومجاميع ومشاريع. وان

(١) راجع السماع والقياس لأحمد تيمور حيث تجد مصادر كثيرة لموضوع وفي الخصائص لابن جنى فصل في تعارض السماع والقياس. انظر كذلك كتاب الاقتراح في اصول النحو للسيوطي.

البت على كل حال في قياسية بعض الصيغ المختلف عليها أمر يحتاج إلى درس وتمحيص .

الثالث : من أنواع الأبنية والصيغ هو النادر الاستعمال كالصيغ التي جاء على وزنها كلمة أو بضع كلمات وهو ما أسماه المتقدمون نوادر الأبنية وأفرد له ابن قتيبة في أدب الكاتب والسيوطي في المزهر فصولاً خاصة . ومثال ذلك وزن (فَعَلُوت) وجاء منها ملكوت وجبروت ورحموت ورهبوت و(فُعُّول) منها سبوح وقدوس و (فاعيل) ومنها قابيل وهابيل وآمين و (فِعْيَل) ومنها عثير وغرين و (فعِل) ولم يرد منها إلا إبل وإطل وهو الخصر وإبد لغة في الابد وهما متروكتان و (فِعّيلي) ومنها خِصّيصي وبضع ألفاظ أخرى .

ورأينا في هذا النوع من الأبنية التي لم يرد على وزنها إلا كلمة أو كلمات قليلة جداً أنها بقية باقية لصيغ كانت حية ولكنها ماتت من عهد بعيد وقد ترجع إلى العهد الذي كانت فيه اللغات السامية لغة واحدة أو لهجات متقاربة إذا صح أن اللغات السامية كانت لغة واحدة . والرجوع على كل حال إلى اللغات السامية الأخرى والبحث في صيغها وأبنيتها ولا سيما في العصور القديمة يعين الباحث في هذا الموضوع وينير السبيل . وثمة احتمالات أخرى منها أن بعض هذه الألفاظ غريب الأصل دخل اللغة العربية من عهد بعيد واحتفظ بصيغته

الأجنبية ومنها أن بعض الكلمات دخل عليها تغيير في لفظها وتبـديل في بعض حروفها أو حركاتها أو بعد العهد بأصلها حتى نسي وجهل وظنت أنها أصليـة وأخذ اللغويون يبحثون عن وزنها وبنيتها .

وبالجملة فان الأبنية التي من هذا النوع يمكن أن نسميها أبنية ميتة وأن نعتبر الألفاظ الباقية على وزنها من رواسب الماضي البعيد .

أوزان الأسماء والأفعال

قسم اللغويون الأبنيـة إلى قسمين أحدهما للأسماء والآخر للأفعـال ولا شك أن أبنية الأفعال محدودة واضحـة المعالم تبلغ بضعاً وعشرين بناء وقد زاد بعضهم فيها أوزاناً ردهـا آخرون إلى الأوزان المعروفة وذلك مثل (تفوعل) تجورب و (تفيعل) تشيطن و (تمفعل) تمسكن و (تفعلى) تقلسى و (تفعنل) تقلنس وجمهور الصرفيين جروا على اعتبارها جميعاً من باب تفعلل وإن كانت الدقة تستوجب التفصيل (راجع المزهر للسيوطي ج ٢ أبنية الأفعال) .

وأما أبنية الأسماء فعددها كبير جداً وقد قدمنا القول في ذلك ولكن ما نحب ان نلفت النظر اليه هنا هو البحث عن وجود أوزان خاصة لكل من الأسماء أو الأفعال أو انتفاء هذا الاختصاص .

إن بين أوزان الأفعال والأسماء كما تبـدو لنا في حالتها الحاضرة في لغتنا أوزاناً مشتركة وإن كان استعمالها في حشو الكلام يميز كلاً منها بحركة الاعراب في آخره . وإليك بعضها :

الأوزان :	فَعلَ	فَعِل	أفعل	فعلل	فاعَل
الأسماء :	جمل	حذِر	أسود ـ أعلم	جعفر	خاتم
الأفعال :	كتب	علِم	أقدم ـ أعلمُ	دحرج	سابَقَ

وانما أردنا من ابداء هذه الملاحظة فتح باب البحث والتساؤل عن تعليل هذا الاشتراك وهل يرجع إلى عهد من عهود اللغة لم يكن التميز فيه بين الأسماء والأفعال واضحاً . لا شك أن تخصيص كل من الأسماء والأفعال بأوزان خاصة دليل على ارتقاء اللغة ودقتها في التعبير فاللغة التي لا تميز بين الأسماء — ومنها الصفات — والأفعال تقع في التباسات كثيرة ولا سيما إذا خلت من الاعراب . واللغة العربية منذ عهد بعيد ميزت في صيغها وأبنيتها بين الأفعال والأسماء . ونذكر بهذه المناسبة قصة أبي الأسود مع ابنته حين قالت ما أحسنُ السماءِ إذ خلطت بين احسن التي هي اسم تفضيل وأحسن التي هي فعل استعمل للتعجب .

ويمكن أن نصنف الأبنية من جهة دلالتها على المفرد أو الجمع إلى أبنيـة

خاصة بالجموع وذلك مثل فواعل وفعائل وفعالي وفعاعل ومفاعيل وأبنية خاصة بالمفرد وهي أكثر الأبنية المسرودة في كتب اللغة مما سوى الأبنية التي نص على كونها جموعاً(١) وأبنية مشتركة بين الجمع والمفرد مثل (فِعال) فقد تدل على المفرد ككتاب ولباس وجهاد وقد تدل على الجمع كرجال وكرام ومثل فُعل (أُسد — قُفل) وفِعلة (جِلسة — صبية).

وقد أورد علماء الصرف وفقهاء اللغة أبنية الجموع وجعلوها أقساماً (سالمة وغير سالمة وجموع قلة وجموع كثرة) كما أورد علماء اللغة الألفاظ التي شذت عن القاعدة كأن يكون البناء للمفرد وتأتي منه ألفاظ تدل على الجمع وذلك كبناء فَعَل فقد ورد منها ألفاظ مخصوصة جمعاً لفاعل مثل (حرس، خول، سَلَف، عسس، خدم، همل) (٢) أو ان يكون البناء للجمع وتأتي منه الفاظا تدل على المفرد كوزن فُعُل فقد جاءت منه الفاظ معدودة ليست جمعاً مثل (حول، قلب، خلب، دمل، صلب، سلّم ..) (٣) قال ابن فارس ولم يوجد في كلام العرب أفعُل غير هذا الحرف (آنك بمعنى الرصاص. وحكي عن الخليل أنه لم يجد أفعُلا إلا جمعاً غير أشد (٤).

---

(١) مثال أبنية المفرد فُعال واستثنوا من ذلك عشر كلمات انظر المزهر ٢٤ ص ٧٢

(٢) المزهر ٢ ج ص ١١٥ (٣) المزهر ج ٢ ص ١١٦ (٤) المزهر ٢ — ١١٧ وقال بأن فعلاء صفة للواحد الا نفساء وعشراء.

ونبه علماء اللغة كذلك إلى ما كان خاصاً من الأبنية بالاسماء وما كان خاصاً بالصفات وما استثني من ذلك فوزن فَعِل مثلاً لم يأت إلا صفة كحذر ودرد [١] ووزن فُعَال للاسم كغراب والصفة كشجاع ووزن مفعِل للاسماء كمسجد وهو قليل في الصفات وفي الصحاح ليس في كلام العرب فِعْلى صفة وإنما هو من بناء الأسماء كالشعرى [٢].

الالفاظ الاعجمية :

إن العرب إذا أدخلت لفظاً أعجمياً في لغتها فالغالب أنها تنقله إلى وزن من أوزانها (صراط = فعال ، قرطاس = فعلال ، إقليد = إفعيل) . وقد يبقى على وزن خارج عن أوزان العربية وهذا هو الأقل والاندر كلفظ آجُرّ .

---

(١) المزهر ٢ ج ص ٥ (٢) المزهر ج ٢ ص ٥٣ و ص ٦٧

حياة الابنية

نشوؤها . تطورها . ثباتها

إن ما قدمناه من دراسة لابنية الألفاظ وأوزانها في اللغة العربية يعطينا صورة واضحة عن هذا الجانب منها كما تبدو لنا في عصورها المعروفة ونصوصها المتداولة القديمة منها والحديثة وتبدو لنا من هذه الدراسة الملاحظات التالية :

١) إن في اللغة العربية عدداً كبيراً من الصيغ أو الأوزان المتنوعة في أشكالها وهيئات تركيبها وفي دلالاتها ومعانيها منها المتقارب المتشابه والمتباعد المختلف وعلى مثالها وهيئتها وردت جميع ألفاظ العربية الدالة على المعاني أي كل ما سوى الأدوات النحوية والروابط اللفظية .

٢) تعدد معاني الأبنية :

قد يدل الوزن الواحد في العربية على معان متعددة فوزن (فعيل) يدل على الصفة الثابتة في نحو (كريم وشريف وخبير) وعلى الصوت في نحو (صهيل وعويل وزئير) . ويدل وزن (فِعال)على مصدر فاعل يفاعل(كقتال وسباق) وعلى أدوات وآلات في مثل (إناء وحزام) وعلى جمع فعيل أحياناً (ككرام ولئام وطوال) .ويدل وزن (أفعل) من الافعال على متعدي فَعَل

اللازم كأخرج وعلى وجدان الشيء على صفة كأحمده وجده حميداً وعلى بلوغ الشيء كأحصد الزرع بلغ أوان حصاده وغير ذلك من المعاني الكثيرة التي عددها ابن قتيبة في أدب الكاتب وغيره .

٣) *تعدد الصيغ للمعنى الواحد* :

قد يدل على المعنى الواحد أوزان متعددة فبالغة اسم الفاعل تدل عليها صيغة (فعّال ومفعال وفعول وفعل و فِعّيل) وعلى الأصوات (فُعال وفَعيل) والألفاظ الدالة على الآلات والأدوات وردت على أوزان متعددة منها (فاعول) وقد وردت على وزنها عدد من الكلمات كالخاطوف والساطور والقارورة والكانون والماعون والناقوس ووردت كلما أخرى على وزن (فِعال) كالعنان والشمار والدثار والرداء والازار والغطاء وأتت غيرها على وزن (مِفعل) كمبرد ومسن وأخرى على وزن (مِفعال) كمفتاح ولم يذكر النحاة إلا هذين الوزنين الاخيرين ولعل ماورد منهما أقل مما ورد على وزن فِعال .

٤) *تفاوت الصيغ في حيويتها* :

ومما يلاحظ أن الصيغ والأوزان التي استخرجها واستقصاها علماء اللغة ليست متساوية في استعمالها فبعضها بادي النشاط ظاهر الحياة وبعضها راكد جامد العروق ثابت في مكانه وبعضها الآخر ميت بعيد العهد بالحياة .

٥) تولد صيغ جديدة :

وإلى جانب مالاحظناه من عارض الجمود وركود الموت في بعض الأوزان نلمح نشوء صيغ جديدة في عصور العربية بعد الاسلام وبعد العهد الذي بدىء فيه بتدوين العربية كالصيغة الناشئة من اضافة الألف والنون مع ياء النسب نحو روحاني وجسماني ومن اضافة ياء النسب مع التاء للدلالة على المذهب كالصوفية والسلفية والمادية والاشتراكية .

وإذا التفتنا قليلاً إلى اللهجات العامية في البلاد العربية للاستنارة وتتبع بعض الظواهر لاحظنا ميل هذه اللهجات إلى ابتداع بعض الصيغ القريبة من القديمة والمشابهة لها أو ابدال الصيغة الدالة على معنى بصيغة أخرى وذلك كصيغة (تفعلن) في اللهجة الشامية (تكسلن . تحمرن) و (انفعل) في اللهجة المصرية للافعال المطاوعة و وزن (فعّال) مع تاء التأنيث وبدونها لتسمية الآلات والأدوات الحديثة في كثير من اللهجات العربية وذلك نحو (سخانة وبراد وسماعة وغسالة ولقاطة ومساحة) [1] وكاستعمال وزن (فعيل) في اللهجة الشامية كذلك لمبالغة اسم الفاعل بدلاً

(١) أهملنا في التمثيل الألفاظ العامية التي لا تتصل بالفصحى وهي كثيرة في اللهجة الشامية وذلك نحو (كاشة ونكاشة وفواشة) .

من (فعّال)[1] وقد دخلت بعض هـذه الألفاظ في اللغة الفصحى ولم ينكر استعمالها أحـد لامكان تخريجها على قواعدها وأصولهـا وذلك مثل (سيارة وبرّاد ودراجة ...)

★ ★ ★

تطور الأبنية :

ان ما تقدم من هذه الملاحظات والظواهر التي تبدو في أبنية العربية وأوزانهـا تدعونا لطرح السؤال التـالي على بساط البحث والتأمل في الاجابة عليه :

الا تدل هـذه الظواهر من تعـدد الصيغ وتشابه بعضها وتعـدد معانيها أحياناً واجتماعهـا أحياناً أخرى على معنى واحـد وتناوبهـا عليه واختلافها حياة وجموداً وظهور صيغ جديدة ألا تدل على تبـدل وتطور في الأوزان العربية وإن كان بطيئاً خلال العصور الطويلة سواء في شكلها ومبناها أو في دلالتها ومعناها ؟

إن الفكرة التي تبدو للمتأمل بادي الرأي في أمر الصيغ والأوزان

---

(١) فيقولون فلان أكيل وشرّيب وشغّيل وسبّيح مع الابقـاء على الفصحى الموروثة كسرّاق وكذّاب .

في اللغة العربية هي أن هذه الأوزان كانت وما تزال منذ عهد الشنفري وامرىء القيس هي هي لم تتبدل ولم تتغير. فالفاعل من كل مادة يدل على من فعل الفعل والمفعول يدل على من وقع عليه الفعل وهكذا الصيغ الأخرى. فهي عنصر من عناصر الثبات والاستمرار والاتصال في اللغة العربية نقلت في قوالبها الرائعة الأفكار والمعاني من جيل إلى جيل خلال عصور طويلة وذلك ما عجزت عنه كثير من اللغات إن لم نقل اللغات كلها وهذه الفكرة صحيحة سديدة ولكنها لا تمنع أن يكون ثمة تطور بطيء جداً نكاد لا نشعر به وهو لا يحول دون اداء الصيغ لهذه الوظيفة الرائعة ولا يشابه مافي اللغات الأخرى من تبدل سريع لا تفرضه الحاجة ولا تتطلبه الحياة يجعل اللغة لغات مختلفة ويقطع ما بين الأجيال .

إن دراسة الصيغ والأوزان في العربية لا تزال في مرحلة لا تسمح للباحث أن يرسم خط تطورها ويستخرج قوانين تبدلها خلال العصور . ذلك أن بلوغ هذه النتائج يستوجب دراسة شاملة واستقراء تاماً للأوزان في جميع عصور العربية كما يستوجب الرجوع إلى دراسة الموضوع نفسه في اللغات السامية منذ عهودها الأولى التي كانت فيها على اتصال واشتراك ولم يقم أحد فيما نعلم بمثل هذه الدراسة وعلى هذا فكل ما يقال وما يمكن أن

نقوله في هذا البحث لا يعدو كونه خواطر وافتراضات قد يصدقها البحث أخيراً أو ينفيها .

ويمكن القول أن التغير الطارىء على الأوزان في أطوارها المتعاقبة واقع على بنائها أو على معناها ومدلولها .

أما تطور بناء الاوزان وشكلها فهو الأقل وقوعاً والا بطأ حدوثاً لما نلاحظه من ثبات أوزان العربية خلال عصور متطاولة ويرى بعض الباحثين[١] ان وزن (فاعيل وفاعول وفاعال) من أقدم الأوزان وان فاعيل بتطورها ولدت (فاعِل وفعيل) ومنهما تولد وزن (فَعِل) وان (فاعول) ولدت (فعول) وان (فاعال) ولدت (فاعَل وفَعال) ومنهما تولد (فَعَل) وليس لي ما أقوله نفياً أو اثباتاً في هذا الرأي الذي يحتاج في نظري إلى تحقيق واسع .

أما تطور معاني الاوزان ودلالات الصيغ فهو أظهر وأوضح لما له من شواهد في عصور العربية المعروفة المدونة وهو أكثر وقوعاً واسرع حدوثاً ومن أبرز الأمثلة على هذا النوع من تطور الأوزان ما ورد للدلالة على

---

(١) مقدمة لدرس لغة العرب لعبد الله العلايلي ص ١٧٠ .

الآلات والأدوات فان أقدم الألفاظ التي تدل على ذلك وردت على وزن (فاعول) وهي محدودة قليلة ولكن العدد الأكبر منها جاء على لفظ (فِعال) كالألفاظ الدالة على الألبسة (ازار ورداء وخمار ونطاق وحزام ونقاب ولباس وغيرها) وكالألفاظ الدالة على مرافق وأدوات أخرى متنوعة (كاللجام والعنان والوعاء والسقاء والغطاء والفراش والكتاب والوقاء والقراب) وهي ألفاظ كثيرة وقديمة ترجع إلى ما قبل الإسلام ، ثم نجد ألفاظاً على وزن (مِفعَل أو مفعال) كمجنّ ومبرد ومفتاح . وإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة وجدنا اتجاهاً في اللهجات العامية العربية إلى استعمال وزن (فَعّال) للدلالة على الآلة المستحدثة . فهل يعني هذا ان الدلالة على الآلة تبدلت الصيغة الدالة عليها خلال العصور من فاعول إلى فِعال إلى مفعل ومفعال إلى فعّال (في العامية مع تخريجها في الفصحى) ، وإذ كانت هذه الصيغ موجودة كلها فقد جرى التبدل في الانتقال من واحدة إلى أخرى وأدى ذلك طبعاً إلى ان الصيغ تتغير دلالتها وتتطور معانيها . ولكن الصيغة التي يتبدل معناها تبقى محتفظة بالمعنى القديم فتصبح ذات دلالتين أو تنتقل إلى المعنى الجديد وتبقى الألفاظ التي صيغت على مثالها في الطور الأول على حالها ولكن عددها يبقى محدوداً فلا يزيد .

ولا شك أن تجاور المعاني وتداعيها سبب لانتقال الوزن أو البناء من معنى إلى آخر من ذلك أن المبالغة في الفعل في صيغة (فعّال) تقتضي شدة التلازم بين الفاعل والفعل ولهذا استعملت للدلالة على النسب والحرفة ولو لم يكن منها فعل كالعطار من العطر والسمان من السمن والزيات من الزيت والفنان من الفن ومن هذا القبيل نشوء معنى السببية في صيغة (مَفعَلة) وهي في الأصل تدل على المكان فنقلت من الدلالة على المكان إلى الدلالة على السبب وأضيفت إليها التاء للتفريق .

وعلى هذه النسق من التأويل يمكن أن نقول إن الآلة التي تؤدي عملاً أو يؤدى بها عمل من الأعمال تحدث ذلك النوع من العمل بكثرة ويكون بينها وبينه تلازم وبذلك يمكن أن يطلق عليها لفظ (فعّال) مشتقاً من نوع العمل الذي تقوم به كغسّالة وكسّارة لكثرة ما تغسل أو تكسر وبرّاد لملازمته للبرد أو لتبريده وإحداثه للبرد .

إن دراسة أبنية الألفاظ في أطوارها الماضية وأشكالها الحاضرة في تاريخها وحاضرها تنير أمامنا السبيل للنظر في حل مشكلاتنا الحاضرة المتعلقة بهذه الناحية من لغتنا وتجعلنا نشرف على المستقبل ونحدد اتجاه المسير في هذا التطور المقبل .

ان الأسئلة التي تعرض اليوم للباحثين في موضوع أوزان الألفاظ وصيغها والتي عرضت من قبل للسابقين هي هذه :

١) هل لنا أن نأتي بصيغ جديدة ونبتدع أوزاناً مستحدثة لاداء حاجاتنا الفكرية الجديدة وما هي الطريقة إذا كان ذلك جائزاً وكيف تصاغ هذه الأوزان ؟

٢) هل لنا أن نحيي صيغاً حكم المتقدمون بجمودها أو موتها أو قالوا إنها سماعية لا يقاس على مثالها وإنما يكتفى بما ورد عن العرب من ألفاظ على وزنها كجمع مفعول على مفاعيل أو جعل (مَفْعَلَه) للمكان الذي يكثر فيه الشيء و (فُعال) للأمراض فهل لنا أن نجعلها قياسية ؟

٣) هل لنا أن نتوسع في معاني الصيغ والأوزان المعروفة فننقلها إلى معان أخرى أو نضيف إلى معناها معنى جديداً ؟

إنني سأقف هنا دون الاجابة على هذه الاسئلة لأني أعتقد أن الجواب العلمي عليها سابق لأوانه لأنه يفترض انتهاء البحث في أصول الأبنية وتطورها والحصول على معرفة واضحة كاملة لحاضرها وماضيها أما إستعجال الجواب بالاستناد إلى ما اتضح لدينا من معرفة وما انفتح أمامنا من آفاق وتجمع لدينا

من آراء فذلك ما لا يستطيع المتأمل في هذا البحث أن يجازف بالقائه وإن كان الخروج من هذا الموقف أمراً لا بد منه لأننا أمام مشكلة لغوية لا نستطيع إلا أن نحلها على وجه وإن سكتنا عنها لم تسكت الألسنة التي تقول والأقلام التي تكتب لتعبر عن هذه الحياة التي أصبحت غنية بالمعاني خصبة كثيفة معقدة(١) وهذا ما حمل مجمع اللغة العربية إلى اتخاذ عدد من القرارات في قياسية بعض الصيغ وتعميمها .

---

(١) ممن تقدموا في ميدان هذه المجازفة العلمية مع إقراره بأنها مجازفة الاستاذ عبد الله العلايلي فقد أعطى رأيه الاجمالي في الموضوع ثم سرد رأيه مفصلاً في معاني الصيغ وفي الصيغ التي يرى استحداثها ضرورياً . انظر كتابه مقدمة لدرس لغة العرب ص ٦٣ — ٩٦ .

تكملة

رأينا بعد الانتهاء من بحثي الاشتقاق والأبنية إضافة بعض الآراء والملاحظات مما هو مشترك بين البحثين أو مما فاتنا ذكره في أحدهما :

١ — كان بحثنا في الاشتقاق دائراً على الثلاثي دون التعرض للرباعي والخماسي المجردين أي المؤلفين من حروف أصلية لا زيادة فيها وذلك لأن عددهما في العربية بالنسبة إلى الثلاثي ضئيل جداً وقد ورد في العربية عدد محدود من الأفعال المؤلفة من أربعة حروف أصلية كدحرج ولم يرد منها ذوات الخمسة إلا مزيدة وأما الأسماء فقد جاء منها الرباعي المجرد والخماسي كذلك . وقد أفرد ابن فارس الألفاظ الرباعية والخماسية المجردة في معجمه مقاييس اللغة ووضعها في مكان مستقل في آخر كل مادة ورأى كثير من اللغويين انها ترجع إلى الثلاثي فيرى الكوفيون ان الحروف الأصلية لا تزيد على ثلاثة وما زاد منها فليس بأصلي فيها [1] وقد حاول ابن فارس أن يعيد أكثرها إلى الثلاثي عن طريق النحت قال في معجمه مقاييس اللغة [2] « اعلم ان للرباعي والخماسي

(١) همع الهوامع ج ٢ ص ٢١٣ .
(٢) ج ١ ص ٣٢٨ .

مذهباً في القياس يستنبطه النظر الدقيق وذلك ان أكثر ما تراه منه منحوت ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخـذة منهما جميعاً بحظ . . . . فعلى هذا الأصل بنينا ما ذكرناه من مقاييس الرباعي فنقول ان ذلك على ضربين أحدهمـا المنحوت الذي ذكرناه والضرب الآخر الموضوع وضعاً لا مجال له في طرق القياس » ثم . يزيد نوعاً آخر فيقول : « ومن هـذا الباب ما يجيء على الرباعي وهو من الثلاثي على ما ذكرناه لكنهم يزيدون فيه حرفاً لمعنى يريدونه من مبالغة كما يفعلون ذلك في زُرقُمَ وخَلبَن » .

وعلى هذا فان ابن فارس يرى أن الرباعي والخماسي إما أن يكون منحوتاً من كلمتين ومثال ذلك (بحثر) الشيء إذا بدده فهي منحوتة من (بحث) إذا طلب شيئاً في التراب و (البثر) الذي يظهر على البدن و (تخطرف) الشيء إذا جاوزه منحوتة من خطر وخطف أو أن يكون فيه حرف زائـد كالميم في (بلعوم) وهي من بلع و (العرمرم) من عرم والراء والميم زائـدتان أو أن يكون وضع من الأصل على أربعة أحرف أو خمسة كالزخرف ولكنه يشير في بعض المواطن من معجمه إلى أن هذا القسم الأخير قد يكون له أصل لم يهتد إليه كالمخضرم أو أن يكون لفظاً أعجمياً معرب كالخندريس .

النحت :

٢ — ان النحت طريقة من طرائق توليد الألفاظ وهو قليل الاستعمال في

اللغة العربية شائع في غيرها من اللغات الهندية الأوربية على عكس الاشتقاق الذي هو القاعدة الأساسية في توليد الألفاظ في اللغة العربية وان ما رواه العلماء من الكلمات المنحوتة في العربية محدود العدد جداً كالبسملة والحمدلة وعبشمي في النسبة إلى عبد شمس وكثير من هذه الكلمات حادث بعد الإسلام.

وقد يكون النحت طريقة كانت مستعملة في عصور العربية القديمة ومن تلك العصور بقيت هذه الألفاظ الرباعية والخماسية المنحوتة ولكن العربية فيما بعد أهملت هذه الطريقة في توليد الألفاظ الجديدة وسلكت طريق الاشتقاق وهي طريقة أدل على الحيوية وأشبه بطريقة توالد الأحياء في زيادتها ونموها بخلاف النحت فطريقته أشبه بطريقة الجوامد في زيادتها ونموها عن طريق اللصق والاضافة .

الاشتقاق المركب وتوهم الاصالة :

٣ — ان من المشتقات نوعاً لم يسمه القدماء ولم يفردوا له بحثاً خاصاً وإن كانوا قد تعرضوا له في ثنايا أبحاثهم وهو الاشتقاق من المشتق كقولك *تمسكن وتمذهب وتمنطق* وهي مشتقة من *مسكين ومذهب ومنطق* وهذه مشتقة من *سكن وذهب ونطق* ونرى أن تسمي هذا النوع **الاشتقاق المركب** . ومن هذا النوع ما يكون الأصل فيه ظاهراً مثل تمذهب من ذهب ومنه ما يكون خفياً فيخفى أصله الأول القديم ويبدو للناظر أصله الجديد المشتق كأنه أصل

ومن هذا القبيل مكين وتمكن فهي مشتقة من المكان والمكان مشتق من كان والكون ولكن لكثرة استعمال لفظ المكان توهموا أصالة الميم فيها وأجروها كما لو كانت من مادة (م ك ن) لا من (ك و ن) ولذلك فقد ذكرها صاحب لسان العرب في مادة (مكن) كما ذكرها في (كون) قال في مادة (كون) : « والمكان الموضع توهموا الميم أصلاً حتى قالوا تمكن في المكان وهذا يقويه ما ذكرناه من تكسيره على أمكنة » ونقل عن الليث قوله : « المكان اشتقاقه من كان يكون ولكنه لما كثر في الكلام صارت الميم كأنها أصلية » وقوله « مكان في أصل تقدير الفعل (مفعل) لانه موضع لكينونة الشيء فيه غير انه لما كثر أجروه في التصريف مجرى فَعال فقالوا مكناً له وقد تمكن وليس هذا بأعجب من تمسكن من المسكن »[1] .

ومثل هذا يمكن أن يقال في مادة (مهن) ومنها المهنة وهي الحرفة فقد يكون الأصل القديم لها مادة (هـ و ن) ومنها هان يهون إذا صغر وحقر والمهانة الحقارة والحرف عند العرب محتقرة مع ان مادة مهن أصبحت مستقلة عن هان وأفردها أصحاب المعجم في مادة خاصة .

---

(١) راجع لسان العرب في مادة (ك و ن) و (م ك ن) والكافي في اللغة للشيخ طاهر الجزائري ص ٣٧ .

٤ — ان المادة الاشتقاقية والبناء أو الصيغة تشتركان معاً في توليد معنى الـكلمة وتحديده فالمادة الأصلية التي يكون منها الاشتقاق تعطي المعنى الأصلي العام للكلمة والصيغة أو البناء تحدده وتخصصه .

الاشتقاق والتصريف :

٥ — لكل كلمة أصل أو مادة اشتقاقية ووزن أو بناء ، وتوليد الـكلمة من أصلها وأخذها من مادتها يسمى اشتقاقاً ، وتقليبها في أوزان مختلفة يسمى تصريفاً ، وبين الاشتقاق والتصريف تشابك وتلازم وترابط . قال ابن جني في كتابه المنصف : « وهذا القبيل من العلم أعني التصريف يحتاج إليه جميع أهل العربية لأنه ميزان العربية وبه تعرف الأصول من كلام العرب من الزوائد الداخلة عليه ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به » وقال : « وينبغي أن يعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسباً قريباً واتصالاً شديداً »[(١)] وأحدهما طريق إلى معرفة الآخر فقد تكون معرفة وزن الـكلمة طريقاً إلى معرفة أصل مادتهـا الاشتقـاقية إذا كان الوزن فيها أظهر من مادة الاشتقاق وأقرب منالاً كالاضطراب والاصطفاء والاستمرار فهي ظاهرة الوزن بادية الصيغة . فالاضطراب والاصطفاء من باب الافتعال والاستمداد من

---

(١) المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف المازني ج ١ ص ٣٩٢

الاستعمال وعلى هذا فأصولها (ضرب وصفا وعدد) . وقد تكون معرفة الأصل الاشتقاقي طريقاً لمعرفة الوزن والبناء وسبيلاً للتفريق بين الأوزان المتشابهة مع انها في الحقيقة مختلفة ومثال ذلك (المناعة والمجاعة) فهما من (منع وجاع) فوزنهما اذن (فعالة و مفعلة) و (المدائح والمصائب) من (مدح وصوب) فوزنهما (فعائل ومفاعل) و (مشير و ضريد) من (شاد وعرد) فوزنها (مفعول وفعيل) .

معاني الألفاظ

سبق القول أن الكلمة تتكون من مبنى ومعنى وأن مبناها يتألف من المادة الأصلية التي ترجع إليها تلك الكلمة ، وذلك ما يبحث في علم الاشتقاق ، ومن صيغة أو قالب تصاغ فيه ، وذلك ما ينظر فيه علم الأبنية أو الأوزان . وأما معنى الكلمة وما تدل عليه وترمز إليه بلفظها فهو موضوع بحث خاص لم يعن به قدماء اللغويين كما عنوا ببحثي الاشتقاق والأبنية المتعلقين بشكل الكلمة ومادتها . على أن من العسير الفصل التام بين المبنى والمعنى وإفراد كل منهما بالبحث دون ملاحظة الوجه الآخر ؛ فبحث الاشتقاق وردّ الألفاظ إلى أصولها وجذورها لا بد أن يعتبر فيه المعنى ، وهو الذي يعين على معرفة الأصل ويدل عليه ؛ ومع هذا فان لمعاني الألفاظ آفاقاً خاصة ومجالات واسعة للبحث . ولذلك أفرد علماء اللغة من أهل هذا العصر بحثاً خاصاً لمعاني الألفاظ بل إن اتساع هذه المباحث وتفرعها دعاهم إلى تخصيصها بعلم مستقل من علوم اللغة عرف في اللغات الأوربية باسم خاص وهو (Sémantique) أي علم معاني الألفاظ أو علم الدلالة اللفظية .

والواقع أن علماء اللغة قديماً في كل الأمم عنوا أكثر ما عنوا بمباني الألفاظ وتركيبها كالبحث في اصولها واشتقاقها وصيغها الصرفية وأبنيتها ولم يولوا معانيها ما تستحق من العناية مع أن القصد من اللغة وألفاظها التعبير عن المعاني والأفكار ؛ ولكنهم لم يعنوا إلا بما يكون للعناية به أثر في تصحيح اللفظ وتقويم اللسان وصحة الإعراب وصواب الاستعمال وما إلى ذلك من أهداف عملية ؛ فعنوا بالبحث في المعنى بمقدار ما يكون له من أثر في هذه النتائج العملية .

على أن علماء العربية من أسلافنا عالجوا كثيراً من المسائل المتعلقة بمعاني الألفاظ وبلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علماء اللغات الأخرى في العصور السالفة .

إن أول ما ألف في العربية في باب اللغة تلك الرسائل التي جمع فيها رواة اللغة الألفاظ التي ترجع إلى موضوع واحد كالإبل والخيل والشجر والنبات والأنواء ، وليس هذا العمل إلا تصنيفاً للغة بحسب الموضوعات والمعاني . وكان ذلك بداية انتهت إلى المعاجم الكبرى الجامعة التي رتبت على أساس معاني الألفاظ لا على أساس الأصول والمواد كالمخصص لابن سيده الأندلسي ، وهو يقع في سبعة عشر جزءاً صنف فيه مؤلفه اللغة تصنيفاً راعى فيه

الموضوعات فوضع ما يتعلق بالسماء والنجوم مثلاً في فصل ، وكذلك الأرض وأجزاءها ، والانسان وما يتعلق به من أسماء أعضائه إلى أخلاقه وصفاته . ولا شك أن هذا العمل الضخم يضع بين أيدينا صورة شاملة للغة العربية ومصوراً مفصلاً لأجزائها نعرف منه مقدار عنايتها بكل جانب من جوانب الوجود ، سواء في النواحي المادية أو المعنوية ، ومبلغ توسعها أو اختصارها في كل ناحية منها(١) .

والمعاجم الأخرى المرتبة على المواد ملأى كذلك بما يتعلق بمعاني الألفاظ في شرح المفردات الواردة في كل مادة من مواد المعجم . ولكنها لا تراعي في ذلك أي ترتيب ، فلا ترتبها بحسب زمن ظهورها ومراحل تطورها وتفرعها ، ولا تذكر العهد الذي استعملت فيه الكلمة بمعنى من معانيها وتحدده ، وهي لا تورد إلا نادراً المعاني التي حدثت للألفاظ من بعد القرن الأول للهجرة مما جد في العصر العباسي وما بعده في كتابات الكتاب ومصطلحات الدواوين والاستعمالات الخاصة ، ولا تعلل غالباً تعدد معاني الكلمة الواحدة أو تحاول الربط بينها ، إذا استثنينا مقاييس اللغة لابن فارس وهو في نوعه مثل

---

(١) ومن هذا القبيل كتاب فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ولكنه مختصر .

رائع للمعاجم التي تعنى بمعاني الألفاظ ومحاولة الربط بينها واعادتها إلى أصول قليلة تفرعت عنها وقد وفق في ذلك إلى حد بعيد .

ويمكن أن نعتبر جميع المعاجم التي جمع فيها أصحابها ألفاظاً اصطلاحية خاصة، كالتعريفات للسيد الجرجاني ، أو نوعاً خاصاً من الألفاظ كألفاظ القرآن أو الحديث ، من المواد الأساسية لدراسة معاني الألفاظ . ومن هذا الباب مفردات القرآن للراغب الأصفهاني والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الاثير .

هذا وإن في كتب علمائنا الأقدمين مباحث متفرقة هي في الصميم من مباحث دلالة الألفاظ ومعانيها ، كالمترادف والمشترك والأضداد والخاص والعام والحقيقة والمجاز والمولد والألفاظ الاسلامية . وقد خصص السيوطي في المزهر فصولاً لهذه الأبحاث . وعني المؤلفون في أصول الفقه بهذه الأبحاث عناية خاصة وأفردوا لها فصولاً في كتبهم وذلك لأن دلالة الألفاظ من أهم موضوعات علم الاصول . ومن هذا الباب أيضاً الفروق التي أفردها أبو هلال العسكري بمؤلف خاص طبع مختصره . ولكن العجيب الطريف أن كاتباً توفي في (٣٢٢ هـ) ألف كتاباً في تطور معاني الألفاظ في جزئين جمع فيه عدداً من الألفاظ الاسلامية ودرسها دراسة تطورية تاريخية ، وتتبع معانيها من العصر الجاهلي حتى العهد الاسلامي ، وهو الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي في كتابه الذي سماه الزينة وقد طبع حديثاً في القاهرة في جزئين.

أما في العصر الحديث فقدارتقت مباحث معاني الالفاظ ، ذلك أن علوماً عديدة تظاهرت على هـذا الارتقاء وأعانت عليـه ، فعلم الأصوات اللغوية كشف عن وظيفة الأصوات التعبيرية ، وعلم النفس أوضح الصلة الواقعة بين التفكير والشعور من جهـة واللغة من جهة اخرى ، واتسع البحث في المجاز والحقيقة ، وانتهى ذلك كله إلى نشوء علم خاص باسم علم دلالة الألفـاظ في اواخر القرن التاسع عشر وظهر اسم هذا العلم (Sèmantique) في مقال كتبه ميشيل بريال M . Bréal في سنة ١٨٨٣ ؛ ثم ظهر كتاب ذاعت شهرته بعنوان (حياة الالفاظ) لدارمستتر Darmesteter في سنة ١٨٨٧ . وبعـد عشر سنين نشر بريال كتاباً في دلالة الالفاظ ثم توالت الكتابات في هـذا الموضوع وتحت هذا الاسم حتى بلغ علم الدلالة درجة الرشد على تعبير (اولمان) الاستاذ في جامعة كلاسكو بظهور كتـاب (نيروب Nyrop) في عام ١٩١٣ بعنوان : نحـو اللغـة التـاريخي Grammaire Historique وقـد خصـص الجزء الرابع منه لدلالة الألفاظ وطبع في كوبنهاج . وظهرت كتب كثيرة في هذا الموضوع في هذه الأعوام العشرة الأخيرة في مختلف اللغات ؛ ومن أحدثها كتاب الاستاذ اولمان Ulmann الذي أخرجه بالانكليزية في عام ١٩٥١ بعنوان (المبادىء الأساسية في دلالة الألفاظ Principles of semantics) ثم أوجزه في

كتابه الآخر الذي كتبه باللغة الفرنسية بعنوان (موجز في دلالة الألفاظ في اللغة الفرنسية Précis de sémantique française) وأخرجه في سنة ١٩٥٢ وقد وجدته من أجمع ما كتب في الموضوع ، وأحسنها ترتيباً ؛ وقد اشتمل على نظرة للمؤلف في معـاني الألفاظ مستخلصة ومستنتجـة من مختلف الآراء والنظرات التي أخذ بها الذين ألفوا وكتبوا في هذا الميدان الجديد .

وقد أخرج الدكتور إبراهيم أنيس أول كتاب وضع في اللغة العربية في علم الدلالة في سنة ١٩٥٨ بعنوان (دلالة الألفاظ) وهو كتاب جيد جامع متنوع المباحث ، ألم بما كتب قديماً في اللغة العربية وما كتب حديثاً في اللغات الأجنبية وخاصة في الانكليزية .

قيمة البحث في دلالة الألفاظ ومعانيها :

تتوقف كثير من قضايا الحياة على فهم النصوص فهماً صحيحاً دقيقـاً ؛ ففي ميدان الحقوق والقانون مجال كبير للاختلاف على دلالة الألفاظ ، في المعاهدات الدولية والاتفاقات التجارية والمعاملات الاقتصادية ؛ وفي ميدان الدين وخاصة في الفقه الاسلامي تحتل النصوص موقعاً خاصاً ، ويتعلق على فهمها تحـديد الافكار في العقـائد والاحكام في قضايا المعـاملات والعبادات ، ويقع لذلك الاختلاف في فهم مراد الشارع وتحديد معاني الألفاظ في القرآن والحديث.

ولذلك عني علماء اصول الفقه بكثير من مسائل الالفاظ ودلالاتها وبحثوا في العام والخاص والحقيقة والمجاز والمشترك والترادف مع أنها من مسائل علم اللغة لأن استنباط الأحكام من النصوص منوط في كثير من الأحيان بتحديد الرأي في فهم هذه المسائل اللغوية وتمحيصها وتحليلها .

ولابن جنى في هذا الباب كلام يدل على نفاذ فكر ودقة فهم ، وذلك قوله : « إن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة إليها ، فانما استهواه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطبت الكافة بها ؛ وأصل اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه منها ، وذلك أنهم لما سمعوا قول الله سبحانه وعلا عما يقول الجاهلون علواً كبيراً (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) وقوله عز اسمه (فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وجهُ الله) وقوله (لما خلقت بيديّ) وقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وقوله (ويبقى وجه ربك) وقوله (ولتصنع على عيني) وقوله (والسموات مطويات بيمينه) ونحو ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى ، وقوله في الحديث (خلق الله آدم على صورته) حتى ذهب بعض الجهال في قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) انها ساق ربهم ، ونعوذ بالله من ضعف النظر وفساد المعتبر ، ولم يشكوا أن هذه أعضاء له وإذا كانت أعضاء كان هو لا محالة جسماً معضّى ، على ما يشاهدون من خلقه عز وجهه

وعلا قدره وانحطت سوامي الأقدار والأفكار دونه . ولو كان لهم أنس بهذه اللغة الشريفة أو تصرف فيها أو مزاولة لحتهم السعادة بها ما أصارتهم الشقوة إليه بالبعد عنها . وطريق ذلك أن هذه اللغة أكثرها جار على المجاز وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة . وقد قدمنا ذكر ذلك في كتابنا هذا وفي غيره . فلما كانت كذلك وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها وانتشار أنحائها جرى خطابهم بها مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم وعادتهم في استعمالها وذلك أنهم يقولون : هذا الأمر يصغر في جنب هذا ، أي بالاضافة إليه ، فكذلك قوله تعالى : (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) أي فيما بيني وبين الله إذا أضفت تفريطي إلى أمره لي ونهيه إياي ... »[1] .

ونضيف إلى ما تقدم من تعلق فهم النصوص ببحث دلالة الألفاظ أن تذوق النصوص تذوقاً سليماً ، ومعرفة مواقع الألفاظ ، ومعرفة مواطن الجمال ومواضع الدقة ، وبراعة القول فيها ، يمكن أن يعين على حصول ملكته وتنميتها الاطلاع على هذه المباحث اللطيفة من علم اللغة ، مباحث دلالة الألفاظ ، وما يكون للفظ من معان متعددة تتناوب في الظهور بحسب سياق الكلام ،

---

(١) الخصائص ج ٣ ص ٢٤٥ .

وما يلقيه الاستعمال على اللفظ من ظلال وألوان، وما يتعاقب عليه خلال العصور من معان؛ وبذلك يمين هذا الفرع من علوم اللغة النقد الأدبي على أداء وظيفته بما يمده به من نظرات وخبرة في قوانين الألفاظ .

على أن البحث في معاني الألفاظ لا تقتصر فائدته على مثل هذه الفوائد العملية والثمرات الأدبية ، فان له مع ذلك نتائج علمية وقيمة نظرية . ذلك أنه طريق لكشف بعض الحقائق المتعلقة باللغة وصلتها بأهلها ، بعقليتهم وبيئتهم وعاداتهم. فان فهم لغة من اللغات يتوقف بداهة على معرفة مفرداتها وتراكيبها، وليس من اليسير فهم مفردات الألفاظ ومعرفة ما تنطبق عليه وما يدخل في مدلولها وما لا يدخل فيه ؛ وما أكثر ما ينخدع المرء بظاهر اللفظ في لغة من اللغات حتى يُدخل تحت هذا اللفظ ما لا يدخله فيه أهل تلك اللغة أو أهل عصر بعينه وقد ينخدع باستعمال عصره للفظ من الألفاظ فيحمّل هذا اللفظ ، حين يرد في نص قيل في عصر آخر ، المعنى نفسه ؛ مع أنه قد يختلف اختلافاً كبيراً (١) . ولهذا كان من العسير أن يقابل لفظ في لغة اللفظ المقابل له في لغة

---

(١) كخطأ بعضهم في لفظ ترجمة ، في مثل قول المحدّثين تراجم البخاري بمعنى عناوين أبواب كتابه الجامع الصحيح ، وظنه أنها بمعنى النقل من لغة إلى أخرى مما نشأ =

أخرى في جميع المعاني بحيث يتطابقان في جميع مشتملاتهما وجزئياتهما؛ [١] ومن هنا تأتي استحالة الترجمة .

عقلية الشعوب في مفردات لغتها :

إن البحث في دلالة الألفاظ ومعرفة قوانين اللغات وسننها في قرن الألفاظ بمعانيها ، وتبدلها وتطورها وأسباب ذلك ، يعين على فهم اللغة فهماً عميقاً ؛ كما أنه، من جهة أخرى ، يكشف عن مدى الارتباط بين اللغة وأصحابها بوجه عام ويعين على تحديد مفاهيم عصر بعينه وبذلك يستطيع ابن اللغة أن يتعرف إلى عقلية أسلافه ونفسياتهم كما يستطيع بمثل هذه الدراسة أن يتعرف إلى عقلية الشعوب الأخرى بدراسة لغاتهم دراسة تحليلية تعتمد على الخصوص على مفاهيم الألفاظ ، بالاستعانة بما يقدمه علم الدلالة من قوانين وما يفتح من آفاق . ومن الشواهد على ذلك لفظ الصديق في العربيـة وهو مشتق من الصدق والعدو وهو مأخوذ من العدوان في حين أن كلمة ami = صديق في

= عنه آراء مضحكة ؛ وكاختلاف معنى déjeuner و diner في اللغة الفرنسية في الحاضر عن معناها القديم .

(١) كتقابل لفظ (عم) العربية للفظ (Oncle) في الفرنسية وهي تفيد (العم والخال) وكلمة Socété وهي تفيد معنى كلمتي (شركة) و (مجتمع) في العربية .

الفرنسية مشتقة من لفظ يفيد معنى المحبة و ennemi = عدو لفظ مركب يفيد نفي المحبة أي البغض . ويدل ذلك على أن مفهوم العرب للصديق مبني على فكرة الصدق في المعاملة ومفهومهم للعدو مستند إلى فكرة العدوان والظلم ؛ بخلاف مفهوم الفرنسيين في بنائهما على أساس الحب والبغض . ولفظ عقل في العربية مأخوذ من العقل بمعنى الربط والتقييد ، ويدل ذلك على أن في معنى العقل عند العرب مفهوماً خلقياً بالاضافة إلى العنصر الفكري فهو يعقل عن المنكر أو الشر . ولا يدل لفظ raison الفرنسي على مثل ذلك ؛ فان أصل معناه العد والاحصاء . ولفظ انسان والناس — على رأي أكثر اللغويين وهو الصحيح — مشتق من الأنس وهو ضد الوحشة ؛ وبذلك يكون العرب قد جعلوا المميز الفاصل بين جنس الانسان وغيره أنه ألوف مستأنس أي اجتماعي . ولفظ (الجار) والمجاورة مأخوذ من أجاره إذا رفع عنه الجور وهو الظلم ، ودخل في جواره أي في حمايته ؛ فليس العنصر الاساسي في المجاورة المصاقبة في المسكن ، وهي علاقة مادية ، بل في علاقة معنوية خلقية هي الحماية ومنع الظلم .

وإن طريقة كل قوم في تسمية الأشياء تدل على نظرتهم إليها ، وتكشف أحياناً عن بيئتهم التي يعيشون فيها ، أو عن عاداتهم التي ألفوها ؛ كقول العرب:

شفى الله غليله — والغليل العطش — وأقر الله عينه — والقُرّ البرد — وسقى الله عهده ؛ وكلها تدل على التطلع إلى الماء والبرد ، وذلك نعمة عند العرب يسعى إليها .

وعلى هذا يكون علم الدلالة العام Sémantique gènérale طريقاً إلى معرفة قوانين اللغات ، من تطور معاني الألفاظ وأسباب تبدلها ، والصلة بين اللفظ ومدلوله، وصلة اللغة بأصحابها بوجه عام . وعلم الدلالة في لغة من اللغات طريق إلى معرفة أسرار تلك اللغة وطرائقها الخاصة في تسمية الأشياء وتطور ألفاظها ومعانيها ، ووسيلة لمعرفة عقلية الشعب الذي يتكلم بها وبيئته وعاداته ومراحل تفكيره .

ملاحظات حول دراسة معاني الألفاظ

١ — دراسة الألفاظ حية في نصوصها :

إن الألفاظ لا تعيش منعزلة بل في متون النصوص مجتمعة مركبة مع غيرها من الألفاظ ؛ ولذلك كانت دراستها مجردة منفردة دراسة عقيمة غير منتجة ، فيجب أن يستنتج معناها أو معانيها المتعددة من مجموع النصوص التي تحدد استعمالها وتمكننا من ضبط معناها ضبطاً دقيقاً .

٢ — الدراسة التاريخية التطورية :

يمكننا أن ندرس كلمة من الكلمات في عصرنا ونحصي استعمالاتها ونحدد معناها أو معانيها ، وذلك بجمع نصوص كافية من كلام هذا العصر الذي نعيش فيه ، فتكون دراستنا هذه دراسة لواقع اللغة في عصرنا . ولكن الكلمات التي نستعملها اليوم لها تاريخ سابق وحياة قد تكون طويلة ، وقد يكون معناها الحالي مغايراً لمعانيها القديمة ؛ لذلك وجب الأخذ بطريقة الدراسة التاريخية التطورية التي تدرس الألفاظ على تعاقب العصور وفي مختلف الأطوار التي مرت بها .

٣ — النظرة الشاملة للمفردات :

إن الاكتفاء بدراسة عدد من الألفاظ لا يغني كثيراً في معرفة خصائص لغة من اللغات ؛ فقد يكون معنى من المعاني موزعاً بين ألفاظ كثيرة في تلك اللغة . ولو اكتفينا بدراسة بعضها لخيل إلينا أن هذه اللغة قاصرة عن أداء ذلك المعنى . إن دراسة مفردات اللغة بجملتها ومجموعها هي التي تعطي صورة صحيحة عنها ، وفكرة عن غناها أو فقرها ، وعن ميلها إلى الحسيات أو المعنويات ، وغلبة الدقة والتفصيل أو التعميم في تسمياتها ومعاني ألفاظها ، وتوسعها في ميدان من ميادين الطبيعة أو الفكر أو العاطفة أو اقتصارها

وفقرها . وإن في كثرة الألفاظ الدالة مثلاً على الحرب أو الحب أو الخيل أو الإبل أو العلاقات الاقتصادية أو على نظام الدولة أو على العواطف الانسانية أو الفضائل الخلقية مجالاً واسعاً للاستنتاج وتحديد اتجاهات الشعب الذي يتكلم تلك اللغة وعقليته ونفسيته وتاريخه وبيئته الأصلية وصلاته بغيره من الشعوب .

دلالة اللفظ على المعنى

استعمل البشر من القديم اشارات ورموزاً تدل على معانٍ في أذهانهم أو تشير وترمز إلى أشياء مادية ؛ ولا تخرج ألفاظ اللغة عن أن تكون رموزاً يشير بها كل جماعة إلى معاني الأشياء التي يقصدونها . ولو حللنا عملية الكلام أي اتصال إنسان بآخر عن طريق اللغة لوجدنا ثلاثة عناصر أساسية :

أولها: **اللفظ** أو الصورة الصوتيةوهوما أحدثه المتكلم وألقاه من الألفاظ بدافع خارج عن اللغة دفعه إلى ذلك .

وثانيها : **المعنى** أو الصورة الذهنية التي أثارها الكلام في ذهن السامع وهو صورة متكونة في ذهنه ومنتزعة من تجاربه الحسية ومجردة من مجموع الأمثلة والحقائق الخارجية التي صادفها في حياته سواء بالنسبة للأشياء المادية كالشجرة والكتاب أو المعنوية كالعدل والحقد .

وثالثها : الشيء المعنيّ أو الصورة الخارجية المقصودة .

فاللفظ الدال والمعنى المدلول (عليه) والشيء الخارجي المقصود الذي ينطبق عليه المعنى هي العناصر الثلاثة التي تتألف منها عملية الكلام أو الاتصال اللغوي .

والفرق بين اللفظ والكلمة أن اللفظ يشير بوجه خاص إلى الناحية الصوتية من الكلمة وأن الكلمة تشير إليها وإلى المفهوم المعنوي للفظ معاً . وقد لاحظ هذا المعنى نحاتنا القدماء حين عرّفوا الكلمة بأنها لفظ مفيد لمعنى . على أن العرف جرى على استعمالها في معنى واحد واعتبارهما مترادفين والاغضاء عما بينهما في الأصل من فرق دقيق .

ويتبين من شرحنا هذا أن اللفظ يثير في ذهن السامع صورة الشيء الذهنية ومفهومه لا الشيء نفسه . ويكون الانتقال إلى الأشياء الحسية عن طريق هذه الصور الذهنية أو المفاهيم أو المعاني القائمة في أذهان الناس والمتكونة فيها بنتيجة تجاربهم . إن هذه المعاني هي الجسر الموصل بين عالم الأسماء (اللغة) وعالم الأشياء وما أكثر ما تحل المعاني التي اصطنعها الانسان وجردها عن الأشياء محل الأشياء الحقيقية نفسها !

وعلى هذا فالدلالة هي آثارة اللفظ للمعنى الذهني أي لمدلوله ، وبين اللفظ والمعنى في كل لغة آثارة متبادلة وتداعٍ مستمر ؛ وعلم اللغة يبحث في هذه الصلة بين اللفظ والمعنى في أحد فروعه المخصص لهذا المبحث والمعروف باسم Sémantique أي مبحث الدلالة أو علم دلالة الألفاظ . وعلى هذا فالدلالة ليست مرادفة للمعنى في الاتصال اللغوي أى نقل الأفكار عن طريق اللغة رمز دالّ هو اللفظ ومدلول هو المعنى ودلالة وهي الارتباط بينهما والعلم الباحث في صلات الألفاظ بعضها ببعض هو النحو والباحث في ما بين المعاني من صلات هو الفلسفة وخاصة المنطق والعلم الباحث في ما بين الألفاظ والمعاني من صلات هو مبحث الدلالة من علم اللغة .

ألفاظ المعاني وألفاظ الارتباط

وقبل البحث في معنى اللفظ لا بد من بيان أن الألفاظ التي هي موضوع بحثنا هنا هي ألفاظ المعاني (Sémantéme) وهي الألفاظ التي تدل على معنى بذاتها أي على مفهوم مستقل . وفي اللغة ألفاظ من نوع آخر لا تستقل بذاتها ولا تدل على مفهوم مستقل وإنما هي أدوات تربط بين ألفاظ المعاني أو تحددها وتخصص معناها نوعاً من التخصيص كالحروف وبعض الظروف والضمائر فهي ألفاظ ارتباط أو أدوات (Morphéme) ؛ على انها في

الأصل ألفاظ معان جردت من معانيها وفرغت من محتواها ونقلت من ألفاظ معان إلى أدوات ؛ وقد يكون هذا الانتقال واضحاً والصلة بين الأداة وأصلها واضحة لقرب العهد بهذا الانتقال أو لبقاء المادة الأصلية ووضوح الصلة في المعنى ؛ وقد تكون الصلة بالأصل غامضة لبعد العهد أو تغير معنى الأصل أو طروء تبدل كبير في لفظ أحدهما ، ومن أمثلة ذلك على وصلتها بمادة ع ل و واضحة بخلاف من وإلى وليس ولبث . ووصف علماء اللغة في هذا العصر ألفاظ المعاني بأنها ملأى وألفاظ الارتباط بأنها فارغة ؛ ذلك أنها فرغت من محتواها الأصلي الذي هو معناها الأصلي ، وبذلك أصبحت تدل على نوع علاقة بين لفظين أي بين معنييهما كالنفي في قولنا (ليس الرجل حاضراً) أو العلو في (المفتاح على الأرض) أو مجرد المضي في الزمن في (كان النهر فائضاً) .

ومن هذا القبيل تسمية قدماء نحاة العربية لبعض الأفعال الأفعال الناقصة وكأنهم يشيرون إلى هذا المعنى الذي عبر عنه المحدثون بالفراغ وهو أرجح عندي من تفسير المتأخرين من النحاة بأن المقصود بذلك أنه لا يتم بها وبمرفوعها الكلام .

عناصر المعنى

يتألف معنى الكلمة من اجتماع عدة عناصر يضاف بعضها إلى بعض ويحدده :

١ — الأصل الاشتقاقي أو المادة الأصلية التي ترجع إليها الكلمة وهي تتألف من مجموعة أصوات أو حروف .

٢ — البناء الصرفي أو الصيغة .

٣ — حياة الكلمة والتاريخ الذي تقلبت فيه فحدد استعمالاتها الكثيرة ووجوه معناها أو معانيها المتعددة ويحدد سياق الكلام أو الاستعمال في نص خاص أحد هذه الوجوه أو المعاني .

أما الاعراب والحركات وموقع الكلمة بين الكلمات الأخرى فلا تدخل في رأينا في تحديد معناها ومفهومها ، وإنما تحدد صلتها بالألفاظ المجاورة لها أو على الأصح تحدد صلة معناها بمعانيها ككونها فاعلاً بالنسبة للفعل أو خبراً بالنسبة للمبتدأ . هذا يدخل في بحث تركيب الكلام وإنما بحثنا منحصر

في مفردات اللغة قبل تركيبها . ولنفصل الكلام بعض التفصيل في هذه العناصر التي تؤلف معنى الكلمة باجتماعها.

المادة الأصلية :

إن كل كلمة في أي لغة ترجع إلى أصل في تلك اللغة ، إلا إذا كانت دخيلة فترجع حينئذ إلى أصل في اللغة الأجنبية التي أخذت عنها ؛ ولكن الكلمات لا تحتفظ دوماً بمعاني أصولها الاشتقاقية ، وقد تبتعد عنها ابتعاداً تنقطع معه صلتها بها أو تكاد . وتختلف الحالة باختلاف الكلمات كما تختلف باختلاف اللغات .

واللغة العربية هي أبرز اللغات من جهة احتفاظ ألفاظها بالصلة باصولها الاشتقاقية فظهور الصلة في اللغة العربية بين معاني الكلمات ومعاني أصولها التي اشتقت منها هو القاعدة الغالبة . وليس الأمر كذلك في غيرها من اللغات الحية وذلك لسبب أساسي كنا بيناه في بحث الاشتقاق وخلاصته ثبات الحروف الأصلية وبقاؤها مهما تبدلت أشكال الألفاظ التي تكون منها في أبنيتها وتصاريفها أو تبدلت معانيها . ويعجبني التعبير الذي استعمله الاستاذ أولمان حين وصف الألفاظ بكونها شفافة أو كثيفة بحسب كونها كاشفة عن أصلها الاشتقاقي أو ساترة له غير كاشفة عنه . ونستطيع أن نقول إن أكثر

الفاظ العربية بهذا المعنى شفافة ، وإن الكثير من ألفاظ الفرنسية والانكليزية كثيف غير شفاف ولذلك كان قلب ألفاظها الكثيفة إلى ألفاظ شفافة عملاً شاقاً يتطلب للوصول إليه ، حين يكون ذلك ممكناً ، جهداً لغوياً فنياً يقصد إليه بعض الكتاب والشعراء قصداً . ولا أزال أذكر كلمة في هذا الموضوع سمعتها من الشاعر الفرنسي بول فاليري P.Valery ، في محاضرة ألقاها في باريز سنة ١٩٣٧ شرح فيها فنه ، وقال فيها إنه يلاحظ في استعماله الألفاظ معانيها اللاتينية القديمة بحيث يلقي المعنى الأصلي القديم ظله على الكلمة المستعملة بمعناها الحديث المألوف . وهذا من أسباب الصعوبة التي يلاقيها من يقرأ شعر فاليري كما قال هو نفسه .

فكم من الفرنسيين من يعرف أن (Arriver = الوصول) مشتقة من (Rive = الشاطىء) وأن (Avaler = البلع) مأخوذةمن (Val = الوادي) وأن (Vertu = الفضيلةوالخاصة)و(Virilité =الرجولة) أصلهالفظ Virum من اللاتينية ومعناه الرجل في عنفوان قوته وأن لفظ (Cuisine = الطبخ) مشتق من Culina اللاتينية ومنها Culinaire أي المنسوب إلى الطبخ وأن (Désastre = مصيبة) مشتقة من (Astre = النجم) لاعتقاد تأثير النجوم قديماً وأن مرجع الكلمات : Domestiqee = أهلي و Dôme قبة و Domaine =

مِلْك و Domicile = منزل هو كلمة Domus اللاتينية ومعناها منزل ؟. ولو نظر أي عارف باللغة العربية إلى هذه الألفاظ التالية ، على ما جدّ لبعضها من معان جديدة ، لعرف أصلها وربط معناها الجديد بالقديم : ابداع ، اشتراكية ، تعليل اجتماعي ، عقدة نفسية ، أزمة الحكم ، تقوى ، سيارة ، تطور ، وأمثالها كثير لا يكاد يحصر . ولا تزال كلمة التحية تدل على أصلهـا وهو الحياة وسلم والسلام تدل كذلك على السلم لأن التحية أو التسليم كانت ترمز إلى اعطاء الأمان وتدل كلمة منزل على أصلها وهو المكان الذي كان ينزل فيـه العرب من على ابلهم وخيولهم ليقيموا فيه خيامهم وبيوتهم المتنقلة .

وان ابتعاد الكلمة عن أصلها الاشتقاقي وانقطاع الصلة بينهما أو ضعفهـا ينشأ عن حدوث تبدلات صوتية في بناء الكلمة توهم الاختلاف والانقطاع ، وقلما يحدث مثل هذا في اللغـة العربية . وإذا كانت الكثرة من النـاس اليوم تجهل أن التقوى من وقى وأن تترى من الوتر والتـلاد من ولد ومنـأد — ومعناه المعوج — من الأود فلا يعني ذلك أن العربي كان في دخيلة نفسه لا يعلم هذه الصلة . فنشأ ذلك أن الملكة العربيـة قد ضعفت وهي في طريقهـا إلى القوة والرسوخ . ولكن مثل هذا كثير الحدوث في غير العربية من اللـغات الحيـة ، فالخاصة من مثقفي الفرنسيين أو من المختصـين هم الذين يعرفون

أن Beau coup أصلها من كلمتين هما Coup و Beau وأن Printemps مأخوذة من لفظتي Temps و Prinum وأن Altèrer و Autre من أصل واحد وأن Noble معناه في الأصل المعروف أو القابل للمعرفة وأنه مشتق من أصل لاتيني يفيد معنى المعرفة .

وقد ينشأ ضعف الصلة بالأصل الاشتقاقي بسبب تبدلات كثيرة طرأت على معاني الكلمة فأبعدتها عن الأصل حتى لتبدو للسامع منقطعة الصلة غريبة عن أصلها ، وهذا يحدث في العربية كما يحدث في غيرها ولكن الاهتداء إلى هذه الصلة في العربية أسهل لثبات الحروف الأصلية فلا يبقى إلا التفتيش عن الحلقات الضائعة التي تصل المعنى الحديث بالقديم . فالمدينة من دان بمعنى خضع لأن المدن وهي مساكن الحضر موطن للخضوع في نظر العربي الذي كانت البداوة غالبة عليه . والجنة من جنن ومعناها التغطية لأنها مغطاة بالخضرة والنبات والتقوى وقاية الانسان نفسه بعمله الصالح من عذاب الله والمهنة الحرفة من الهوان وهو الذل لما في صنائع المدن وحرفها في نظر أهل البادية من الهوان .

وحدوث مثل ذلك في غير العربية كالفرنسية مثلاً كثير ويزيده اشتباها

وانقطاعا طروء تبدلات في التركيب الصوتي للألفاظ وتعرض جميع حروف الكلمة للسقوط والحذف بلا تمييز بين أصلي وزائد .

تركيب المادة الأصلية :

إن اللغة تتألف من كلمات والكلمة هي الوحدة اللغوية دون الحرف أو الصوت وإن كانت الكلمة تتكون من حروف . ذلك أن الكلمة ذات دلالة واضحة وهي في حالة الانفراد ، بخلاف الحرف فليس له دلالة .

ولكن الكلمات يختلف بعضها عن بعض في المعنى تبعاً لاختلاف حروفها وأصواتها وكل تبدل صوتي فيها يتبعه تبدل في المعنى وهذا يدل على أن للحرف أو الصوت أثراً في تكوين المعنى وتحديده وأن له بعبارة أخرى وظيفة دلالية .

ولكل لغة طريقتها في تركيب ألفاظها الصوتي وقوانين يخضع لها هذا التركيب .

وتختص اللغة العربية :

١) بأن أكثر ألفاظها تتكون في أصولها الاشتقاقية من ثلاثة حروف صوتية دون حساب الحركات .

٢) وأن هذه الحروف الثلاثة ثابتة لا تتغير في جميع مفردات المادة ومشتقات الأصل كما أنها كذلك ثابتة لا تختلف باختلاف العصور ولا تطرأ عليها تبدلات صوتية تغيرها إلا في أحوال نادرة .

٣) وأن للحرف قيمة دلالية ووظيفة في تكوين المعنى وتحديده هي في العربية أظهر وأوضح منها فى اللغات الأخرى وقد بينا بعض ذلك في بحث الاشتقاق في هذا الكتاب ونزيد ذلك هنا إيضاحاً وبياناً .

إن الأصوات التي تتكون منها الكلمة العربية أنواع ثلاثة :

١ — الحروف الصوتية أو الصائتة .

٢ — حروف المد أو الحروف الهوائية .

٣ — الحركات أو حروف المد القصيرة .

أما الحروف الصائتة وهي ما سوى حروف المد من الأحرف الهجائية فهي العماد في تركيب الكلمة وتكوين معناها ويمكن القول أن اتفاق عدد من الألفاظ فيها معناه اتفاقها في المفهوم الأصلي والخلاف فيها كذلك خلاف فيه بينها . ويبدو من استعراض أمثلة كثيرة في العربية ، سبق أن سقنا الكثير منها في باب الاشتقاق(١) ، ان الحرف في العربية ذو قيمة دلالية بارزة ، وان

(١) انظر ص ١٠١ - ١٠٥ من هذا الكتاب .

استخراج هذه المعاني الكلية التي تفيدها الحروف بحاجة إلى احصاء شامل واستقصاء طويل ينتظر من يقوم به حتى الآن لاثبات هذه النظرية أو تعديلها أو رفضها .

ومثال ذلك ما يدل عليه حرف النون من معنى الظهور في أول كثير من الألفاظ مثل نبع ونبأ ونتأ ونجم ونطق ونفر ونفث ونم ... ونما ونثر وتأ ... الخ

وما يدل عليه حرف القاف من القطع والضرب والصدم في مثل : قد وقط وقطع وقطف وقتل وقرف وقرع ودق ورق وشق وطرق .

وما يدل عليه حرف السين من الليونة أو النقص في مثل : خس وخسر وخسف وكسف وكسر ونسي ونعس وسهل وملس ونسل وسرق وسرف .

وما يدل عليه حرف الراء من تكرار الفعل وديمومته مثل : جر ومر ودر وفر ورعى ورسا وسرى ورفى وقرع .

وما يدل عليه حرف الغين من الغيبوبة والستر في مثل : غيم وغيب وغرب وغفر وغمر وغمى وغمس وغبش وغبر وغبن وغش وغض وغار .

هذا وان الاختلاف في (الكمية) أي في مقدار قوة الحرف شدة وضعفاً

يدل كذلك على اختلاف كمي في المعنى فأوزان فعّل وتفعّل وافعلّ وفعّال وفِعّيل تدل كلها على الشدة أو المبالغة .

وهذا المعنى قد يلاحظ في ألفاظ قليلة في اللغة الفرنسية ولكنها لا تبلغ ما تبلغه اللغة العربية كثرة وظهوراً وذلك كالكاف في Couper و Casser والفاء في الأفعال الدالة على النفخ مثل : Souffler و Siffler وGonfler . وكثيراً ما استثمر الأدباء من ناثرين وشعراء هذه الخاصة في تقابل الأصوات والمعاني في كتاباتهم وشعرهم كما فعل ذلك فيكتور هوكو ولوكونت دوليل ؛ وهو كثير الوقوع في العربيـة ولا سيما في القرآن الكريم حيث بلغ التقابل بين المعنى والنغمة الموسيقية ذروة الكمال . وللعربية في تركيب الحروف موسيقى خاصة يعرفها العربي بالذوق فلا تجتمع بعض الحروف في كلمة واحدة كالجيم والقاف ، والجيم والصاد ، والصاد والطاء ، والزاي بعد الدال ، والشين بعد اللام ، والنون قبل الراء[١] .

أما حروف المد :

فهي عنصر مرن متحول ليس من الأجزاء الأساسية في تكوين الأصول

---

(١) انظر كتاب التقريب لأصول التعريب للشيخ طاهر الجزائري ص ٧٣ .

الاشتقاقية[1] ولا يستوجب الاتفاق فيه والاشتراك اتفاقاً في المعنى ولا الخلاف فيه كذلك اختلافاً فيه ؛ وذلك بخلاف الفرنسية والانكليزية ، إذ الخلاف في حروف المد فيهما خلاف أساسي يتغير به المعنى والأصل الاشتقاقي غالباً ؛ فانظر مثلاً إلى مبلغ الاختلاف بين الألفاظ التالية في اللغة الفرنسية مع أن الخلاف منحصر في حروف المد : mal , mule , mol , moule وكذلك في peu , peau . pus , pas فالخلاف في حروف المد في الفرنسية خلاف أساسي .

وأما في العربية فكأن حروف المد — وليست الحركات إلا نوعاً من حروف المد القصيرة — جُعلت لتنويع المعنى الأصلي الثابت بثبات الحروف الصائتة في المادة الواحدة وتعينها في ذلك حروف أخرى تؤلف معها ما يسمى حروف الزيادة المجموعة في (سألتمونيها) . فالفرق بين كَتَبَ وكِتاب وكُتُب وكُتِبَ و بين سفر وسافر حذر وحاذر وحاذر وعلم وعليم وعالم وعلوم وعَلَم وأمثالها أكثر من أن يحصى ليس خلافاً في المعنى العام الذي هو في كل منها معنى

(١) قد يكون حرف المد في نظر اللغويين أحد الحروف الأصلية الثلاثة في الكلمة كالواو في القول والياء في البيع ولكنه حتى في هذه الحال عرضة للتحول أو الحذف في كثير من الأحوال كحذفه في أفعال الأمر في الوسط والآخر كقل وبع وارم وأبق مع أنه حرف أصلي في هذه الألفاظ في رأيهم .

المادة الأصلية وإنما الخلاف في تنوعاته وملابساته . وأكثر الاختلاف بين اللهجات العربية القديمة والحديثة يرجع الى الاختلاف في حروف المد الطويلة والقصيرة وطريقة النطق بها .

وأما الحركات :

فهي في حقيقتها حروف مد قصيرة وطريقة الكتابة العربية هي التي أوهمتنا أن بينها وبين حروف المد فرقاً نوعياً مع أن الفرق كمي . فالفتحة أخت الألف والضمة اخت الواو والكسرة اخت الياء ؛ وقد تنبه أسلافنا من علماء اللغة إلى ذلك وأوضح ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب هذا المعنى أحسن الايضاح[1] . وبالجملة أن اللغة العربية بلغت الغاية في حسن استخدام الحروف وتقسيمها إلى قسمين أحدهما لتنويع اصول المعاني وهي الحروف الصائتة وثانيهما لتنويع المعنى الواحد على حسب أحواله وملابساته للفاعل والمفعول والصفة وللماضي والمستقبل وهذه هي حروف المد الطويلة والقصيرة (الحركات) يضاف إليها أحياناً بعض الحروف وهي الـ (س ، ت ، ل ، م ،

---

(١) « اعلم أن الحركات ابعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء والواو ... وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة .. » ص ١٩ .

ن ، أ ، هـ) فاختلاف الحركة مع الاتفاق في الحروف الأصلية يؤدي إلى اختلاف جزئي في المعنى وذلك كالاختلاف بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول من الأفعال كرفع ورُفع وبين اسم الفاعل واسم المفعول من أفعل كمكرِم ومكرَم ومن فاعَل وتفاعَل وتفعّل واستفعل . وفي العربية ألفاظ كثيرة تتفق في الحروف والصيغة ولكنها تختلف في بعض حركاتها فيتغير معناها تماماً لذلك كالعِلاقة فهي بالكسر للماديات كعلاقة السيف وبالفتح للمعنويات والسحور بضم السين للفعل وبفتحها لما يتسحر به من الطعام وكذلك الطهور بالضم والفتح والقر بضم القاف البرد وبفتحها البارد وفرق بعض اللغويين بين الجَهد بفتح الجيم ومعناه الطاقة والجُهد بضمها ومعناه المشقة وقد أشار كثير ممن ألفوا في اللغة من علمائنا الاقدمين إلى هذه الفروق .

البناء الصرفي أو الوزن :

وهو ثاني العناصر التي تكوّن معنى الكلمة وتحدده فبعد أن تكون المادة لأصلية قد قدمت جملة المعنى أو المفهوم الكلي الجامع يقتطع البناء الصرفي أو الوزن من هذا المعنى الكلي جزءاً محدوداً ويكون كالقالب الذي يأخذ من مادة المعدن جزءاً يحدد أطرافه وتتعين بذلك وظيفته . وذلك كأن تكون مادة الكلمة الأصلية مؤلفة من (ر ف ع) فتبنى على وزن (فاعل) فتكون

كلمة رافع أو من (ن ز ل) فتبنى على وزن (مفعِل) فتكون منزِل وبذلك تكون كلمة رافع اخذت من مادة (رفع) المعنى العام ومن القالب الذي صيغت فيه معنى الفاعلية وكذلك منزل أخذت من (نزل) المعنى العام للنزول ومن الصيغة التي وضعت فيها معنى المكانية . وقد فصلنا القول في دلالة الأوزان والصيغ وما تقدمه للمواد الاشتقاقية من معان عامة وقوالب فكرية في فصل سابق من هذا الكتاب فليرجع إليه (ص ١١٥ — ١١٩) .

حياة الكلمة والسياق :

ان معرفة مادة الكلمة وأصلها الاشتقاقي والصيغة التي صيغت بها لا تكفي غالباً لتحديد معناها تحديداً تاماً دقيقاً ؛ فان كل كلمة بعد أن أُخذت من مادتها الأصلية وبنيت على أحد الأوزان الصرفية استعملت في مواطن من الكلام وخصصها الاستعمال بمعان اخص من المعنى العام الذي تدل عليه مادتها وبتعدد الاستعمال خلال العصور وفي مختلف المناسبات وشتى البيئات يتم للكلمة أكثر من معنى ويجتمع لها أكثر من دلالة . وهذه الاستعمالات أو المعاني المتعددة تتصل كلها بالمعنى الأصلي اتصالاً قوياً أو ضعيفاً ، قريباً أو بعيداً ، وتفيد الكلمة في ذاتها المعاني التي اكتسبتها كلها وكأنها مختزنة فيها كامنة في تضاعيف حروفها ويبرز أحدها حين استعمال الكلمة في جملة معينة وسياق محدد

من الكلام . فلو نطق متكلم بكلمة (كاتب) هكذا مجردة من الكلام لثار في ذهن السامع معان عديدة منها الكاتب المشتهر بالكتابة الأدبية كالجاحظ ومنها كاتب المحكمة والمسجل في دائرة من دوائر الدولة أو في متجر من المتاجر في العصر الحاضر ومنها اسم الفاعل الدال على حدوث الكتابة من أحد الناس ولا يعين أحد هذه المعاني الموجودة بالقوة في لفظ هذه الكلمة ولا يخرجه من حيز القوة إلى حيز الفعل إلا استعمالها في جملة من الكلام وكذلك ألفاظ : **الحكم والاعتزال والحدود والباب والصحيح والفصل** فلكل منها معان متعددة، استعملت في عصور مختلفة وفي بيئات شتى فالحدود عند البحث في الأراضي والعقارات هي غير الحدود عند الفقهاء و الصحيح تستعمل في الرأي والمنطق وفي الصحة والطب وفي النحو والحساب .

ولهذا كان للسياق قيمة في تحديد المعاني وفهم الكلام . وان هذه الاستعمالات التي تستعمل فيها الكلمات وهذه المعاني الخاصة المحدودة التي تلازمها في بعض العصور مدة طويلة أو قصيرة والبيئات التي تعيش فيها هي التي تكون شخصية الكلمة أو ذاتيتها .

ان للكلمة في اللغة حياة خاصة بها وقد شبهها علماء اللغة المحدثون بالأحياء ، فقالوا ان الكلمة يعتريها ما يعتري الاحياء من أحوال : فهي تولد في

باديء الأمر ، وقد نحضر ولادة بعض الكلمات ، ولو كانت مادتها في الأصل موجودة كالمذياع والطائرة ، وتشتهر الكلمة بين الناس أو تكون خاملة الذكر لا يعرفها إلا عدد قليل من الناس ، ويعتريها الضعف والهزال فيقل استعمالها ، وتهاجر وتسافر ، وقد تعود من مهاجرها في زي جديد فكلمة غَوْل انتقلت إلى اللغة الأوربية alcool ثم عادت إلينا فقالوا كحول ظناً منهم أن الكلمة الفرنجية مأخوذة منها وقد تموت الكلمة فلا تستعمل أبداً وتبقى مدفونة في النصوص القديمة وقد تبعث من جديد بعد موتها .

* * *

وضع الألفاظ ونشأة اللغة

للموجودات الحسية والمعنوية أسماء تدل عليها في كل لغة من اللغات تتسع دائرتها أو تضيق بحسب اتساع افق أصحاب تلك اللغة أو ضيقه في معرفتهم لموجودات الكون أو معاني الوجود . ولا نعني بلفظ « أسماء » اصطلاح النحاة في تقسيم الكلمة وإنما أردنا ما هو أعم من ذلك وأشمل فكل لفظ اطلق على معنى من المعاني فهو اسم له . فلفظ أعطى اسم لمعنى فعل الاعطاء في الماضي إذا قام به فرد غائب وكذلك قسم واجتمع وحائط وشجرة وشرف أسماء لمعانيها التي تدل عليها (١) .

ولنطرح على بساط البحث موضوع التسمية أو وضع الألفاظ واطلاقها على مسمياتها ومعانيها كيف حدثت وتمت ؛ وكيف كان هذا الاقتران بين اللفظ ومعناه والتلازم بين الأسماء والمسميات؛ ولماذا اختير هذا اللفظ بعينه لذلك

---

(١) قال ابن سيده والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه من بعض (لسان العرب) .

المعنى الذي يفيده ؟ إن هذه مسألة تطرح للبحث في كل اللغات ولا بد لبحثها من شطرها وتقسيمها إلى مسألتين والنظر إليها من وجهين .

ذلك أن كل لغة حية تولد ألفاظاً جديدة للتعبير عن المعاني الجديدة. ولكل منها طريقة خاصة بها في توليد الألفاظ واستحداث الكلمات بطريق الاشتقاق أو النحت أو غيرهما من الأصول والألفاظ الموجودة عندها . ولكنها كيف اختارت في بدء تكوينها وأول نشوئها هذه الألفاظ بعينها ؟ فاذا اشتققنا اليوم في العربية كلمة سيارة ومحرك ومواطن لمعان جديدة فان لنا أن نتساءل أولاً عن سبب اختيار مادة سار وحرك ووطن للدلالة على هذه المعاني دون سواها ولنا أن نتساءل أيضاً عن هذه الألفاظ نفسها كيف وضعت لمانيها لأول مرة . ففي الموضوع مسألتان احداهما وضع الألفاظ ابتداء في كل لغة والثانية وضع الألفاظ بعد ظهور اللغة واستقرارها وطريقتها في التسمية واطلاق الألفاظ على المعاني .

أما المسألة الأولى فتردنا إلى البحث في أصل اللغات ووضع الألفاظ وهو في باب اللغة من قبيل البحث في الغيبيات (الميتافيزيك) ويكاد يكون الخوض فيه عملاً قليل الجدوى ضعيف النتائج وضرباً من الافتراض والتخيل ذلك أن نشأة اللغات الأولى مغيبة عنا ، بيننا وبينها — كما هي الحال في جميع

البدايات — حلقات منقطعة يتعذر وصلها ولذلك لم يفتر الخلاف بين الباحثين في هذا الموضوع قديماً وحديثاً .

وان النظرية الطبيعية التي حاول أصحابها أن يعللوا فيها نشأة أصول الألفاظ الأولى بمحاكاة أصوات الطبيعة لا تكاد تثبت للحجة والدليل ولا تصدق إلا في القليل النادر من ألفاظ كل لغة . فاذا قلنا أن قط وما يتفرع منها من ألفاظ والقص والكسر والانين والحفيف والقلقلة والصليل وأضرابها تحكي بأصوات حروفها أصوات الأحداث التي تدل عليها في اللغة العربية وأن Fracas القعقعة والجلبة و Croquer قضم و Casser كسر في اللغة الفرنسية تصور بجرس حروفها أصوات الأفعال التي تعنيها فكم عدد الألفاظ التي تقع هذا الموقع وتتصف بهذه الخاصة في اللغة العربية وفي الفرنسية ؟ لا شك أنها قليلة محدودة . أما الألفاظ التي نجد بين جرسها ومعناها تناسباً وتوافقاً فربما كانت أكثر عدداً ولكنها لا يحتج بها في هذا الباب ولا يمكن أن يعلل أصل وضعها بالتعليل الصوتي لمجرد هذا التناسب وذلك مثل : شق ودب وقرع وكبكب وسال ونغم وزحف وفي الافرنسية مثل : lourd, subtil, fin, petit, gloire, grandeur, fanfare, sonore . على أن في هذا التناسب شيئاً كثيراً من العادة والائتلاف عند أهل كل لغة في الربط بين بعض المعاني وبعض

الأصوات . ولو صحت هذه النظرية لما تعددت اللغـات ولتماثلت أو تشابهت على الأقل فان أصوات الطبيعة واحدة مع أن تلاقي اللغات في ألفاظ واحـدة وتشابه الألفاظ الدالة على معان واحـدة لا يقع إلا في القليل النادر وإذا وقع فلا بد غالباً من بعض الاختلاف وذلك مثل كسر و Casser وقطع و Couper و كفر بمعنى ستر و Couvrir وصفر و Siffler وأمثالها في العربية والفرنسية .

وقد جرى بين علمائنا المتقدمين نقاش وجدل حول هذا الموضوع وذلك بمناسبة البحث في أصل اللغة هل هو تواضع واصطلاح أم توقيف[١] ووحي .

فقد اختلفوا في كيفية دلالة الألفاظ على معانيها ونوع العلاقة بين اللفظ ومدلوله وعلة اقترانهما فهل « تدل على المعـاني بذواتها أو بوضع الله إياها أو بوضع الناس »[٢] . وقـد خصص السيوطي الفصل الأول من كتابه المزهر لهذا البحث واورد رأي عباد بن سليمان الصيمري المعتزلي من « أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع » .

ثم قال السيوطي بعد نقله هذا الرأي عن اهل اصول الفقـه : ان الجمهور أنكر هذه المقالة . وأورد مناقشتهم لها ثم قال : « وأما اهل اللغة العربية فقد

---

(١) أي ما يتوقف فيه على ما جاء عن طريق النبوة والوحي .
(٢) المزهر ج ١ ص ١٦ .

كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني ، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عباداً يراها ذاتية موجبة بخلافهم »(١) .

ونقل عن ابن جني « ان بعضهم ذهب الى ان اصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الخيل ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » وعقب ابن جني على هـذا الكلام بقوله : « وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل »(٢) .

إن علماء اللغة المحدثين قد احرجوا البحث في اصل اللغة والفاظها ونشأتها الأولى من مباحث علم اللغـة كسائر المباحث التي هدفها معرفة بداية الحيـاة الانسانية والاجتماعية التي اصبح البحث فيها داخلاً في نطاق الفلسفـة اكثر من ان يكر من اختصاص العلم . اضف إلى ذلك قلة جدوى هذا البحث وقد كان هذا الموقف نفسه موقف كثير من علماء السلف في تاريخنا فقد قال ابن السبكي : « الصحيح عندي ان لا فائدة لهذه المسألة » كما نقل عنـه السيوطي وعقب على ذلك بقوله : « وهو ما صححه ابن الانباري وغيره ولذلك

---

(١) المزهر ج ١ ص ٤٧ .

(٢) المزهر ج ١ س ١٤ و ١٥ .

قيل ذكرها في الأصول فضول ». (١) اما البحث فيما بين جرس الألفاظ ومعانيها من مناسبة فهو من المباحث اللطيفة في كل لغة وهو بحث جدير بعناية أهل الأدب ولافت لنظرهم . وقد كان ابن جني كعادته من السباقين والمبدعين في أمثال هذه المباحث فقد عقد عدة فصول تتعلق بالصلة بين اللفظ من حيث أصواته التي يتركب منها ونغمته وجرسه من جهة ومعناه من جهه أخرى كالبحث الذي عنوانه (باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني) والمعنون أيضاً بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني(٢) وقد أشرنا في ما تقدم من مباحث إلى هذه الآراء والنظرات (٣) فلندع الآن هذا البحث جانباً ولننظر في المسألة الثانية وهي التسمية الفرعية او اطلاق الألفاظ على مسمياتها بعد وضع اللغة .

---

(١) المزهر ج ١ ص ٢٦ .

(٢) الخصائص ج ١ ٥٤٤ و ٥٣٧ من الطبعة القديمة و ص ١٥٤ - ١٦٦ من الجزء الثاني من الطبعة الجديدة (دار الكتب المصرية) .

(٣) ص ٧٤ - ٨٥ من هذا الكتاب .

توليد الألفاظ وتسمية المسميات

(١)

طريقة توليد الألفاظ :

إن تسمية الأشياء ووضع الألفاظ للدلالة على مدلولاتها عمل مستمر في جميع اللغات الحية فان الانسان لا يزال يكتشف ويصنع أشياء جديدة ولا يفتأ يطلع على معان مبتكرة أو فكر طريفة أو يصوغ مفاهيم حديثة وهو في كل هذه المجالات محتاج إلى ألفاظ جديدة تدل على هذه الأشياء والمعاني الجديدة. وتكون تسمية الأشياء ووضع الألفاظ الجديدة، بعد أن تكون اللغة قد اجتازت مرحلة نشوئها الأولى وغدا بين يديها رصيد من المفردات، بانتزاع صفة من صفات الشيء الذي يراد تسميته أو اختيار جزء من أجزائه أو ناحية من نواحيه أو تحديد وظيفته الأصلية وتسميته بلفظ مشتق من اللفظ الدال على تلك الصفة أو الناحية أو العمل. فالعرب قديماً سموا السماء بصفة السمو والعلو والسهل من الأرض لسهولة السير فيه والبادية لصفة الظهور والوضوح والمرأة

لشعور المرء فيه بالسكينة والسفر لكشفه عن صفة الانسان أو لانكشاف آفاق الكون أمام المسافر . وكذلك جرت التسمية بعد الاسلام وأحدثت ألفاظ لمعان جديدة على هذه السنة نفسها فسميت الزكاة بلفظ يدل على النماء أو الطهارة والتقوى من الوقاية بالعمل الصالح والجهاد من لفظ يدل على الطاقة والمشقة والتعب . ولا نزال منذ ذلك العصر حتى يومنا هذا نضع الألفاظ للمعاني الجديدة على هذه الطريقة في أكثر الأحوال كالمكتب والمطبعة والعاطفة والجامعة والقطار والدراجة والفنان وأمثالها من الألفاظ المستحدثة في هذا العصر .

وعلى هذه السنة نفسها تسير اللغات الحية اليوم مع اختلاف في أسلوب صياغة الألفاظ فلكل لغة أساليبها الخاصة بها كالاشتقاق والنحت فقد ولدت الفرنسية في العصر الحديث ألفاظاً مثل : avion للطائرة وأصل معناها الطائر شبهت به و imprimerie للمطبعة وقد أخذت من أصل يدل على الضغط و repasser لسن السكين وكيّ الثياب وأصل معناها تكرار المرور وفي كلا الفعلين مرور متكرر للسكين التي تسن وللحديدة التي تكوى بها الثياب و bicyclette ذات الدولابين و moteur للمحرك وهي تدل على هذا المعنى دلالة تامة .

(٢)

تعليل الألفاظ :

إن هذه الظاهرة دعت بعض علماء العربية قديماً إلى القول بتعليل ألفاظ اللغة قال ابن الاعرابي : « الأسماء كلها لعلة خصت العرب ما خصت منها . من العلل ما نعلمه ومنهـا ما نجهله » وذهب إلى أن « البصرة سميت البصرة للحجارة البيض والرخوة بها والإنسان سمي إنساناً لنسيانه والبهيمة سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز . فان قال قائل لأي علة سمي الرجل رجلاً والمرأة امرأة ودعد دعداً قلنا لعلل علمتها العرب وجهلناها أو بعضها فلم تزل عن العرب حكمة العلم بما لحقنا من غموض العلة وصعوبة الاستخراج علينا[١] ».

وهذه الصلة بين معنى اللفظ الدال والمدلول أو المسمى قد تغمض أو تخفى على تقادم العهد وتطاول الزمن حتى تجهل علة التسمية ومناسبة الوضع وقـد تبقى واضحة ظاهرة أو قابلة للكشف بقليل من التأمل كألفاظ الإنسان والسماء والماشية والجهاد والتقوى والشرف والمدينة والعاصمة والسحاب والمجاز وغيرها فهي

---

(١) المزهر ج ١ ص ٤٠٠ .

من الونس والسمو والمتي والجهر والوقاية والشرف بمعنى الارتفاع والد
بمعنى الخضوع والعصمة أي المنع والحب والعواز . ومن الألفاظ ما تخ
الصلة بين مدلولها ومعناها الأصلي لبعد العهد وقدم التسمية وهذه هي الألفا
التي سماها علماؤنا السابقون مرتجلة . واللغة العربية لها مزية ظهور الصلة بـ
معنى الألفاظ الأصلي ومدلولاتها المسماة بها في كثير من ألفاظها إذا لم نقل
أكثرها وكثيراً ما تبدو هذه الصلة خفية لأول نظرة ولكنها سرعان
ما تنكشف بقليل من التأمل ومثال ذلك ما أوضحناه في باب الاشتقاق[1] من
علاقة الإغارة بالنور والعار بالجور ومثله صلة الإنسان بالانس والاسم
من الوسم والسمة أي العلامة والغابة من الغيب لأنه يغاب فيها .

لقد تنبه السابقون من علماء العربية ورواتها إلى هذه الصلة بين الألفاظ
ومدلولاتها وغالى بعضهم فيها أحياناً واستنكرها بعضهم ولم ينظر إليها نظرة
جد وانتقد من ذهبوا هذا المذهب في تعليل تسمية الأشياء ووضع الألفاظ
للدلالة عليها .

قال الزجاج في كتابه في الاشتقاق[2] : « شجرت فلاناً بالرمح تأويله

---

(١) انظر ص ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ من هذا الكتاب .

(٢) المزهر للسيوطي ج ١ ص ٣٥١ .

جعلته فيه كالغصن في الشجرة وقوله للحلقوم وما يتصل به شَجْر لأنه مع ما يتصل به كأغصان الشجر وتشاجر القوم إنما تأويله اختلفوا كاختلاف أغصان الشجر وكل ما تفرع من هذا الباب فأصله الشجرة » وقال الزبيدي في طبقات النحويين[١] : « سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف فمر أعرابي محرم فأراد السائل سؤال الأعرابي فقال له أبو عمرو دعني فأني ألطف بسؤاله وأعرف فسأله فقال الأعرابي : استفاد الاسم من السير . فقال ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعُجب ألا ترَاها تمشي العرَضْنَة خيلاء وتكبرا » .

ونقل السيوطي في مزهره أيضاً : « قال حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتاب الموازنة كان الزجاج يزعم أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وان نقصت حروف احداهما عن حروف الاخرى فان احداهما مشتقة من الاخرى فتقول الرحل مشتق من الرحيل والثور إنما سمي ثوراً لأنه يثير الأرض والثوب إنما سمي ثوباً لأنه ثاب لباساً بعد أن كان غزلاً . حسيبه الله ! كذا قال » ثم يسوق السيوطي حديثاً بين الزجاج ويحيى المنجم فيه طرافة تعرض فيه أجوبة الزجاج في معرض النكتة والتهكم وقد يكون الزجاج أوردها فعلاً هذا المورد لمقابلة التهكم بمثله ومن ذلك قوله حين سألوه عن الجرجير

(١) المزهر ج ١ ص ٣٥٣ .

وهو نوع من البقل وعن الجرير وهو الحبل أن ذلك كله من جرّ يجرّ فلما سألوه عن الجرة قال لأنها تجر على الأرض فقال مخاطبه لو جرت على الأرض لانكسرت وقال المجرة سميت كذلك لأن الله جرها في السماء جرا[1] » .

وينبني على كون التسمية اللغوية ليست إلا تصويراً لبعض جوانب لسمى أو بعض صفاته أو أجزائه أو أبرز أعماله ووظائفه نتائج عديدة ..سطها فيما يلي من بحثنا .

(٣)

الكلمة رمز وسمة لا تعريف :

.له الكلمة ليست تعريفاً للشيء ولا تحديداً لكنهه ولا وصفاً محيطاً بجملته وأجزائه، فقد يكون اللفظ في أصل معناه أوسع من المسمى وهو الغالب وإنما يأتي التخصيص من الاصطلاح والتواضع فلفظ الجنين من مادة ج ن ن وهي مادة تفيد الستر وسمي الجنين كذلك لأنه مستور في بطن أمه وليس الستر هو الصفة الجامعة المانعة للجنين وإنما هي إحدى صفاته ويشاركه فيها

---

(١) المزهر ج ١ ص ٣٥٤ .

موجودات أخرى أيضاً . ويمكنك أن تقول مثل هذا القول في سائر الألفاظ المحتفظة بمعانيها الأصلية والموضوعة لمدلولات معينة مثل الحربة والحمل والسيارة والطربوش والزكاة والربا ؛ فليس في هذه الألفاظ وأمثالها مطابقة تامة بين معنى اللفظ الأصلي ومدلوله أو المعنى المقصود به ولا عمل هنا للمنطق والقياس ومن سخف التفكير ما قاله يحيى بن علي المنجم حين أراد أن يطبق المنطق العلمي في رده على الزجاج اللغوي إذ قال : « فالفصيل المجُرّ الذي شق طرف لسانه لئلا يرضع حليب أمه ما قولك فيه ؛ قال : لأنهم جروا لسانه حتى قطعوه . قال : فان جروا اذنه وقطعوها تسميه المجر ؛ قال : لا يجوز لك . فقال يحيى بن علي : نقضت العلة التي أتيت بها على نفسك ومن لم يدر أن هذه مناقضة فلا حس له [١] » . والحقيقة أن هذا المنجم الفلكي هو الذي لم يكن له حس لغوي وليس الزجاج . « قال أبو جعفر النحاس في شرح المعلقات : قيل إنما سميت الخمر مدامة لدوامها في الدن وقيل لأنه يغلى عليها حتى تسكن لأنه يقال دام سكن وثبت فان قيل فهل يقال لكل ما سكن مدام ؛ قيل الأصل هذا ثم يخص الشيء باسمه [٢] » .

---

(١) المزهر ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المزهر ج ١ ص ٤٣٣ .

(٤)

الاشتراك أو تعدد المعنى — الأضداد :

إن أكثر الأصول التي تشتق منها الألفاظ للدلالة على معان جديدة ذات معان عامة ، لذلك فقد تستعمل للدلالة على مسميات مختلفة تشترك في تلك الصفة أو ذلك المعنى العام فكلمة دليل يقصد بها من يدل على الطريق أو من يطوف مع السائحين في عصرنا ليدلهم على الأماكن الجديرة بالزيارة ويراد بها الكتاب الذي تطبعه دوائر السياحة في كل بلد لدلالة الغريب على معالمه وآثاره ويقصد بها كذلك الحجة المنطقية والبرهان لأن جميع هذه المسميات ينطبق عليها كونها دالّة لقاصدها وإن كانت هي في ذاتها مختلفة ومثلها كلمة جارية فقد اطلقت على الفتاة الحديثة السن في العصر الجاهلي واستعملت بمعنى السفينة « وله الجوار في البحر كالأعلام » والساقية للنهر الصغير والفتاة التي تتولى تقديم الشراب . والسهم للحديدة التي يرمى بها والحصة التي تكون لكل واحد من المشتركين في الميسر واطلقت في زماننا على أصغر حصة يمكن أن يساهم بها المشترك في الشركات المسماة بالمساهمة اشتقاقاً من لفظ السهم . وكلمة المشروع تستعمل بمعنى الجائز شرعاً أو قانوناً وتطلق في عصرنا على العمل الكبير كبناء جسر أو سد أو مدينة وخصوصاً قبل اتمامه باعتبار أنه

رع فيه أو سيشرع كما تطلق على القانون قبل أن تتم الموافقة النهائية عليه
ن السلطة المختصة بذلك .

وقد يقع أن تطلق الكلمة الواحدة على معنيين متضادين لوجود صفة شتركة بينهما ومثال ذلك لفظ الحرمة فهي مشتقة من مادة حرم التي تفيد المنع توصف بها الأشياء التي لا ينبغي الاقتراب منها بل يمنع لقبحها وخبثها كحرمة الزنى والخمر كما توصف بها الأشياء التي لا تقرب لكرامتها وقدسيتها تقول : إن للدين حرمته وللكتاب المقدس حرمته .

وتعدد معاني اللفظ ظاهرة لغوية نجدها في جميع اللغات الشائعة لأن نشأها وسبب وجودها هو ما ذكرناه من طريقة تسمية الأشياء ووضع الألفاظ وهو أمر عام في اللغات وهذه الظاهرة هي التي سماها قدماؤنا الاشتراك وسموا اللفظ المتصف بهذه الصفة المشترك وإذا كانت المعاني المدلول عليها متضادة فاللفظ عندهم من الأضداد ، وسمى الفرنسيون ظاهرة الاشتراك هذه polysémie ومعناه تعدد المعنى .

(٥)

الترادف :

ولو نظرنا إلى وضع الألفاظ وتسمية المسميات من وجه آخر لوجدنا

أن للشيء المسمى وجوهاً وصفات كثيرة ويمكن أن يسمى بأكثر من صفة من صفاته وأن يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعاً لتلك الوجوه والصفات ومن هنا ينشأ الترادف وهو تعدد اللفظ للمعنى الواحد وهو عكس الاشتراك ، وهذا هو أبرز أسباب نشوئه وظهوره في جميع اللغات فمن ذلك تسمية الدار داراً ومنزلاً ومسكناً وبيتاً باعتبار كونها مستديرة في الأصل أو كونها مكان النزول بالنسبة لأهل البادية أو المسافر أو كونها موضعاً للسكينة والاطمئنان أو كونها مكاناً للبيتوتة ؛ وكل لفظ من هذه الألفاظ يدل على المقصود نفسه بأحد هذه الاعتبارات التي قد يقصدها المتكلم ويلاحظها أولا يقصدها ولا يلاحظها وهو الغالب في استعمال الناس. وأهل الأدب والبلاغة وحدهم قد يراعون في استعمالهم أحد هذه الألفاظ معناها الأصلي . ومن هذا القبيل تسمية الكتاب كتاباً ومؤلفاً ومجلداً وأثراً وكذلك الصديق والعشير والأنيس والرفيق والنديم بحسب تعدد الاعتبارات .

(٦)

التسمية تصنيف :

إن تسمية الأشياء ووضع الالفاظ للدلالة عليها في كل لغة من اللغات نوع من تصنيف الموجودات المادية منها والمعنوية فيدخل تحت لفظ الشجرة

والدار والنبات والحجر والمشي والقطع والصوت وسائر الالفاظ الدالة على شيء مادي أو فعل أفراد كثيرة لا تحصى وليست هي متماثلة متطابقة و كذلك يدخل تحت كل لفظ من الحب والبغض والكرم والبخل والذكاء والبلادة والشرف والخسة والفرح والحزن والغضب والنشوة حالات كثيرة جداً يختلف بعضها عن بعض ولكن اللغة جمعتها تحت عنوان واحد وجعلتها نوعاً يسمى باسم واحد . فكل لغة من اللغات صنفت أفراد الكون وأجزاء الوجود في مجموعات أو أنواع وجعلت لكل مجموعة أو نوع اسماً واحداً فكل ورقة من أوراق الشجر التي وجدت أو ستوجد مما لا يمكن عده ولا يتصور احصاؤه على اختلاف أشكالها وذواتها تسمى ورقة .

ومن هنا كان بين اللغات شيء من الاختلاف بين الالفاظ فلا يقابل كل لفظ نظيره من اللغة الاخرى مقابلة تامة دائماً لاختلاف مفهوم الشعوب للوجود واختلافها في تصنيفه فقد تجمع لغة من اللغات في نوع واحد وتحت اسم واحد ما تفرقه لغة أخرى في نوعين أو أكثر وتسميه بأكثر من اسم واحد فالعمة والخالة في العربية يقابلها في الفرنسية لفظ واحد هو tante وكلمة رسالة في العربية يقابلها ألفاظ مختلفة في الفرنسية وهي lettre ويراد بها الرسالة التي تكتب إلى قريب أو صديق مثلاً و épitre ويقصد بها الرسالة التي تؤلف

في موضوع معين و message وهي الرسالة التي يبعث بها ملك أو رئيس دولة إلى مثله في موضوع مع رسول يبلغها و missian وهي رسالة الأنبياء ودعاة الاصلاح ، والخسارة والفقدان أو الضياع يقابلها في الفرنسية لفظ واحد هو perte والتراب والأرض يقابلها لفظ terre .

(٧)

التسمية تجريد :

إن كل لفظ من ألفاظ اللغة عدا الأعلام تدخل تحته أفراد كثيرة يسمى كل واحد منها بذلك اللفظ ويبقى اللفظ مشاعاً بينها قابلاً للانطباق على كل واحد منها دون تخصيص فكلمة شجرة مثلاً تنطبق على كل شجرة أياً كان نوعها وأنى كانت بمعنى أننا جردنا من أفراد الشجر الكثيرة المتنوعة في أشكالها وألوانها وأطوالها وصفاتها صورة مشتركة بينها وأطلقنا على هذه الصورة المتخيلة المجردة كلمة شجرة وكذلك كلمة فرس وباب ودار فكل منها تشمل أفراداً كثيرة وأنواعاً مختلفة وأشكالاً متباينة وكل كلمة منها تمثل معنى مجرداً من تلك الأفراد والجزئيات .

والتجريد أظهر وأوضح في الكلمات الدالة على المعنويات فالكرم معنى مجرد من حوادث عديدة مختلفة كاعطاء المال الكثير وبذل الطعام والزاد

ضيف وتقديم الأشياء ذات القيمة وأشباه ذلك مما ينطبق عليه لفظ الكرم
مثل هذا يقال في كلمات أخرى كالحرية والشرف والعقل والحق.

ان في كل لغة قدراً من التجريد ، فألفاظ اللغة مفاهيم مجردة جردها
صحاب اللغة من الواقع حتى أن أسماء الأعلام التي استثنيناها آنفاً لا تخلو من
تجريد لو أمعنا النظر فيها فلو قلت دمشق وخالد بن الوليد وبردى واستعملتها
في كلامك لاحتاج المخاطب إلى التفكير في قصدك هل تقصد دمشق القرن
العشرين أم دمشق الفتح الاسلامي وهل تعني خالداً في الجاهلية أم بعد الاسلام
في أي فترة من حياته وهل تريد بردى في بقعة من مسيره ، في منبعه أم
مصبه ، في مروره في المدينة أم في قرى الوادي ، إن في كل ذلك تجريداً من
الحقيقة المادية لا بد منه فان لدمشق صورة تجرد منها خلال العصور كلها
وخالد بن الوليد صورة تجرد من جميع أيام حياته وينطبق الاسم على كل جزء
و فترة منها ولبردى صورة تجرد من امتداده في المكان والزمان عبر القرون .

(٨)

الألفاظ والحقيقة (الخارجية والنفسية) :

إن اللغة كما بينا نوع من التجريد وضرب من التصنيف ولذلك كان
من أصعب الصعب أن تصور اللغة بألفاظها الحقيقة كما هي وكما يريدها المتكلم

ويتصورها . قال فولتير الكاتب الفرنسي : « تعجز اللغة أي لغة عن التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا فالفروق بينها كثيرة لا تكاد تلمس فتضطرنا اللغة مثلاً أن نعبر بلفظ الحب أو البغض عن آلاف من ضروب الحب والبغض كلها مختلفة وكذلك الحال في موضوع آلامنا وملاذنا » . ويصف الفيلسوف الفرنسي بركسون الكلمة بأنها غير مصقولة تختزن من انطباعات البشر كل ما هو ثابت ومشترك أي غير شخصي وتسحق أو تغطي على الأقل الانطباعات الدقيقة والعابرة من وجداننا الفكري » . وقال أيضاً : « إن الألفاظ عدا الأعلام تدل كلها على أنواع . والكلمة ، وهي لا تسجل من الشيء المسمى إلا وظيفته الأكثر اشتراكاً ووجهه المبتذل ، تندس بينه وبيننا ... وليست الأشياء الخارجية وحدها هي التي نقلت منا بل حالاتنا النفسية الخاصة بنا في أخص ما فيها وأكثره شخصية وما نحياه حياة ابداع . فنحن لا نلتقط من مشاعرنا إلا جانبها غير الشخصي ذلك الذي استطاعت اللغة تسجيله لمرة واحدة نهائية لأنه واحد بالنسبة إلى جميع الناس في الأحوال نفسها » .

إن الكلمة حين يجري بها لسان المتكلم أو قلم الكاتب إنما يقصد بها غالباً شيئاً بعينه ولكن الكلمة اللغوية بذاتها لا تدل على الشيء المقصود نفسه

كما هو في الواقع أو في تصور المتكلم فاذا استعمل كلمة غرفة أو نهر أو فرح فهو يريد غرفة ذات طول معيّن وعرض وارتفاع ولون وأثاث وزينة. ويقصد نهراً بعينه، بمنظره وغزارة مائهوما يحيط به من قفر أو نبات أو بناء، ويعني فرحاً من نوع خاص. فألفاظ اللغة كما قال بركسون لا تصور الحقيقة كما هي بل تندس بيننا وبينها فتحجبها عنا بعض الحجب. ويرافق النطق بالكلمة عند المتكلم مشاعر خاصة تثيرها تلك الكلمة في سياق كلامه كما أحس بها وشعر. إن هذه الحالة من المشاعروذلك الاطار المحيط بها من الاحساسات لا تنقلها الكلمة معها إلى المخاطب إلا بكلام اضافي وجهد فني لا يستطيعه إلا أديب طاوعته اللغة واستجاب له الفن. ذلك سبب أساسي لما يعتري اللغة وتتصف به الألفاظ من الغموض أو العموم والبعد عن الدقة والتحديد.

★ ★ ★

حياة الألفاظ

لقد شاع استعمال هـذا التعبير في عصرنا منذ نحو قرن فشبه علماء الل
الكلمات بالأحياء وجعلوا لها مولداً وحياة وموتاً كما شاع هذا التشبيه في ك
من العلوم بتأثير علم الحياة (البيولوجيا) الذي كان في أوج عظمته في القرن
الماضي وقد عنون دار مستتر [1] من علماء اللغـة في فرنسا المعاصرين لدارو
كتابه بعنوان **حياة الألفاظ** ونال حظاً كبيراً من الشهرة . ان هـذا التش
وان كان قد تعرض لنقد بعض اللغويين المحدثين [2] لا يزال يحتفظ بقيمته :
أنه تشبيه ، فليس معناه المماثلة الحقيقية .

فلكل كلمة حياة وتاريخ ، لها ولادة قـد يجهل تاريخها ، ولا سيما إ
كانت قديمة ، وقد يعلم ككثير من الألفاظ التي ظهرت في الإسلام **كالج**
والتقوى أو التي صيغت واستعملت في عصرنا لمعنى جديـد **كالتطور والفنا**
والهاتف والوزارة . وللكلمة بيئة تعيش فيها ، فقد تكون بدوية البيئة

---

(١) Darmesteter. La vie bes mots

(٢) Vendryes . Le langage . éd. 1921 ص ٢٢٦

حضرية ، وقد تعيش وتزدهر في بيئة معينة ، كأن يستعملها الأدباء أو الرياضيون أو الأطباء أو الصوفية أو الفقهاء أو أصحاب المهن والحرف أو العامة .

وتتصف الكلمة كذلك بكثرة الاستعمال فتشتهر أو بندرته وقلته فلا يعرفها إلا فريق من الناس ، وقد تنتقل من بيئة إلى بيئة ومن بلد إلى بلد .

وقد تعيش الكلمة دهراً طويلاً حتى تكون من المعمرين ، وقد يطويها البلى وينقطع استعمالها حتى تحسب في عداد الموتى ثم قد تظهر بعد اختفاء أو تبعث من مرقدها وتنشر بعد موتها .

تبدل معاني الألفاظ وتطورها :

ان ما يعتري الكائنات من تبدل وتحول قد يعتري كذلك الألفاظ فتتغير من ناحية شكلها ومبناها ، كأن تتغير حروفها وأصواتها أو صيغتها وبناؤها ، أو من ناحية معناها وهذا موضوع بحثنا . فقد تنتقل الكلمة من معنى إلى آخر أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديداً دون أن تترك الأول فتتعدد بذلك المعاني التي تدل عليها وتستعمل في أي واحد منها على حسب الأحوال والمقامات . والغالب أن يحصل هذا التبدل على مر الأيام وتقلبات العصور ويسمى في هذه الحال تطوراً لانه انتقال بالكلمة من طور إلى طور .

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة : ان كلمة طعن كانت تستعمل في العصر الجاهلي للضرب بالرمح ، ثم استعملت بعد الإسلام في علم الحديث والرواية فيقال فلان مطعون في روايته ، ثم استعملت في العصر الحديث بمعنى قضائي خاص كالطعن في الدعاوى والانتخابات ، وبقيت هذه المعاني كلها ملازمة للكلمة ويعين أحدها سياق الكلام . ومثلها كلمة السلوك فهي اصطلاح عند الصوفية منذ العصر العباسي ، واصطلاح حديث في علم النفس واصطلاح مدرسي يفيد الدلالة على أخلاق التلميذ . وكلمة المؤمن معناها الأول المصدق ومنه قوله تعالى حكاية عن أبناء يعقوب « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ثم استعملت بمعنى ديني خاص هو الايمان بالله خاصة أو هو الايمان بالله وبمحمد (ص) رسوله .

ان هذه المعاني التي تتوالى على الكلمة الواحدة قد ينسخ الثاني منها الأول والتالي السابق كالبأس بمعنى الحرب [1] والمسافة وأصلها السوف بمعنى الشم والحج بمعنى القصد . ويندر أن تستعمل هذه الألفاظ بغير معانيها الجديدة التي هي الشدة والبعد والحج الشرعي . ولكن الحالة الغالبة أن يضاف المعنى الجديد إلى القديم فتجتمع في الكلمة الواحدة معان كثيرة ؛ وتعددها ناشىء إما عن

---

(١) وهو المعنى المقصود في قوله تعالى « وحين البأس » .

اختلاف الزمن الذي استعملت فيه أو اختلاف بيئة القائل أو طبقته أو مهنته ، ولذلك كان من الضروري ، لتحديد معنى الكلمة ، معرفة العصر أي تاريخ النص والبيئة التي ينتمي إليها . فكلمة منطق في الجاهلية وصدر الإسلام تفيد معني الحديث والكلام وفي العصر العباسي وخاصة لدى علماء الكلام والفلسفة تفيد معني القياس العقلي المقتبس من اليونان ولفظ الترجمة استعمل بمعنى العنوان ومنها قولهم فقه البخاري في تراجمه أي في عناوين أبواب كتابه في الحديث ؛ واستعملت بمعنى تاريخ الرجال وأحوالهم ، ومن ذلك كتب التراجم ؛ واستعملت بمعنى النقل من لغة إلى لغة ومنه الترجمان . والزميل كان معناها الرديف على البعير أو الذي يعمل مع صاحبه على البعير ، ثم غدت تفيد في العصر الحاضر الرفيق في العمل أو المهنة وكأن المعنى الخاص نُسي وان كان المعنى الجديد يشمله لانه اعم .

وهذه المعاني المجتمعة في الكلمة الواحدة يتفرع بعضها من بعض وتتصل بالمعنى الأصلي للكلمة بنوع من الصلة سنوضحها من بعد . فمنها **المعنى الاشتقاقي** أو الأصلي أو التاريخي وهو أقدم تلك المعاني وأولها اتصالاً بالكلمة واقتراناً بها وعنه تتفرع المعاني الأخرى ، وقد يبقى هذا المعنى مستعملاً مع المعاني

الأخرى ، أو يكون منسياً مهملاً وأكثر المعاني الأصلية أو الاشتقاقية في اللغة العربية باقيـة مستعملة ، بخلاف أكثر اللغات الحية فكثير من معـاني مفرداتها الأصلية قد اختفت وراء المعاني الجديدة مثل arriver و aborder في الفرنسيـة ومعناها وصـل ولامس أو قارب وأصلها مأخوذ من rive و bord ومعناها الشاطىء والساحل أو الحافة و gréve ومعناها الاضراب وأصل معناها الرمل لان المضربين كانوا يجتمعون عليه و ville المدينة كان معناها البيت الريفي ومجموع البيوت الريفية village أي القرية . ومعنى الكلمة الحاضر قد يكون مختلفاً عن معناهـا الاشتقاقي وقد يكون متفقاً معه وقـد تتعدد معـاني الكلمة خلال العصور المتعاقبة فلا تفسر الكلمة الواردة في نص من النصوص إلا بالمعنى الشائع في العصر الذي قيل فيه وإلا نشأ عن ذلك خطأ سببه اختلاف الزمن وتباين الاستعمال كأن تفسر كلمـة حكومة في نص من القرن الأول للهجرة ، إذ كانت تستعمل بمنى الحُكم الذي يصدر عن الحَـكَم في قضية ، بمعنى الحكومـة المستعمل في العصر الحاضر وهو الهيئة الحـاكمة . وكلمـة السيارة كانت تفيد معنى القـافلة وهي تطلق اليوم على المركبة التي تسيرهـا المحركات الآلية والهاتف كان يقصد به الصوت لا يرى شخص صاحبه واستعمله الصوفية بمعنى الخاطر الوارد الذي يحس به السالك الصوفي حتى

كأنه يسمعه ، ومعناها الحالي هو تلك الآلة التي تتخذ لتخاطب الناس على البعد.

إن المعاني المختلفة التي تحملها الكلمة خلال العصور وفي مختلف البيئات تبقى كامنة فيها يُظهر أحدَها الاستعمالُ في نص معين وتبقى المعاني الأخرى مختفية .

المعاني ومعاجم الألفاظ :

إن معاجم اللغة العربية تدون المعاني الأصلية الأولى للكلمة والمعاني الأخرى التي طرأت على الكلمة حتى نهاية القرن الأول للهجرة تقريباً وتقف عند هذا الحد . وأما المعاني التي طرأت بعد هذا التاريخ فليس من معجم يجمعها إلا بعض أنواع منها جمعت في كتب خاصة كمصطلحات الفقهاء أو الفلاسفة [1] ولكن أكثرها غير مجموع وأمام الباحثين عمل كبير في تتبع معاني الألفاظ في النصوص القديمة منذ القرن الثاني للهجرة في كتب الأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفقهاء والصوفية ومختلف الوثائق الأخرى .

---

(١) وذلك ككتاب التعريفات لسيد الشريف الجرجاني وقوانين الدواوين لسعيد بن مماتي وغيرهما .

ولم يرتب أصحاب المعاجم العربية معاني الألفاظ ترتيباً تاريخياً فقد يبدأ أصحابها بالمعاني الجديدة ثم يذكرون المعاني القديمة الأصلية ، ونستثني منها معجماً واحداً هو مقاييس اللغة لاحمد بن فارس من رجال القرن الرابع للهجرة ، فقد تتبع في كل مادة معانيها مبتدئاً بما سماه الأصل في كل منها ويعني به المعنى الأصلي الذي ترد إليه سائر المعاني وتتفرع عنه وقد يرد المادة إلى أكثر من أصل إذا لم يستطع أن يردها إلى أصل واحد ثم يحاول ربط المعاني الفرعية الحادثة بالمعنى الأصلي القديم ويقف كسائر أصحاب المعاجم عند العصر الذي يحتج بأهله وهو أوائل القرن الثاني للهجرة . ذلك هو السبب الذي دعا المستشرق دوزي إلى تأليف معجم باللغة الفرنسية سماه (تكملة المعاجم العربية) (١) .

أسباب تطور معاني الالفاظ :

لتطور معاني الألفاظ أسباب من نوعين :

أحدهما من داخل اللغة نفسها وذلك كالتبدل الناشئ من كثرة استعمال لفظ في موضع معين وبجوار ألفاظ معينة . فلفظ **اتقى** بمعنى وقي نفسه استعمل بمعناه الأصلي في مثل قوله تعالى « فاتقوا النار » « واتقوا يوماً »

---

(١) Dozy . Supplément aux dictionnaires arabes

« واتقوا فتنـة » « واتقوا الله ربكم » « أفمن يتقي بوجه سوء العـذاب » ثم استعمل بمعنى ايجابي اعم من المعنى الأصلي فالتقوى غدت تفيد العمل الصالح والمتقون هم الصالحون دون ملاحظة المعنى الأصلي وإن كان المؤدى واحداً ؛ ولفظ احتال والحيلة لم تكن تفيد أي معنى يـذم بسببه الانسان فيقال احتـال لطعامه ولم يكن له في الأمر حيلة ثم اكتسب هذا اللفظ بكثرة الاستعمال في مواطن يلجأ فيها الانسان إلى وسائل غـير محمودة معنى مذموماً وأصبح لفظ المحتال يفيد الذم القبيح ولم يكن كذلك .

ومن الألفاظ التي انحرفت عن معناهـا بسبب هذا النوع من التبـدل الناشىء عن مجاورتهـا لألفاظ معينة في سياق معـين من الكلام كلمة الفشل ومعناها الفصيـح الضعف ولكن كثرة ترداد الناس لقوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا » واستشهـادهم بهذه الآية في مواطن التنـازع المؤدي إلى الاخفاق جعلهم يظنون أن معنى الفشل الاخفاق وهو خطأ . ومثلها في هذا الباب امتاز ومعناها انفصل ومنه قوله تعالى « فامتازوا اليوم أيها المجرمون » وإذ كانت تستعمل كثيراً في موطن انفصال شيء عن شيء لمزية به فقد لحقها معنى آخر اضيف إلى الانفصال وهو التميز بالفضل والرجحان وهو معنى وإن لم يكن في أصل اللغة لكنه لا ينافيه بل هو نوع من التخصيص الذي سنذكره .

والنوع الثاني أسباب خارجة عن اللغة كالاسباب الاجتماعية والنفسية .

أسباب اجتماعية :

إن الثورات الاجتماعية ولا سيما الفكرية والتطور الاجتماعي ، بسبب ما تؤدي إليه من تبدل الأشياء التي يراها الانسان أو يستعملها وتبدل المفاهيم ، تؤدي في غالب الأحوال إلى تطور لغوي ، فتموت ألفاظ وتحيى أخرى ، وتتبدل معاني بعض الألفاظ ، وهي التي كان لها معنى واستعيرت لمعنى جديد هو نتيجة تلك الثورة أو ذلك التطور الفكري . إن انتشار أديان أو مذاهب اجتماعية جديده يقترن غالباً بظهور مفردات لغوية جديدة في صياغتها أو في معناها على الأقل الدلالة على المفاهيم الجديدة . فألفاظ الايمان والنفاق والفسق والصلاة والصوم والزكاة والجهاد والتوبة والكفارة والتيمم والتقوى والدنيا والآخرة والحلال والحرام وكثير غيرها ظهرت بمعانيها الجديدة بظهور الاسلام وعرف كل مذهب اجتماعي في عصرنا بألفاظ خاصة به للتعبير عن مفاهيمه الخاصة الجديدة . إن تبدل العادات خلال العصور التاريخية قد يؤدي إلى تغير الشيء المسمى مع بقاء الكلمة الدالة عليه وبذلك يكون مدلول الكلمة نفسه قد تغير ضمناً ولو في شكله . فمن ذلك أن من يتزوج من العرب كان يخرج عن بيت أبيه ويبني لنفسه خباء مستقلاً ولذلك قالوا بنى بزوجته أي بنى بيتاً معها وكان المهر المستعمل إبلاً أو غنماً تساق فقالوا السياق بمعنى المهر

وساق لها وكانوا إذا باعوا شيئاً صفق البائع على يد المشترى فسموا البيع صفقة وبقي اللفظ وذهبت عادة الصفق . واستعمل الصحابة ثم مؤلفو السيرة كلمة غزوة فقالوا غزوة بدر وغزوة أحد مع أن هذا اللفظ الجاهلي استعمل لمعنى للحرب في الاسلام يختلف عنه فى الجاهلية .

وكل ما ذكرناه عن الأسباب الاجتماعية لا تنتج دوماً نتائجها دون تخلف فكثيراً ما تتبدل المفاهيم والأشياء وتبقى الأسماء كما هي ولا يشترط لوجود المفهوم الجديد وجود لفظ واحد يقابله ولذلك كان لا بد لهذه الأسباب الاجتماعية لتؤدي نتائجها اللغوية في تبديل معاني الألفاظ أو إحداث ألفاظ جديدة من أسباب واستعدادات نفسية تظاهرها وتعينها ، لا بد من رغبة قوية أو حاجة في النفس ملحة ، أو حاجة حقيقية لا محيد عنها كوجود شيء حسي جديد ليس في اللغة اسم سابق يدل عليه .

اسباب نفسية :

إن الآداب الاجتماعية والحياء والاشمئزاز والتشاؤم والتفاؤل كلها اسباب نفسية تدعو إلى تجنب كثير من الألفاظ والعدول عنها إلى غيرها من الألفاظ التي يكنى بها عن الأشياء التي يستحيى من ذكرها أو يخاف أو يتشاؤم من التلفظ بأسمائها وذلك كبعض أعضاء الانسان وأفعاله وبعض

الأمراض والعاهات وبعض أنواع الحيوان . فقد استعمل العرب البصير للأعمى والسليم للديغ والمفازة للصحراء واستعمل الناس من بعد الكفيف أي مكفوف البصر . وتسمية اليسار واليسرى للجهة واليد في رأينا من هذا القبيل أي للتفاؤل وأما اليمين واليمنى فتسميتها على الأصل لأنهم يتفاءلون منها .

ومن أسباب تبديل معاني الألفاظ تأثير اللغات الأجنبية بإشراب الكلمة العربية معنى الكلمة الأجنبية المقابلة لها أو إعطائها معناها كاستعمال الأطباء اليوم كلمة تدخل بمعنى العملية الجراحية واستعمالنا كلمة الوسط للبيئة والمحيط كذلك والتحليل للشرح والتفسير والمدرسة بمعنى المذهب والدور بمعنى النوبة فهي ترجمة حرفية للألفاظ الفرنسية .role, école, analyse, ambiance, milieu, intervention ومثلها بعض الألفاظ التي نقلت عن اليونانية ، ككلمة منطق فهي ترجمة حرفية للكلمة اليونانية .

تبديل الألفاظ الدالة على المعنى :

إن لهذه المسألة التي نبحثها وهي تبدل معاني الألفاظ وجهين وعلماء اللغة في عصرنا يبحثون غالباً في أحدهما وهو تبديل اللفظ لمعناه على اعتبار أن اللفظ ثابت ومعناه هو المتبدل ، ولكن للمسألة وجهاً آخر بحثه بعض اللغويين أيضاً وهو بقاء المعنى ثابتاً وتبديل اللفظ الدال عليه وتكاد تكون الأسباب السابقة

لتبديل المعاني هي نفسها أسباب تبديل الألفاظ أيضاً . فالأسباب التاريخية والاجتماعية والنفسية تؤثر في تبديل الألفاظ الدالة على المعاني كما أثرت في تبديل معاني الألفاظ . وقد تقدم بعض الأمثلة في بحثنا فقد استعمل العرب بعد الاسلام لفظ الجهاد وهو اللفظ الذي جاء به القرآن بدلاً من الحرب والغزو والاغارة فتغير اللفظ الدال على الحرب لتغير مفهومها في الأذهان . وكذلك ألفاظ الفتوح والاحتلال والاستعمار والتحرير فقد استعمل المسلمون كلمة الفتح واستعمل الأوروبيون في العصر الحديث الاحتلال والاستعمار والتحرير بحسب وجهات النظر المختلفة ومن ذلك قول النبي العربي الكريم (ص) لا يقل أحدكم عبدي وامتي وليقل فتاي وفتاتي ، وقالوا عن الزوجة امرأة الرجل وزوجته وحليلته وحرمه ورفيقته على اختلاف العصور منذ الجاهلية حتى هذا العصر .

ومن أسباب هذ التبدل ما يصيب الألفاظ من ابتذال وبلى حتى يشعر المتكلم بالحاجة إلى تجديد اللفظ وتقويته وتبديله . ويكون هذا في المعاني المقترنة بالتعظيم والمحبة أو التحقير والكراهة أو الاستحياء أو الاشمئزاز وذلك كالألفاظ المتعلقة بالمناصب أو الحياة الجنسية أو قضاء الحاجات الخاصة أو المرض أو الموت وأشباه ذلك .

. قوانين تبدل معاني الألفاظ وتطورها :

إن فقه اللغة يحاول أن يستنتج علة الظواهر اللغوية وأن يعرف الطريق التي تسير فيها والسنة التي تجري عليها ، لذلك بحث السابقون من علماء العربية عن الطريقة العامة التي تسير عليها الألفاظ حين تغير معانيها ، فعقد السيوطي في كتابه المزهر فصلاً للفظ العام الذي خص في الاستعمال وفصلاً آخر للخاص الذي استعمل عاماً واستمر العلماء المحدثون في فقه اللغة في سائر اللغات الحديثة في بحثهم عن قوانين تبدل معاني الألفاظ . وقد تبين ان الألفاظ تسلك في تبديل معانيها إحدى الطرائق الآتية وهي مطردة في جميع اللغات وليست خاصة بواحدة منها :

١ — التعميم :

ويكون ذلك بتوسيع معنى اللفظ ومفهومه ونقله من المعنى الخاص الدال عليه إلى معنى أعم وأشمل كلفظ الورد والورود وأصله إتيان الماء ثم استعمل لاتيان كل شيء والنجعة لطلب الغيث أو الكلأ ثم استعملت لطلب أي شيء والرائد الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث ومنه المثل «الرائد لا يكذب أهله »ثم عمم لكل من يتقدم القوم لطلب شيء وفي حديث وفد عبد القيس : إنّا قوم رادة أي نرود الخير

والدين لأهلنا [١] . ومثل ورد صدر وكذلك الغرض والهدف ويشبه هذه الأمثلة في اللغة الفرنسية arriver الوصول وأصلها الورود و aborder الملامسة والمقاربة وأصلها مقاربة الشاطئ و panier وأصل معناها سلة الخبز وهي مشتقة من pain وهو الخبز ثم غدا معناها السلة مطلقاً .

٢ — التخصيص :

وذلك بقصر اللفظ العام على بعض أفراده وتضييق شموله ومثال ذلك لفظ الحج وأصله القصد مطلقاً ثم خص بقصد البيت الحرام وأرى أنه عمم بعد التخصيص فغدا يطلق على زيارة الأمكنة المقدسة في كل دين . ومن ذلك كلمة الصحابة وهي تعني الصحبة مطلقاً وقد خصصت بأصحاب الرسول ﷺ ومنه الكفر ومعناه الستر والانكار وخص بانكار الدين والتوبة الرجوع وخصت بالرجوع عن الذنب ومثلها الماشية والسائمة والقافلة والوضع والحمل والفضل وهو الزيادة وخص بخصال الخير والسائل والدنيا والآخرة . والعقوبة في رأينا من هذا القبيل لأنها تأتي عقب الجرم وخصصت بالجزاء يناله المجرم أو المذنب والوَرْد وهو نَوْر كل شجرة ثم غلب على نوع خاص معروف .

وقد يقع التخصيص بنتيجة الحذف كحذف المضاف إليه أو الصفة

---

(١) لسان العرب مادة ورد .

ومثاله لفظ الدنيا والأصل الحياة الدنيا والجامعة والأصل المدرسة الجامعة والعملية أي الجراحية والكفيف أي مكفوف البصر والمحروم أي من المال. وقد يقع التخصيص بقرينة استعمال اللفظ في سياق معين من الكلام وبحسب بيئة المتكلم أو المخاطب أو مناسبة الكلام كلفظ موسم بالنسبة للزراع أو الرعاة أو الصناع أو الباعة .

٣ — الانتقال بسبب المشابهة أو المجاورة :

ويكون بانتقال اللفظ من معناه إلى معنى مشابه له أو قريب منه أو بينه وبينه مناسبة وقد رأينا كيف أن لفظ ميّز وتميّز وامتاز وأصل معناها الفصل والفرز انتقلت إلى معنى قريب وهو الانفصال لمزية وفضل في كلام المتأخرين وأن لفظ الحيلة والاحتيال انتقل من معنى السعي للخروج من ضيق إلى معنى فيه مكر وخبث وفسقت الرطبة خرجت من قشرها انتقلت إلى معنى الخروج عن الخلق القويم والطريق المستقيم ، والبريد في الأصل مسافة معروفة ثم استعمل للرسول الذي يقطع المسافات من البُرُدُ لايصال الكتب ثم للدابة التي تحمله ثم استعمل للدائرة التي تتولى إرسال الكتب والرسائل .

ويحصل انتقال اللفظ من معنى إلى آخر بطرق أبرزها الاستعارة أي المجاز الذي علاقته التشبيه والمجاز المرسل وهو الذي تكون علاقته غير التشبيه

كالسببية والحالية والمحلية والجزئية والكلية . ولا بد لنا من القول إن استعمال اللفظ بالمعنى الجديد يكون في بادىء الأمر عن طريق المجاز ولكنه بعد كثرة الاستعمال وشيوعه بين الناس تذهب عنه هذه الصفة وتصبح دلالته على مدلوله الجديد دلالة حقيقية لا مجازية . إن كلمة بحث تفيد في الأصل تحريك اليد في التراب للتفتيش عن شيء واقتبس تدل على طلب القبس من النار والعقل تدل على الربط والروعة والأروع والرائع مأخوذة من الروع وهو الفزع والباب من الكتاب مأخوذ من الباب الذي ندخل منه والمعركة مشتقة من عرك الشيء والتثقيف تدل على تقويم اعوجاج الرمح . وجميع هذه الألفاظ تدل على معانيها الأخرى المتعارف عليها دلالة مباشرة لا عن طريق المجاز بل إن دلالتها عليها أقرب إلى الذهن من دلالتها الأصلية لشيوع المعنى الجديد وانتشاره وخاصة بعد طول العهد بهذا الاستعمال . وفصل ما بين الحقيقة والمجاز في دلالة مثل هذه الألفاظ هو شعور الناس بكون اطلاق اللفظ على مدلوله هو تسمية مباشرة أو نوع من التشبيه أو المجاز لمناسبة بينهما .

والاتجاه الظاهر في تطور معاني الألفاظ بكون من المعاني المحسوسة الى المعاني المجردة كالبحث والعقل والاقتباس والادراك والوعي والشرف والروح والحرة

والفضل وكلها تدل في الأصل على معان حسية ومدلولات مادية . وأما النقل من الحسي إلى الحسي فيقع كثيراً كأسنان المشط ورأس الجبل ، وكوصفنا للصوت بالنعومة والخشونة والحدة والوضوح مع أن الوضوح للمرئيات لا للمسموعات والصفات الأخرى للملموسات .

تلك هي نظرة موجزة في حياة الألفاظ ومعانيها وتطورها مما ينطبق على جميع اللغات مع شواهد عليها من لغتنا العربية وهي تفتح أمامنا آفاقاً للبحث جديدة فان أكثر عناية أهل اللغة عندنا انصرفت إلى مادة الكلمة واشتقاقها وأوزانها وإن هذه النظرات الجديدة في دلالة الألفاظ ومعانيها المستقاة من مباحث فلسفية ونفسية واجتماعية ولغوية جديرة بأن توصلنا إذ نتزود بها إلى نتائج ذات قيمة كبيرة في موضوع لغتنا .

إن اللغة العربية بحاجة شديدة إلى جمع مفرداتها ومعاني مفرداتها ، في العصور التي تلت عصور الاحتجاج اللغوي ، وتتبع مراحلها وربطها بالمراحل التي سبقتها بعد تصنيفها ودراستها . فان اللغة في الحقيقة سارت حين وقف النحاة واللغويون وبقيت حية متحركة حين جمدوا وهذه الدراسة الشاملة تعطينا فكرة صحيحة عن اللغة العربية وخصائصها ومزاياها وخط تطورها .

* * *

وإن مباحث الأصوات اللغوية والاشتقاق والأبنية ومعاني الألفاظ التي بحثناها في هذا الكتاب جديرة بأن تنير لنا السبيل لمعرفة خصائص اللغة العربية الأصيلة فنتمكن حينئذ من السير بها في طريق الحياة والتقدم مع الحفاظ على أصالتها وعبقريتها الحافظة إلى حد كبير لعبقرية العرب وأصالتهم الضامنة لاستمرارهم والمقترنة كذلك باداء رسالتهم الانسانية صافية نقية « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وهذا هو موضوع كتابنا الثاني (خصائص العربية) الذي الحقناه بهذا الكتاب .

★ ★ ★

خصائص العربيّة

مشكلتنا اللغوية

إن كبرى المشكلات المثارة في العالم العربي والتي تعود إليها سائر المشكلات في ميدان اللغة هي مشكلة نهوض اللغة العربية وقدرتها على الوفاء بحاجات أهلها في هذه الحياة الجديدة سواء في ميدان العلوم أو الفن أو الأدب بأغراضه وآفاقه الحديثة أو في ميدان الحياة العملية بما فيها من مستحدثات لا ينقطع سيلها . وإن البحث في هذه المشكلة وتقديم الأجوبة السديدة والحلول الصحيحة فيها وفيما يتفرع عنها يقتضي العودة إلى جذور هذه القضية . ولا بد من بناء ذلك على معرفة عميقة شاملة للغة العربية وخصائصها الأصيلة لا على معرفة مسائل منثورة ومعارف متفرقة في النحو والصرف واللغة ولا على مناقشة جزئيات القضية وعرض أمثلة محدودة في هذا الموضوع . فان تقديم صورة كاملة ومخطط شامل للغة العربية هو الخطوة الأولى نحو الحكم الصحيح في أساس المشكلة وجوهر القضية . وقد حاولت أن أقدم هذه الصورة أو أهم أجزائها في كتاب « فقه اللغة » ولكن تلك الصورة التي حاولت رسمها وتقديمها في كتابي أخفى بعض معالمها أحياناً وفرق بعض التفريق

أجزاءها عرض بعض التفصيلات اللغوية والنظرية المختلفة وتبدت لي من جهة أخرى أثناء بحثي وتأليفي للكتاب صورة جديدة واتضحت لي معالم وآفاق لم تكن لتبدو للواقف في جزئيات المسائل أو في تضارب النظريات ووجدت صورة واضحة كل الوضوح لتلك الصلة المتينة العميقة بين خصائص العرب العقلية والنفسية وتكوينهم وتركيب مجتمعهم واتصال تاريخهم من جهة وخصائص اللغة العربية في تكوينها وتركيب ألفاظها ومبانيها ومعانيها من جهة أخرى . كما أنني وجدت من وراء ذلك تقابلاً عجيباً وتشابهاً واضحاً بين اللغة العربية والطبيعة ، ولم يكن سبيلي في كل ذلك رأياً أرتأيه فألزمت به اللغة وأخضعتها له وإنما انكشف لى ذلك انكشافاً تدريجياً في أثناء سيري في البحث اللغوي خلال سنين طويلة . وها إني أقدم بين يدي أهل العلم والاختصاص هذه النظرة الجامعة والصورة الشاملة للغة العربية متصلة بجذورها وأرضها وحياة أهلها بحركاتها النابضة وأجهزتها الحية ومعالمها وخطوطها الكبرى مقتصراً في هذا الجزء من المحاضرات على (الكلمة العربية) أولا دون (الجملة والكلام المركب) راجياً أن تتاح لي قريباً الفرصة لاتمام هذه الصورة بالجزء المتعلق بالكلام المركب منتظراً ما يبدو للمفكرين من آراء تعدل هذه الصورة تصححها أو تثبتها وتزيدها كشفاً ووضوحاً .

وأعتقد أن هذا هو أول الطريق لمعرفة لغتنا معرفة عميقـة والانطلاق بعد ذلك إلى حل المشكلات الكبيرة منهـا والصغيرة وأنه كذلك السبيل لتكوين وعي لغوي صحيح يساير وعينا السياسي والفكري بل هو الأساس لتكوين تفكيرنا تكويناً صحيحاً سليماً والأخذ بأيدينا نحو الوحـدة اللغوية والتحرر اللغوي والقضاء على التجزئة والشعوبية أو النفوذ الأجنبي في ميـدان اللغة والفكر .

★ ★ ★

الوعي اللغوي

بين الجمود والانحراف والأصالة والحياة

إن الأمة العربية أخذت في النهوض في جميع الميادين بعد كبوة واستيقظت بعد إغفاءة وطفقت تتحرر من قيود كُبلت بها فرانت على عقولها ونفوسها واتجهت اليوم وهي في أواخر مرحلة التحرر نحو البناء ولقيت في طريق نهضتها وتحررها مشكلات في جميع نواحي حياتها المادية والمعنوية لا بد أن تحلها فكانت تلائم بين الموروث من حياتها والجديد من ظروفها ملاءمة لا تتم دوماً كما يجب أن تتم فتقع بين إفراط وتفريط وغلو وتقصير ومحافظة متزمنة وانطلاق فوضوي ثم ترتد مابين هذه السبل الجائرة إلى الطريق القصد والجادة السويّة فتصحح المسير وتقيم العوج وتسدد الاتجاه نحو الهدف الأمثل والنهج الأقوم وذلك كلما تم الوعي الذاتي وتكامل واستنار .

إن ما حدث في سائر ميادين الحياة حدث مثله في ميدان اللغة فقد سارت النهضة اللغوية مع سائر نواحي النهضة في خطوط متوازية ومراحل متشابهة وصادفت في طريقها كذلك المشكلات نفسها . ونحن في موضوع

اللغة اليوم كذلك في أعقاب مرحلة التحرر وفي بداية مرحلة البناء الجديد وهي من أدق المراحل وأحوجها إلى اكتمال الوعي ونضجه .

إننا اليوم نستعيد خصائصنا ونتحرر من بقايا التأثير الأجنبي الذي كان هدفه أن يطمس على معالم حياتنا ويزيل خصائصنا الأصلية إننا في مرحلة الوعي الذاتي أو إثبات الذات وتحقيقها . وإن ما خلفه الاستعمار في أنفسنا وعقولنا من نزعات واتجاهات ومن قيم ومثل تتعارض قليلاً أو كثيراً مع خصائصنا وصفاتنا الأصلية جعل المعركة داخلية في أنفسنا وذواتنا وإذا كانت المعارك الخارجية الظاهرة في الميدان السياسي والعسكري بيننا وبين الاستعمار انتهت أو قاربت نهايتها بظفرنا وانتصارنا عليه فان المعركة الداخلية لا تزال وستبقى إلى أمد من الزمن مستمرة قائمة وهي المعركة التي سميتها « معركة تحقيق الذات [١] » .

إننا نريد أن ندرس الجانب اللغوي من هذه النهضة العربية وذلك لما للغة من قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فانها الأداة التي تحمل الأفكار وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة وبها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم .إن القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار

---

(١) كتاب لنا صدر باسم « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » .

والصور الكلامية التي تصاغ فيهـا المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقـاً عن مضمونها الفكري والعاطفي أضف إلى ذلك أن الأمة العربية أمة بيان والعمل فيها مقترن دوماً بالتعبير والقول فللغة في حياتها شأن كبير وقيمة أعظم من قيمتها في حياة أي أمة من الأمم . إن اللغة العربية هي الأداة التي نقلت الثقافة العربية عبر القرون وعن طريقها وبوساطتها اتصلت الأجيال العربيـة جيلاً بعد جيل في عصور طويلة وهي التي حملت الاسلام وما انبثق عنه من حضارات وثقافات وبها توحد العرب قديماً وبها يتوحدون اليوم ويؤلفون في هذا العالم رقعة من الأرض تتحدث بلسان واحد وتصوغ أفكارها وقوانينها وعواطفهـا في لغـة واحدة على تنـائي الديار واختلاف الأقطار وتعدد الدول . واللغـة العربية هي أداة الاتصال ونقطة الالتقاء بين العرب وشعوب كثيرة في هذه الأرض أخذت عن العرب جزءاً كبيراً من ثقافتهم واشتركت معهم قبل أن تكون (الأونيسكو) والمؤسسات الدولية في الكثير من مفاهيمهم وأفكارهم ومثلهم وجعلت الكتـاب العربي المبين ركناً أساسياً من ثقافتهـا وعنصراً جوهرياً في تربيتها الفكرية والخلقية .

إن الجانب اللغوي جانب أساسي من جوانب حياتنـا واللغة مقوم من أهم مقومات حياتنا وكياننا وهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا والرابط الموحد بيننـا

والمكوّن لبنية تفكيرنا والصلة بين أجيالنا والصلة كذلك بيننا وبين كثير من الأمم. تلك هي الأسباب التي تجعلنا نعنى باللغة عناية كبرى ونحلها في الصميم من قضايانا الحيوية.

مراحل الوعي اللغوي :

١ — إننا في ميدان اللغة وكذلك في سائر الميادين في مرحلة التحرر من آثار عصور الانحطاط من جهة ومن التقليد الأجنبي والعجمة الجديدة التي أورثنا إياها عصر الاستعمار والنفوذ الأجنبي من جهة أخرى.

لقد تردت اللغة العربية إلى ما تردت إليه الحياة في سائر مجالاتها الأخرى في عصور الانحطاط التي استمرت عدة قرون حتى إن هذا التردي والضعف لم يكن مقصوراً على العامة من الناس بل شمل العلماء والفقهاء حتى كان يعجز الكثير منهم عن كتابة رسالة خالية من العجمة بريئة من الركاكة أو العامية سليمة من الخطأ وكانت دروس الفقه والدين بل دروس النحو والبلاغة تلقى بلغة مشوبة بالعامية منحطة عن الفصحى. أما أساليب العرب الفصيحة والكلام البليغ فقد كانوا بعيدين عنه كل البعد، وكل ما تصبو إليه النفوس وترتفع إليه المطامح أن يقلد الكاتب أسلوب الحريري في مقاماته أو القاضي الفاضل في رسائله ومكاتباته. لقد اختفت الفروق اللغوية الدقيقة وأصبحت الا

المتقاربة مترادفة وألفت كتب تقدم للناس الكلام المصنوع والرسائل المعدة والعبارات المؤلفة والجمل المترادفة وليس على من يريد أن يكتب في موضوع إلا أن يأخذها بنصها ويستعير عباراتها وينقل جملها .

لم يبق الترادف في ذلك العصر مزية من مزايا العربية بل مرضاً من أمراضها الوافدة المنتشرة وغلب على الناس استعمال الألفاظ في معانيها العامة فضاعت من اللغة بل من التفكير مزية الدقة التي عرفت بها العربية في عصورها السالفة وأدى ذلك إلى تداخل معاني الألفاظ حين فقدت الدقة واتصفت بالعموم وفقد الفكر العربي الوضوح حين فقدته اللغة نفسها واتصفت بالغموض وانفصلت الألفاظ عن معانيها في الحياة وأصبحت عالماً مستقلاً يعيش الناس في جوه بدلاً من أن يعيشوا في الحياة ومعانيها . وبالجملة إن الخضوع السياسي والنصوصية الفقهية والصوفية السلبية والصنعة المتكلفة في الأدب كان لها جميعاً أثرها في اللغة وانعكاس أشعتها عليها فكان للغة في تلك العصور صفات هي الوجه اللغوي لهذه الصفات الاجتماعية الأخرى .

٢ — وقد انتهت عصور الانحطاط إلى الالتقاء أو الاصطدام بالحضارة الأوروبية وانفتحت أمام العرب وأمم الشرق آفاق جديدة وظهرت لأعينهم

ألوان من الحياة جديدة وكانت نتيجة ذلك ضروب من التفاعل وأنواع من المواقف والمشكلات والأزمات ومن جملتها مشكلة اللغة .

فقد كانت اللغة تلك الأداة الموروثة التي كانت تؤدي أغراض عصور الانحطاط في آفاق ضيقة حاملة صفات التفكير السائد في تلك العصور من جمود وضيق في الأفق وحملت الحياة الحديثة في أوربا إلى العرب آلات جديدة وأفكاراً جديدة ومشاعر جديدة ، حملت كل ما حملته حضارتها من ضروب النشاط الإنساني في الاقتصاد والسياسة، والحياة الاجتماعية من ألوان وصور جديدة فقامت المشكلة من عجز اللغة العربية كما خلفتها عصور الانحطاط وعلى حالتها التي آلت إليها عن القيام بعبء التعبير عن معاني هذه الحياة الجديدة المادية والمعنوية . لقد كانت الملاءمة بين الأمرين عسيرة صعبة وكان ينوء بجمهرة المتكلمين باللغة العربية حمل هذا العبء والاضطلاع به وكانت الخاصة منهم تحاول ذلك باذلة جهدها للقيام بهذه المهمة وقعد العجز ببعضهم عن ذلك فجنحوا إلى العامية تارة وإلى اللغات الأجنبية تارة أخرى ليستعينوا بهذه ويستعيروا من تلك ما يعبرون به عن مقاصد الحياة الجديدة وأغراضها وظاهرت على ذلك أسباب خارجة عن ميدان اللغة من سياسية وغير سياسية. فكانت في أوائل النهضة العربية تلك النزعات والصيحات الداعية

العامية تارة وإلى التعريب والإكثار من الألفاظ الأجنبية من جهة أخرى وقوبلت هذه النزعات أو النزغات بالدعوة إلى الفصحى واستخراج مخبوئها والعودة إلى المنسي من قديمها وإحياء المندثر من ألفاظها واللجوء إلى الاشتقاق منها ولكنها دعوة لم تكن الوسائل قد تهيأت لها والأسباب قد تيسرت فكانت في غالب أحوالها دعوة نظرية سلبية أما الاستجابة لمطالب الحياة فكان بطيئاً . ولكن هذا الصراع اللغوي وهو أحد ألوان الصراع في تاريخ حياتنا في العصر الحديث أثار الهمم إلى البحث والتنقيب وأثار النقاش بين أصحاب النزعة المحافظة في تشددهم وأصحاب النزعات الأخرى التي تميل إلى التساهل في شأن العامية والدخيل . وهذا الصراع بين الفريقين هو الذي ولد النزعة المعتدلة التي سادت فيما بعد فأخذت من الفريق الأول ضرورة الحفاظ على الأصالة في لغتنا ومن الفريق الثاني ضرورة الاستجابة لمطالب الحياة والمرونة في معالجة المشكلة اللغوية وأدى بها ذلك إلى إعادة الحيوية إلى كيان اللغة عن طريق الاشتقاق والتوليد تبعاً لسنن العربية نفسها التي كان الناس في العصور المنصرمة وقفوا دونها ولم يعملوا بها وجروا في اللغة كما جروا في الفقه وفي سائر الميادين الأخرى على طريقة التقليد والاتباع دون الاجتهاد والابداع فكانت هذه الدعوة الجديدة دعوة إلى الاجتهاد في اللغة مع المحافظة على

أصول العربية وخصائصها وسننها وكانت الطريق الصحيح للحفاظ على الذات ولتكوين المناعة دون الذوبان في الذات الغربية الأجنبية والانصهار فيها والتبعية لها والخضوع المطلق لنفوذها اللغوي والفكري. ومما أعان على تقوية هذه النزعة القويمة إحياء التراث العربي القديم واقترانها بمرحلة الشعور الذاتي من الناحية السياسية والقومية عند أبناء الأمة العربية. وبعد أن كان الناس يتأدبون بمقامات الحريري وأمثالها أخذوا يقبلون على دواوين كبار شعراء العربية من شعراء الجاهلية وأصحاب المعلقات إلى شعراء العصر العباسي كالبحتري وأبي تمام وأبي الطيب المتنبي وطفقوا ينصرفون عن النثر المتكلف المسجع إلى النثر البليغ فعادوا إلى عصور ابن المقفع والجاحظ وأضرابهما ممن كانوا يجدون فيهم المثل الأعلى الجديد للنثر العربي الخالي من قيود الصنعة والزينة الفارغة والمبالغات والتهويلات والمجازات الغريبة والأخيلة المتكلفة وظهرت طبقة جديدة من الكتاب تنسج على هذا المنوال مثل ولي الدين يكن ورفيق العظم وعبد الرحمن الكواكبي والمويلحي ومحمد عبده.

أما النزعات المنحرفة في اللغة فقد عاشت حقبة من الزمن وكان لها مظاهر متعددة ودوافع كذلك مختلفة تغذيها إلى حين تغذية طبيعية ولكنها عارضة مؤقتة أو تغذية مصطنعة غير طبيعية.

لقد كان من مظاهر هذه النزعات المنحرفة الدعوة إلى العامية أي إلى تلك اللهجة المستعملة في كل قطر عربي والتي هي نتيجة تردي العربية فيها أو تطورها مضافاً إليها عوامل أخرى محلية كتأثير اللغات السابقة التي حلت العربية محلها أو اللغات الأعجمية المجاورة أو التي انتشرت بسبب الاحتلال الأجنبي وبتأثيره اللغوي والثقافي. والدعوة إلى العامية هي بطبيعة الحال دعوة إلى الاقليمية فليس ثمة لغة عامية واحدة بل لهجات أو لغات، فعامية مصر والشام والعراق والمغرب والجزيرة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً قليلاً أو كثيراً. وقبول العامية من حيث المبدأ قبول لتعدد اللغات في الأقطار العربية لأن العامية إذا قبلت فستنطلق هذه اللهجات العامية في طرق مختلفة في تطورها وتنتهي إلى ما انتهت إليه اللاتينية في فرنسا وايطاليا وأسبانيا. ولهذا السبب بالذات كان دعاة العامية في كل بلد هم دعاة الاقليمية من الوجهة السياسية الذين يريدون استبعاد الوحدة العربية، هم دعاة الاقليمية السورية أو الاقليمية الفرعونية وأمثالهم.

ومن أجل هذا أيضاً لقيت هذه الدعوة ترحيباً من الأجانب والمستشرقين فنشطوا في بحث اللهجات العامية وتدوينها واستخراج قواعدها وكتابة البحوث والرسائل عنها والدعوة إلى الاهتمام بها وإحلالها محل التكرمـة

والتقديم والتخصص في درسها . لقد كان وراء هذه الدعوات دوافع لا تعود إلى اللغة نفسها بل إلى دوافع من وراء ذلك ومقاصد أبعد منها تتخذ من الأسباب اللغوية حجة تتستر وراءها وذريعة تختفي خلفها[1] .

ومن مظاهر هذه النزعات المنحرفة الدعوة الى اغراق العربية في سيل من الألفاظ الأعجمية دون قيد أو شرط سواء أكنا نستطيع أن نجد لها لفظاً يقابلها جديداً أو قديماً أم لم نستطع ودون أن نراعي أوزان العربية وحروفها وأصواتها . إن هذه الدعوة تشبه الدعوة إلى فتح الأبواب مشرعة أمام البضاعة الأجنبية دون قيد بحجة رفع مستوى الحياة الاجتماعية وهي دعوة تخفي وراءها طبعاً قتل البضاعة الوطنية والقضاء على الاقتصاد القومي . إن الشعوبية بذاتها تريد إذابة العرب وأخلاقهم ومكارمهم وعقائدهم القويمة في شعوب أخرى وعقائد غريبة عنهم كذلك الذي حدث في العصر العباسي من نشر المزدكية أو الالحاد أو الاباحية وما إلى ذلك ، إنها شعوبية جديدة في الميدان اللغوي .

إن الدافع إلى مثل هذه الدعوة دافع شعوبي أحياناً تكمن وراءه الرغبة

---

(١) اقرأ كلمة الفصل الرائعة التي كتبها محمود تيمور في الفصل الأخير من كتابه مشكلات اللغة العربية ١٩٥٦ .

في القضاء على خصائص العرب اللغوية وتراثهم اللغوي الذي يتميزون به ويعتزون ، وقد يكون الدافع عند بعضهم أحياناً حب الظهور بمظهر التقدمية والتبرؤ من الجمود والرجعية ولذلك قد نستغرب إذا لم ننتبه إلى هذا الدافع حين نجد هذه النزعة عند بعض المنتسبين إلى الثقافة القديمة ، إنه الشعور بالنقص ومحاولة تعويضه بالنقيض ، أولئك هم النفاجون والمدفوعون بدافع التنفج Snobisme .

ومن مظاهر هذه النزعة الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة العربية وهي دعوة تنطوي على إغفال مقصود أو جهل لخصائص اللغة العربية في تكوين الكلمة وبنائها ونبوها عن الطريقة اللاتينية في رسم الكلمات وكتابتها .

وسنعود إلى بيان ذلك في حينه ، هذا عدا ما في ذلك من فصل العرب عن تراثهم وتاريخهم وما في الكتابة العربية من اختزال وسرعة . وقد ارتفع النداء بهذه الدعوة حين كانت جمهرة المتعلمين من أبناء العربية ضعيفي الملكة في اللغة يجدون صعوبة كبيرة في ضبط الألفاظ وفي معرفة حركاتها الإعرابية فالوا بدفع الرغبة في تقليل الجهد وتذليل الصعوبة إلى الطريق السهل ولو كان طويلاً أو منحرفاً ، فالشعور بالعجز أو الضعف هو الدافع

لأصحاب هذه الدعوة التي لقيت كذلك عند الأجانب والمستشرقين قبولاً وترحيباً.

وإن استشمار بعض الناس الضعف والعجز عن تملك ناصية العربية حملهم كذلك على القول باسقاط الاعراب في الكتابة والنطق ليكون الناس متساوين في أمر اللغة ولكن على طريقة التسوية بالأدنى وكأنهم جهلوا أو تجاهلوا أن الإعراب في العربية ليس زخرفاً يزين به الكلام وإنما هو عنصر أساسي في بنائه إذا حذف منه سقط جزء من المعنى وضاع كثير من الفروق بين تعابير يختلف معناها باختلاف الإعراب وحده. ولا بد حين يحذف الإعراب من الاستعاضة عنه بما يؤدي وظيفته في أصل الكلام وبنائه، وفي ذلك تغيير لبناء اللغة وتركيبها.

إن هذه النزعة المنحرفة التي تحدثنا عن مظاهرها وبواعثها الظاهرة والخفية الداخلية والخارجية قد خفت صوتها منذ حين من الزمن وانكمشت وتقلصت حتى نستطيع أن نقول إنها ماتت أو كادت وإن ضعفها كان يزداد كلما اقترب العرب من الاستقلال والتحرر. إن التحرر اللغوي من العجمة والشعوبية كان مرافقاً للتحرر السياسي وسائراً معه في نسق واحد.

إن ما أدى إليه الوعي اللغوي من نتائج في هذه المرحلة التي قطعها منذ بدء النهضة حتى يومنا هذا نستطيع أن نوجزه بما يلي :

كان صراعٌ بين النزعة المحافظة والنزعة المتجددة المتحررة اتصفت فيه الأولى بالتشدد والتزمت ولكنها قامت بوظيفة الدفاع عن اللغة الموروثة بمجموعها دون تمييز بين الأصيل الثابت من عناصرها والعارض المتبدل فقامت بذلك على كل حال بوظيفة أساسية في حفظ كيان اللغة وحياتها وقامت النزعة الأخرى بوظيفة المحرض والداعي إلى التطور والتجديد والملاءمة بين اللغة والحياة ولو أنها شابتها شوائب الانحراف ، وأشعرت الناس بالمشكلة اللغوية والحاجة الحقيقية إلى التجديد ولو أن هذه الحاجة استغلت أحياناً لأغراض خارجة عن ميدان اللغة .

لقد انتهى الأمر بهذا الصراع إلى الخروج عن التزمت وضيق النظر وإلى خفوت صوت العجمة والشعوبية ودعواتها وإلى دبيب الحياة في اللغة العربية وعودة الملكة العربية بالتدريج إلى أبناء الأمة العربية وشيوعها في طبقات كثيرة .

لقد انتهى الأمر بالوعي اللغوي إلى ما انتهى إليه الوعي الذاتي في سائر ميادين الحياة : تحرر من الانحطاط ورواسبه ، تحرر من العجمة الجديدة

والشعوبية الحديثة ، استعادة للخصائص الأصيلة والصفات الذاتية واستثمار بها ، واتصال بالماضي وتمثل لعناصره الأساسيـة الخالدة ، بعـد إحياء آثاره المهملة المنسية ؛ تقـارب بين الفصحى والعامية بارتفاع العامية واقترابهـا من الفصحى ونزول الفصحى إلى ميادين الحيـاة واتصالها بها بعد أن اعتزلت كثيراً من ميادين الحياة قروناً طويلة ؛ ثم قدرة على التجديد والتوليد والبناء في ظروف الحياة الجديدة المتبدلة . ذلك هو الوعي اللغوي في مراحله التي قطعها والتي وصل إليها .

إن هذا الوعي اللغوي لابدمن إنضاجهوتغذيته وتقويته ليشتد ويستحكم ويكمل ، وليكون أوسع أفقاً وأشمل لعـدد أكبر من الناس وليكون أرسخ وأعمق في النفوس ولا بد لهذا من أمرين :

أحدهما : فهم خصائص العربية ليكون السير في طريق التجديد والتوليد على أساس صحيح من هذه الخصائص وعلى السنن القويم لهـذه اللغة ويكون هذا الفهم أعلق وأعمق إذا عرفنـا أن بين خصائص اللغة العربيـة وخصائص العرب أنفسهم صلة وشيجة ونسباً .

وثانيهما : الاسراع في تطهير العربية من بقايا الضعف أو العجمة الناشئـة عن عصور الانحطاط أو عن التأثير الأجنبي الحديث في عصر الاستعمار .

وسيكون هذان الأمران هدف دراستنا وستكون الموضوعات التي سندرسها مندرجة في أحد هذين البابين .

فنبحث أولاً في الخصائص الصوتية للكلمة العربية ثم في خصائص بنيتها وتركيبها وخصائص شكلها وصيغتها وفي طريقة العرب في إلحاق الألفاظ الأعجمية بلغتهم وهو التعريب . ونبحث بعد ذلك في الخصائص المعنوية للكلمة العربية وندرس إن اتسع المجال لذلك نماذج من الجملة العربية وبعض خصائص تركيبها ، ونحاول في كل أبحاثنا هذه في خصائص اللغة العربية أن نربط ما بينها وبين خصائص العرب أنفسهم وأن نجد الصلات والمشابهات والموافقات بين اللغة وأهلها في لين ومطاوعة دون تعسف أو تمحل .

ونختم أبحاثنا هذه بدراسة الأخطاء اللغوية الشائعة على أنها مظهر من المظاهر الباقية من آثار عصر الانحطاط أو من مظاهر التأثير الأجنبي في عصر الاستعمار .

وبهذه الطريقة التي نسلكها في أبحاثنا اللغوية يكون لهذه الأبحاث وحدة جامعة وناظم ينظمها في نسق واحد ويتم الربط بين نهضتنا اللغوية ونهضتنا العامة في سائر نواحيها ويتصل الوعي اللغوي في جميع مراحله بالوعي العام في سائر نواحي الحياة في كل مرحلة من مراحل تطوره .

وبهذه الطريقة تتضح لنا السبيل لحل ما يعترضنا من مشكلات اللغة في هذا العصر على نهج قويم وبصيرة من الأمر من غير زيغ ولا انحراف ولا تشويه حلاً يجمع بين الوفاء بحاجات الحياة الجديدة وأغراضها والحفاظ على خصائص العربية الأصيلة وسننها ونواميسها .

★ ★ ★

خصائص العربية

إن لـكل لغة طابعاً خاصاً وصفات تتصف بها سواء أكانت هذه الصفات صالحة تعين اللغة على بلوغ أغراض الحيـاة باستمرار أم كانت غير ذلك . وإن بين كل لغة وأصحابها تشابهاً وتوافقاً فقد نشأت معهم وتقلبت معهم على مر الأيام واختلاف صروفها وانعكس على مفرداتها وتراكيبها صورة مفاهيمهم وتصوراتهم وانبسطت مفرداتها على مَـدى الأفق الذي انبسطت فيـه تلك الأمة ضيقاً واتساعاً حتى تـكاد تعرف طبائع الأمة وخصالها في لحن كلامها ونبرات ألفاظها وجرس حديثها .

إن في أصواتِ حروف كل لغة صورة من الأصوات التى ألفها أصحابها في بيئتها القديمة التي نشأت فيها والأصوات التي كانت تتنادى بها فيها .

وتجمع مفرداتُ كل لغة معارفَ الأمة ومشاهدها ومشاعرها وتعطي صورة الكون كما تراءى لأهلهـا والمفاهيم الأخلاقيـة كما تمثلت لنفوسهم وفي تراكيب كل لغة صورة عن علاقة الأشياء بعضها ببعض في نظر أهل تلك اللغة .

لقد كانت اللغة العربية بوجه خاص تقع من حياة العرب ونفوسهم موقعاً لا تقع مثله لغة أخرى في حياة أصحابها ، فلقد كانوا أمة بيان وللكلام عندهم مكانة العمل لأن القول والعمل عندهم مقترنان لا ينفكان ومتقابلان لا يتفاضلان فليس القول صورة مجسمة ومكبرة عن العمل كما هي حال الأمم المغالية في الكلام ولا قاصراً عاجزاً عن تصويره كما هي حال الأمم البكيئة العاجزة في لسانها ، فلا غرابة بعد هذا في أن نجد الكثير من خصائص العرب وخصالهم في لغتهم .

وقد وقعت في خلال بحثي في اللغة العربية وأثناء استعراضي لجوانب الكلمة في أصواتها ، وفي بنيتها واشتقاقها ، وفي صيغتها وبنائها ، وفي مدلولها ومعناها على ملامح للعرب وللغتهم متشابهة وعلى مقابلات طريفة تلفت النظر وتدعو إلى التأمل والتفكير . ولم أفرض على نفسي حين بدأت رأياً مسبقاً أو فكرة ملتزمة لأتعسف بعد ذلك في تخيل علاقة غير موجودة أو صلة موهومة .

وسأعرض بعض خصائص اللغة العربية مشيراً في أثناء بحثي إلى هذه المشابهة بين العرب ولغتهم وإذا وفقت في ذلك أكون قد جعلت البحث اللغوي معيناً على توحيد الوعي الذاتي في نفوس أبناء الأمة العربية جاعلاً الوعي

اللغوي عنصراً من عناصره الممتزجة به امتزاجاً لا المضافـة إليه أو الملصقة به إضافة وإلصاقاً ، ويكون تجديـدنا اللغوي حينئذ كتجديدنا الفكري والاجتماعي صادراً عن روح أصيلة بريئاً من لوثة الدخيل سليماً من الانحراف، ويكون بناؤنا كله ومنه اللغوي بناء صحيحاً سليماً متيناً .

* * *

الخصائص الصوتية

إن الكلمة هي الوحدة الأساسية التي تتكون منها اللغة ، وهي التي تقابل المفهوم في ميدان التفكير ولكن الكلمة كالأجسام البسيطة التي يتألف منها الكون تتألف من عناصر هي الحروف أو الأصوات . ليس للحرف حياة مستقلة ولكنه هو العنصر الذي يدخل في تركيب الوحدة الحية المستقلة التي هي الكلمة وباختلاف تركيب الحروف تختلف الكلمات.ولنبدأ الحديث عن هذه الحروف أو الأصوات مفردة قبل تركيبها ،مجردة من مواضع تركيبها في الألفاظ .

إن أول ما يبدو من صفات الحروف العربية *توزعها في أوسع مدرج صوتي* عرفته اللغات . ذلك أن الحروف العربيه تتدرج وتتوزع في مخارجها ما بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى فتجد الفاء والباء والواو الساكنة ومخارجها من الشفتين من جانب والحاء والهاء والعين والهمزة ثم الغين والخاء على التدرج ومخارجها من الحلق أقصاه فأدناه من جانب آخر ، وتتوزع باقي الحروف العربية بينهما في هذا المدرج .

قد تجد في لغات أخرى غير العربية حروفاً أكثر عدداً ولكنها محصوره مخارجها في نطاق أضيق وفي مدرج أقصر، قد تجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين وما والاهما من الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنة أو تجدها متزاحمة في جهة الحلق ، وفي كلا الحالين ضيق في الأفق الصوتي واختلال في الميزان الصوتي وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الحروف .

تمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها ، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي الى التوازن والانسجام بين الأصوات . أضف إلى هذا أن العرب يراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي وقد انتبه إلى ذلك السلف من علماء اللغة واستخرجوا بعض هذه القواعد الصوتية التي راعاها العرب في تأليف الألفاظ من الحروف وذلك كتجنبهم جمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال ؛ والجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد [1] ؛ والحاء مع الهاء ،والهاء قبل العين، والخاء قبل الهاء، والنون قبل الراء،واللام قبل الشين . وتنبه إلى ذلك العبقري اللغوي ابن جني فقال في الخصائص : « أما

---

(١) انتبه إلى ذلك الجاحظ وذكره في البيان والتبيين .

إهمال ما أهمل مما تحتمله قسمة التركيب في بعض الأصول المتصورة أو المستعملة فأكثره متروك للاستثقال وبقيه ملحقة به ومقفاة على أثره فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه نحو سص وصس وطت وتط وضش وشص لنفور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلفه وكذلك قج وجق وكق وقك وكج وجك وكذلك حروف الحلق هي من الائتلاف أبعد لتقارب مخارجها من معظم الحروف أعني حروف الفم وإن جمع بين اثنين منها يقدم الأقوى على الأضعف نحو أهل وأحد وأخ وعهد وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما إلا بتقديم الأقوى منهما.

ومن الخصائص الصوتية للكلمة العربية ثبات اصوات الحروف على مدى العصور والأجيال توفيراً للجهد ودلالة على الاتصال بين أجيال الأمة العربية وتعبيراً عن الثبات والخلود فيما لا يوجب تقلبُ الأيام وتبدل الحياة تغييرَه.

لا شك في أن أصوات الحروف العربية كما نلفظها فى لغتنا الفصحى وكما يقرأ بها القرآن لم تتغير ولم تتبدل منذ أربعة عشر قرناً على الأقل أو منذ العصر الجاهلي الذي أعقبه ظهور الإسلام، ولم يعرف مثل هذا الثبات في حروف لغة من لغات العالم في مثل هذا اليقين والجزم. لقد عني قراء القرآن منذ العصر الأول حتى يومنا هذا عناية دقيقة شديدة في نطق الألفاظ وضبط

الحروف في مخارجها وصفاتها وطريقة إخراجها والنطق بها ولذلك تجد أصوات الحروف في اللغة الفصحى واحدة في جميع الأقطار العربية على اختلاف لهجاتها العامية وعلى ما اعترى حروفها من تشويه في لغتها العامية أحياناً فقد استمر نطق الحروف العربية كما يلفظها قراء القرآن من غير تبديل ولا تغيير خلال هذه القرون الطويلة .ولو ذهبت إلى البادية في الجزيرة العربية والشام والعراق لسمعت من أهلها اللفظ الفصيح للحروف العربية المطابق لما يعهده قراء القرآن المجودون .

حتى إن التشويه الذي طرأ على لفظ الحروف العربية في اللهجات العامية محدود وقليل وذلك محصور في الحروف اللثوية الثلاثة وهي الثاء التي قلبت تاء والذال التي قلبت دالاً أو زاياً والظاء التي قلبت طاء أو زاياً معجمة وكذلك قلب القاف همزة بتفخيم أو دونه والجيم إذ تنطق في مصر كما ينطق حرف (g) بالفرنسية وتقترب من مخرج القاف أو يخفف من شدتها وتعطيشها فتقترب من مخرج الشين وقلب الضاد ظاء . وهذه التغييرات التي ذكرناها مفرقة في البلاد العربية لا تجتمع كلها في بلد واحد ولا تزال مع ذلك بعض البلاد العربية سليمة النطق لم يعتر حروفها تبديل وهذا كله بالنسبه إلى العامية وأما الفصحى فينطقها جميع أبناء العرب صحيحة

دون تغيير وبها يقرؤون القرآن . ونضيف إلى هذا أنه قد بدأ تبدل واضح في أكثر هذه البلاد العربية يتجه نحو تصحيح النطق وذلك بسبب الإذاعات الموجهة بالفصحى وانتشار التعليم .

ومن هنا يتبين خطأ من يقول إن تبدل أصوات الحروف في جميع اللغات حتمي . ومنشأ هذا الخطأ أن الذين استنتجوا هذا القانون من علماء اللغات في أوربا إنما نظروا في ذلك إلى لغاتهم وهي كثيرة التبدل خلال العصور وفي فترات كثيرة من تاريخها فزعموا أن الحروف لا بد أن تزحزح عن مخارجها قليلاً في كل جيل حتى إذا توالت الأجيال وتعاقبت السنون ازداد بعدها عن مخارجها الأصلية فتغيرت تغيراً واضحاً . ولا ينطبق ذلك على اللغة العربية لسببين أحدهما ما عند العرب في أصل فطرتهم من ميل إلى المحافظة على ما لا موجب لتغييره في حياتهم وعلى ما يعتزون بالمحافظة عليه وذلك كحفظهم لأنسابهم ومكارمهم . وثانيهما أن القرآن هو كتاب العربية الخالد الذي اجتمع عليه العرب وتناقلوه جيلاً بعد جيل ولا يجوز أن يغير فيه حرف أو حركة لأنه كتاب الله المنزل على رسوله يقرؤه المصلون خمس مرات كل يوم سراً وجهراً جماعة وفرادى .

مراتب الحروف وأنواعها :

ليست الحروف في العربية بمنزلة واحدة من حيث مكانتها في تركيب الكلم ومنزلتها في بنائها ودرجة ثباتها واستقرارها فيها .

فالحروف الصائتة — وهي كل ما عدا حروف المد من الحروف — أثبت وأقوى وأبقى على اختلاف أحوال الكلمة وتصرفاتها وصيغها ، ومنها تتكون حروف الكلمة الأصلية الثابتة التي تدور معها أنى دارت وتثبت أنى تقلبت هي فيها عنصر الثبات والاستقرار وهي التي تثبت أصل المعنى في المادة اللغوية بثباتها هذا .

وأما حروف المد فهي أضعف وأقل ثباتاً واستقراراً وهي العنصر الذي يستعان به على تنويع الأصل الواحد والمادة الواحدة ، فاضافة الألف في عالم والياء في عليم والواو في صبور لم تغير مادة الكلمة ولا أصل المعنى وهو العلم والصبر ولكنها كانت وسيلة لتنويع المعنى الواحد والأصل الواحد وتلك هي (وظيفتها الفكرية أو المعنوية) أعني تقليب المعنى العام الكلي في صور خاصة متنوعة . وأما القول بأن حروف المد قد تكون حروفاً أصلية في الكلمة كالواو في قال ووعد وجفا والياء في باع ورمى فيجاب عليه أنه في هذه الحال معرض للحذف في كثير من تصاريف الكلمة خلافاً

لسائر الحروف كقولك عده وقلت وبعت ورمت ولذلك اعتبر النحاة هذه الألفاظ معتلة لما أصابها من ضعف في تركيبها بسبب هذه الحروف الضعيفة المعرضة للحذف [١] .

ومثل حروف المد من الناحية الصوتية ومن ناحية الوظيفة الحركات المقابلة لها فهي حروف مد قصيرة واختلافها كذلك لا يؤدي إلى اختلاف في أصل المعنى الذي تعطيه مادة الكلمة الثابتة المكونة من حروفها الصائتة الثلاثةوإنما يؤدي كذلك إلى تنوعات للمعنى الوحد وملابسات مختلفة له وذلك كقولنا : عَلم وعُلم وعِلم وشَرود وشُرود ومكرِم ومكرَم . فوظيفة الحركات كالمدود من الناحية المعنوية لتنويع المعنى مع ثبات أصله وتبديل الصيغة مع ثبات أصل مادتها. نضيف إلى ذلك استعمالها في أواخر الكلم للدلالة على وظيفتها في تركيب الجملة وعلى صلتها ببقية الكلمات المجاورة لهافيها وذلك هو الإعراب .

---

(١) ولا يمنع هـذا كذلك من ملاحظة أن بعض الحروف الصائتة لخاصة صوتية فيها استعملت كذلك لتنويع المعنى وتقليب الصيغ بالاضافة إلى استعمالها حروفاً أصلية في الألفاظ وهذه الحروف هي بقية حروف سألتمونيها أي الـ (م) و (ن) وهما حرفا غنة والـ (ل) و(ر) هما حرفا ذلاقة . والـ (س) و (ت) وهما حرفا همس والهمزة .

ولما قدمنا من غلبة إثبات على الحروف الصائتة والتبدل والحركة على حروف المد والحركات كان أكثر اختلاف اللهجات العربية قديماً وحديثاً اختلافاً في المد والحركات لا في الحروف الصائتة الأصلية . فقد كان اختلاف اللهجات في القبائل العربية قديماً اختلافاً في الإمالة والإشمام والمد والحركات في غالب الأحوال أكثر من أن يكون اختلافاً في أصل الألفاظ وإن كان هذا واقعاً أيضاً ولذلك كان اختلاف القراءات المنقولة في القرآن ولا سيما السبع منها اختلافاً في الأصوات الهوائيةمن مدود وحركات وإمالات ومن النادر تبديل لفظ بلفظ .

وكذلك الخلاف في اللهجات العامية في العصر الحاضر يرجع الكثير منه إلى نبرة الكلامومو سيقاه الناشئة عن تغير المدود والحركات إطالةوتقصيراً وسرعة وبطأ .

أضيف إلى ما تقدم من الوظيفة المعنوية للحروف الهوائية أي حروف المد والحركات وظيفة فنية صوتية أو وظيفة موسيقية فان هذه الحروف هي التي تفسح المجال لتنوع النغمة الموسيقيةللكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة لسعة امكانياتها الصوتية ومرونتها ، وتقاربها من هذه الناحية بقية حروف الزيادة المجموعة في (من سألته) لخصائصها الصوتية المواتية .

يبدو لنا مما تقدم أن للحروف الصائتة قيمة خاصة وأثراً كبيراً في تثبيتها أصول المعاني وكلياتها وفي تثبيت الألفاظ وموادها ولذلك كان ثباتها على مر العصور سبباً لاستمرار اللغة العربيـة وبقائها واتصال أجيـال العرب بعضهم ببعض خلال القرون وأن ثباتها هذا لم يحل دون التجديد المستمر والتنويع في المعاني والدقة في الفروق بين المفردات وأن حروف المد لا تعادلهـا في ذلك بل إن وظيفتها التبديل والتغيير للتنويع والتجديد ومن أجل هذا حرص العرب في رسم لغتهم وكتابة ألفاظهم على كتابة الأحرف الصائتة أكثر من حرصهم على كتابة حروف المد والحركات. وكان حرصهم على حروف المد في الكتابة أكثر من حرصهم على الحركات لأنها دونها كذلك في المرتبة .

ومن هـذا يتبين أن بين طريقة الكتابة ورسم الألفاظ في اللغة العربيـة وخصائص الحروف والحركات ووظائفها تناسباً وتوافقاً وأن الدعوة إلى كتابة العربية بالأحرف والطريقة اللاتينية أي بتثبيت جميع الأصوات من مـدود وحركات وحروف صائتة تنطوي على غفلة شديـدة عن هذا الأصل الذي بنيت عليه طريقة الكتابة العربية في مراعاة خصائص تركيبها ووظيفة الحروف

في هذا التركيب وصفاتها ومراتبها كما سيتبين لنا ذلك في المقارنة التي سنوردها والموازنة بين العربية وغيرها من اللغات من هذا الوجه .

مقارنة وموازنة :

أما اللغات اللاتينية وهي من اللغات الهندية الأوربية فليس بين أنواع حروفها مثل هذه الفروق التي ذكرت في العربية ، فالحروف الصائتة ليست ثابتة ولا فرق في ذلك بين حروف أصلية وزائدة فكلها معرضة خلال التطور أو في التصريف للحذف والتبديل ، ولو اشتركت كلمتان في جميع الحروف الصائتة لما كان ذلك دليلاً على أي اشتراك بينها في المعنى . ومثال ذلك في الفرنسية : ivre (سكران) و oeuvre (أثر أو تأليف) و ouvre (il) فتح ومثلها livre (كتاب) و lévre (شفة) وكذلك : pli (ثنية) ، plat (مسطح مستوى) و plus (أكثر) و pleut (il) ينزل المطر . فحروف المد في هذه الأمثلة وهي كثيرة لا تحصى في الفرنسية هي السبب في اختلاف المعنى واختلاف أصل اللفظ كذلك . وعلى العكس من ذلك قد تختلف الحروف الصائتة في عدة ألفاظ وتكون مع ذلك من أصل واحد وذلك ناشىء عن تقلبها وتبدلها على مر السنين، ومثال ذلك Chévre و Caprice و Chétif و Capter وكذلك Oreille (أذن) و auditif (سمعي) . إن المتأمل الباحث في اللغات

اللاتينية يجد أن لا فرق بين حروف المد وغيرها سواء من جهة تبدلها وعدم استقرارها أم من جهة دلالتها ووظيفتها في تركيب الكلمة وليس في مفردات هذه اللغات عدد من الحروف الثابتة فقد تتغير كلها أو أكثرها في تصاريف الكلمة ومشتقاتها أو تحذف ، وقد تتغير أصواتها على مر السنين والأعوام ، وقد يقع هذا التغير في بعض مفردات المادة دون بعضها الآخر فتنفك الصلة بينها فالشين في كلمة Cheval (حصان) كانت كافاً في الأصل وانقلبت إلى شين في بعض الألفاظ وبقيت كافاً في بعض مشتقات الكلمة مثل Cavalier (فارس) .

ولذلك كانت طريقة الكتابة في هذه اللغات اللاتينية متناسبة معها ، وكانت هذه اللغات من جهة أخرى فاقدة لعنصر الثبات والاستقرار .

الوظيفة البيانية والقيمة التعبيرية للحروف في اللغة العربية [١]

لاحظ بعض الباحثين قديماً وحديثاً أن اشتراك كلمات في حرفين من الحروف الأصلية يفيد اشتراكها في شيء من المعنى أو في معنى عام جامع لمعانيها مثل جمع وجمل وجمد وجمر ففيها كلها معنى الجمع ومثلها كسر وكسف.

---

(١) انظر ص : ١٠١ من هذا الكتاب .

ثم أمعنوا النظر في تتبع الحرف الواحد في الألفاظ فوقعوا على عدد من الأمثلة يبدو فيها معنى عام مشترك في الألفاظ التي تشترك بينها في حرف واحد كافادة الراء معنى الاستمرار والتكرار في مر وجر ودر ورعي ورقي وغرف وإفادة الغين معنى الاستتار في غار وغاص وغاض وغمض وغمر وغفر وغيم وغطى ، وإفادة القاف معنى الشدة والانفصال أو الاصطدام في مثل قد وقط وقتل وقطع وقطف وقصل ودق وطق وشق وفرق وقلق ونقر ونقف .

وقد نبه ابن جني في مواطن كثيرة وأبواب متعددة من كتابه الخصائص إلى التقابل بين المعاني والحروف في الكلمات وعقد فصلاً عنوانه (في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) وفصلاً آخر بعنوان (في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) وتكلم في هذا الموضوع كلاماً يفهم منه تعميم هذه النظرة في اللغة واطراد القول في التقابل بين كل صوت في الكلمة وجزء من أجزاء معناها بحيث أن المعنى العام للكلمة ناشيء عن اجتماع معاني الحروف المركبة لها ويأتي ابن جني بأمثلة يدل بها على صحة نظرته مثل (بحث) و(شد)و(جر)[1] وأشار كذلك إلى التقابل بين صفة الصوت أو الحرف وصفة الحدث

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٥٥٥ و ج ٢ ص ١٦٣ و ص ١٥٧ .

فالحرف الشديد للحدث الشديد كالقاف والحرف اللين الناعم للأشياء والأحداث الرقيقة الناعمة كالسين والخاء كحروف خلس وسكن . وأراد بعضهم المقابلة بين ترتيب أجزاء الحدث وترتيب مخارج الحروف في الكلمة فكلمة خرج تبدأ من الحلق صاعدة نحو الفم دلالة على الخروج وكلمة دخل على عكسها تبدأ بالدال ومخرجها في أول الفم ثم تأتي الخاء ومخرجها في الحلق فالفعل يتجه من الخارج إلى الداخل .

ونرى أن ثمة أمثلة كثيرة في العربية تدل على التناسب الصوتي والتقابل الموسيقي في تركيب الكلمات وحروفها ولكن هذه الملاحظات والأمثلة التي أوردها بعض اللغويين قديماً وحديثاً لا تكفي لإقامة نظرة عامة واستنباط قانون عام قبل توسيع أفق الملاحظة والاستقراء ، وهي على كل حال تدل على ما في اللغة العربية من الخصائص الموسيقية في تركيب كلماتها وعلى ما بينها وبين الطبيعة من تقابل صوتي وتوافق في الجرس وذلك أول دليل تقدمه لنا العربية من خاصتها الطبيعية وعلى أنها بنت الفطرة والطبيعة . ونستطيع أن نقول في غير تردد ان للحرف في اللغة العربية ايحاء خاصاً فهو ان لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وايحاء ويثير في النفس جواً يهيء لقبول المعنى ويوجه اليه ويوحي به .

ولهذا كان المجال في العربية واسعاً لاستثمار الأدباء لهذه الخاصة الموسيقية في أدبهم أكثر من أي لغة أخرى . ويتفق فيها للفنان ما لا يتفق في لغة غيرها من الموازنة بين جرس الكلمات ونغمة المفردات من جهة والأحداث المصورة أو الأفكار المعبر عنها فاذا استمعت إلى إنشاد بيت البحتري في وصف الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد ظننته أمامك :

يقضقض عصلا في أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البرد

فان تكرر القاف وتواليها خمس مرات وتكرر الراء ست مرات مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه وارتجافه .

ونلاحظ هذه الخاصة الفنية في التقابل بين جرس الحروف ومعاني الكلام في أكمل أشكالها وأجلى مظاهرها في كتاب الله المعجز كقوله تعالى في خطاب أهل الجنة (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) وقوله تعالى في وصف النار (إنها لظى نزّاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى) واستمع إلى قوله في وصف الليل وبدء طلوع الصبح (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) وانتبه إلى جرس كلمة بعثر في قوله تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) .

خلاصة :

تلك هي خصائص العربية في حروفها وأصواتها ، فهي واسعة الأفق كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج، متميزة المخارج والصفات ، ثابتة الأصوات عبر القرون يتوارثها جيل بعد جيل ، متنوعة الوظائف . في بنية الكلمة لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى وتثبيت أصله وتنويع شكله وألوانه مع تناسب بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة .

خصائص الكلمة العربية

الخاصة الاشتقاقية أو خصائص التركيب العضوي[١]

إن الكلمات في اللغة العربية لا تعيش فرادى منعزلات بل مجتمعات مشتركات كما يعيش العرب في أسر وقبائل . وإذا كان بين أفراد القبيلة الواحدة عند العرب روابط مشتركة تربطها وتصل بينها ، ونسب محفوظ تلتقي عنده ، ومعان يجتمعون عليها ، ومكارم يتوارثونها فان بين مفردات لغتهم من الاشتراك كذلك ما بين أفرادهم .

إن لكل كلمة جسماً وروحاً فجسمها هو المادة الصوتية التي تتألف منها والشكل الذي تجمل فيه تلك المادة أو البناء الذي تبنى عليه وروحها هو معناها وما تفيده وتدل عليه مادتها .

ولكل كلمة مفردات من نوعها ومثيلات من نسبها تلتقي معها في مادتها ومعناها فكلمة (قطع) مثلاً مع تصاريفها الفعلية ومشتقاتها الاسمية هي

---

(١) انظر ص ٦٩ وما بعدها من هذا الكتاب .

والأفعال المشتقة منها (أقطع وقطع وقاطع وتقطع وتقاطع وانقطع واقتطع واستقطع) وتصاريفها ومشتقاتها ومصادرها ومصغرات أسمائها وغيرها تزيد على مئة وخمسين كلمة . ولو أخذنا كلمة علم ونفع وغاب أو أي أصل من الأصول لوجدنا أنه يندرج تحته عدد كبير من الكلمات تتفاوت قلة وكثرة . فما هو الجامع بين مفردات كل مجموعة من مجموعات الألفاظ وما الرابط بينها إن كان ثمة جامع أو رابط ؟

إن مفردات اللغة العربية تتكون من مجموعات كثيرة وكل مجموعة منها ترجع إلى أصل واحد وتشترك في جزء من حروفها وجزء من معناها .

١ — إنها تشترك في مقدار من حروفها وجزء من أصواتها وهي الحروف أو الأصوات الأصلية التي تحافظ عليها ولا تغيرها ، وهذه الحروف الثابتة في تركيبها والثابتة في ذاتها صوتياً لعدم تبدل الأصوات في العربية كما قدمنا تكون عنوان نسبها ودليل ارتباطها بأصلها واشتراكها مع أخواتها وأبناء عشيرتها . إنها كالملامح المشتركة بين أفراد القبيلة والسمات المتشابهة التي كان يعرفها القائف ويستدل منها على وحدة النسب . إن الرابطة الاشتقاقية في ألفاظ العربية كالرابطة النسبية في أفراد العرب ، وكما حافظ العرب على أنسابهم وعرفوا بها حافظت مفردات لغتهم كذلك على نسبها ودلت عليه .

ولذلك لم تضع الرابطة الاشتقاقية بين الألفاظ العربية على اختلاف عصورها وتاريخ ميلادها وعلى اختلاف بيئاتها ومساكنها فكلمة (طائرة) و (سيارة) و (هاتف) و (اشتراكية) ولدت في هذا العصر ومع ذلك فان كل عربي يعلم أنها من نسب واحد هي وألفاظ (طائر) و (مسير) و (هاتف الجن) و (شرك) مع أن بين ميلاد تلك الألفاظ وقريباتها هذه مدة قد تزيد على خمسة عشر قرناً .

وكذلك عاشت كلمة (نتيجة) عند المناطقة و(الجر) عند النحاةو(الوجد) عند الصوفية ولكنها لم تخف قرابتها من (نُتِجت الناقة) و (جر الفرس) و (وجد الشعراء) المعروفة في بيئة البادية . ذلك أن ألفاظ العربية تحافظ على أنسابها وتحتفظ في مادة تركيبها بما يدل عليها وهي الحروف الأصلية الثابتة وهي في غالب الأحوال ثلاثة .

٢ — وتشترك الألفاظ المنتسبة إلى أصل واحد في قدر من المعنى وهو معنى المادة الأصلية العام كالطيران في طائر وطائرة والسير في سيارة وتسير والاشتراك في الشرك والاشتراكية ويقابل هذا المعنى المتداول المتوارث المنقول من كلمة إلى كلمة من الكلمات المشتقة من أصل واحد مكارم العرب وخصالهم وصفاتهم المعنوية التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل فكما أن لكل

قبيلة مكارم وخصالاً طيبة يجتمعون عليها ويتوارثها أبناؤهم فللألفاظ المنتمية إلى أصل واحد كذلك معنى مشترك تلتقي عنده وتتوارثه جميع الألفاظ المتولدة عنه .

وليست وحدة الأصل والاشتراك في جزء من مادة التركيب وفي جزء من المعنى بمانعة من التنوع والكثرة فان الألفاظ المنتسبة إلى مادة واحدة أو أصل واحد تتكاثر وتتوالد وتختلف في أشكالها وصورها كما تختلف في معانيها المحدودة ودلالاتها الخاصة . فان لفظ عالم ومعلوم ومستعلم وعلامة وإن رجعت إلى مادة واحدة وأصل مشترك تلتقي عنده في وضوح واستعلان تختلف في صورها وأشكالها وطريقة بنائها بل في نغمتها ووزنها كما تختلف في المعنى الخاص الذي تتضمنه كل كلمة منها . وسنبحث في (الاختلاف والتنوع) في اللغة العربية كما بحثنا في (الاشتراك ووحدة الأصل) وفي (ذاتية) المفردات العربية الناشئة عن حياة الكلمة وتقلبها في البيئات والعصور .

موازنة :

ولو نظرنا إلى بعض اللغات الأخرى كاللغات اللاتينية لوجدنا أن الفردية غالبة عليها وأن الأصول المشتركة قد ضاعت والملامح المتشابهة قد زالت

وذلك لفقدان العنصر الثابت حتى لا يبقى من الحروف الأصلية إلا حرف أو حرفان لا تدل على الاشتراك وقد لا يبقى منها شيء مطلقاً إما لزوالها في تقلب الكلمة في تصاريفها وإما لتطور أصوات الحروف تطوراً أبعدها عن أصلها . وقد ينشأ الاختلاف بين الألفاظ الدالة على نوع واحد من المعاني العامة لاختلاف الأصول التي ترجع إليها وتعددها ولنضرب لذلك أمثلة من اللغة الفرنسية . إن الكلمات العربية : كِتاب ومكتبة ومكتب وكاتب وكتب يقابلها في الفرنسية : livre و bibliothèque (مكتبة عامة) و librairie (محل بيع الكتب) و bureau و écrivain و écrire ومن هذا القبيل كلمة aveugle : أعمى تجد إلى جانبها كلمة cécité : العمى وهي مختلفة عنها في اللفظ اختلافاً تاماً . ومن أغرب الأمثلة في هذا الباب أن كلمة أخ وأخت اللتين تجدهما في مادة (أخ و) في المعاجم العربية تجدهما في الفرنسية مختلفتين لا رابطة بينهما فهما frère و sœur وكذلك في الانكليزية brother و sister والابن والبنت في العربية من مادة (ب ن و) وأما في الانكليزية فهما son و daugther وكذلك العم والعمة مختلفان والخال والخالة في حين أن العم والخال تدل عليهما كلمة واحدة هي في الفرنسية oncle ولا بد لازالة الالتباس بينهما من إضافة كلمة أخرى ومثلها العمة والخالة .

والأمثلة على ذلك في الفرنسية كثيرة لا تحصى لأن الفردية وضياع الأصل المشترك هي القاعدة العامة فالروابط الاشتقاقية تفككت كما تفككت في المدنية الحديثة روابط الأسرة وتقطعت الأرحام. واتفاق اللفظ لا يدل على الاشتراك في الأصل أو في المعنى فكلمة louer تفيد في الفرنسية معنى مدح وأجّر وترجع إلى أصلين مختلفين في اللاتينية هما laudare (المدح) و laucare (التأجير) وقد تطورا صوتياً وانتهيا إلى شكل واحد وأما اتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى في حالة اختلاف رسم الألفاظ فكثير جداً ومثال ذلك ألفاظ vert (أخضر) و vers دودة و vers نَحْو. وقد تختلف الألفاظ اختلافاً كبيراً أو كاملاً في حروفها وأصواتها وتكون مع ذلك من أصل واحد سواء حافظت على المعنى الأصلي أم أضاعته أيضاً وذلك مثل noble بمعنى الشريف والنبيل وأصل معناها المعروف و connaître المعرفة. ومثل fable ومعناها الحكاية والقصة التي تروى عن الحيوانات enfant ومعناها الولد وأصل معناها العاجز عن الكلام. فالألفاظ الفرنسية كسائر اللغات الأوربية لا تحافظ على الأصل من جهة الحروف والأصوات ولا على المعنى وبذلك قد تنعدم الصلة بين الألفاظ التي ترجع إلى أصل واحد انعداماً تاماً وتفقد الصلة بينها فلا يعرفها إلا الباحثون المختصون.

خلاصة ونتيجة :

يتجلى لنا من هذه النظرة التي ألقيناها على بناء الكلمة في اللغة العربية والروابط التي تصل بين مفردات العربية ومن مقارنتها باللغات الأخرى أن للغة العربية من هذه الناحية خصائص تمتاز بها من أبرزها وأجلها :

١ — استمرار معالم اللغة العربية استمراراً يتجلى في ثبات أصول الألفاظ ومحافظتها على روابطها الاشتقاقية وهو يقابل استمرار الشخصية العربية خلال العصور .

فالحفاظ على الأصل واتصال الشخصية واستمرارها صفة يتصف بها العرب كما تتصف بها لغتهم .

٢ — إن اشتراك الألفاظ المنتمية إلى أصل واحد في أصل المعنى وفي قدر عام منه يسري في جميع مشتقات الأصل الواحد مهما اختلف العصر أو البيئة يقابله توارث العرب لمكارم الأخلاق والمثل الخلقية والقيم المعنوية جيلاً بعد جيل .

٣ — أن العنصر الثابت المتوارث من اللغة ، والمكون من جزء مادي هو الحروف الثابتة في مادة الكلمة وجزء معنوي هو معناها العام ، هو أداة

الارتباط ووسيلة الاتصال بين أجيال الأمة العربيـة المتعاقبين على الزمن وسر من أسرار خلود العربية وهو يقابل ما يرثه العربي مادياً من المال الموروث وهو التليد أو التالد وما يرثه من الشرف الموروث ومكارم الأخلاق ومحامدها من الناحية المعنوية.

وهذا العنصر الثابت في اللغة العربية جعل لها أثراً كبيراً في تكوين أبنائهم وفي اتصال أجيالهم واجتماعهم على أمر جامع مشترك .

٤ — لهذه الخاصـة في اللغة العربية قيمة تربوية تعليميـة عظيمة فان معرفة بضع كلمات من المجموعـة أو الأسرة الواحدة تمكن المتعلم من معرفة سائر أفرادها معرفـة إجمالية لما بينهـا من حروف مشتركة وبذلك يحفظ الجهد ويوفر الوقت . فالروابط الاشتقاقيـة نوع من التصنيف للمعـاني في كلياتها وعمومياتها تعلم المنطق وتربط أسماء الأشياء المرتبطـة في أصلها وطبيعتها برباط واحد .

٥ — إن الروابط الاشتقاقية بين الألفاظ توحى بفكرة الجماعة وتعاونهـا وتضامنها في النفوس عن طريق اللغة .

٦ — إن الخاصة الاشتقاقية في اللغة العربية تهدينا إلى معرفة كثير من مفاهيم العرب ونظراتهم إلى الوجود وعاداتهم القديمة . فالسكن عندهم مكان

للسكينـة والعقل ليس هو الإدراك الفكري فحسب بل هو الذي يعقـل صاحبـه عن الشر ، والشريف مشتق من الشرف وهو الارتفاع فهو المرتفـع على النـاس بأخلاقه ومكارمه في حين أن كلمة noble الفرنسية معناهـا في الأصل المعروف المشهور ، والجار هو من تحميه القبيلة وتمنـع عنه الجور والظلم ، والمرء والمرأة وتـدلان على أن الرجل والمرأة من أصل واحـد ومنها المروءة .

٧ — والخاصة الاشتقاقية بثباتها على الزمن ووضوح علامتها تمكن من تمييز الدخيل الغريب من الأصيل فاذا لم يكن للكلمة أي صلة معنوية بالمادة الاشتقاقية فهي غريبة ملحقة . على أنه يجب الاحتياط في الحكم إذ أن بعض الكلمات قد تتطور في معناها تطوراً يبعدها عن الأصل بعداً يخيل معه للمرء انقطاعها وانفرادها . إن كلمة إقليد بمعنى مفتاح وجمعها مقاليد موضوعة في مادة (ق ل د) ولكن لا علاقة لها بالقلادة والتقليد وهي مأخوذة من اليونانية وكذلك فردوس وكوب وإستبرق مثلا .

الصلة بين المواد المختلفة :

إن بين مختلف مواد الألفاظ في العربية تشابها من حيث طريقة تكوينها

وتركيبها وتقلبها وتصرفها وتوليدها واشتقاقها فكلها من حيث الأصل وفي الغالب تتألف من حروف ثلاثة أصلية ثم توضع في صيغ وقوالب متماثلة ويتولد منها ألفاظ كذلك على نمط واحد . ولكن ثمة تشابهاً أو تقارباً في بعض الأحيان يزيد على ذلك فقد يكون بين بعض مواد الألفاظ المختلفة ما بين بعض القبائل المختلفة من نسب بعدُ عهدُه وقرابة بقيت ذكراها وبعض آثارها . ذلك أن اللغويين لاحظوا أن بعض المواد التي تشترك في حرفين وتختلف في الثالث تشترك في المعنى كذلك بمقدار ما اشتركت في الحروف والأصوات وذلك مثل : غمر وغمس وغمض وغمّ ففيها كلها معنى الإخفاء والستر . ومثل : نفث نفخ ونفد ونفر ونفس ونفق ونفى وفيها معنى الخروج ومثل : ماد وماج ومار وماس ومال وفيها كلها معنى الميل والحركة . ولذلك أمثلة كثيرة وقد لاحظ أسلافنا من اللغويين هذه الظاهرة واعتبروا أن هذه المجموعات التي تشترك ببعض الحروف مشتق بعضها من بعض في الأصل وسموا هذا الباب الاشتقاق الأكبر وسماه ابن جني الاشتقاق الكبير وهو الأرجح والأولى[1] . وإذا استمر الباحث المتأمل في العربية في هذا

---

(١) انظر ص ٨٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

للباب وجد أن الاشتراك في حرف واحد بين مجموعات الألفاظ أو المواد كثيراً ما يؤدي إلى الاشتراك كذلك في جزء من المعنى أي في معنى يعم هذه المجموعات وذلك كدلالة المواد نبع ونشأ ونجم ونطق ونفث على الظهور والخروج وكلها مبتدأة بنون، وكدلالة المواد قد وقط وقطع ودق وشق وفرق ونقر وفقأ على معنى الضرب أو القطع أو الصدم الشديد وكلها محتوية على حرف القاف وكدلالة غاب وغار وغاص ... وغبر وغبش ... وغفر وغفل...وغمر وغمس ... وغرس وغرف وغرق وغرز ... وغشى وغط وغطى وغدر ... على الاختفاء والتغطية[1] .

ومن ملاحظة هذه الظواهر والتدقيق في هذه الخفايا في تركيب الكلمات العربية يبدو أن الألفاظ العربية والمواد التي هي أصولها ليست إلا تنوعات مختلفة ناشئة من مواد أصلية واحدة هي الحروف أو الأصوات المفردة وهي للألفاظ العربية بمنزلة الذرات الأولية للأجسام وإنما تختلف الأجسام باختلاف تكوينها وتركيبها الذري وكذلك الألفاظ العربية فهي أجناس وأنواع مستمرة في وجودها وفي أداء وظيفتها من غير تبديل في الأساس تتميز باختلاف تركيبها الصوتي . وتركيبها واختلافها في هذا التركيب

(١) انظر ص ١٠١ وما بعدها من هذا الكتاب .

يجري على نظام مطرد وفي اتجاهات محددة ويكون علاقات ثابتة . وليس في اللغات الأخرى ما يشبه العربية أو يقاربها من هذه الناحية فليس للألفاظ ثبات في تركيبها وليس لها بنتيجة ذلك استمرار في وجودها ولا استقرار في علاقاتها فتركيب الألفاظ العربية أشبه ما يكون بتركيب الأجسام في الطبيعة . وهذا التركيب الذري للكلمات العربية والانتماء إلى أصول ثابتة تتفرع عنها هو الأساس الصحيح الذي بنى عليه اللغويون العرب معاجم اللغة وهو يدل على تحليل عميق للغة العربية وفهم دقيق لأسرارها وبنيانها وأما وضع المعاجم على أساس الترتيب الأبجدي المتسلسل من غير مراعاة الأصل الاشتقاقي فهو وإن كان أيسر على المبتدئين غير متفق مع خصائص العربية الأصيلة .

* * *

خصائص الكلمة العربية

الشكل والهيئة أو البناء والصيغة(١)

إن انتساب أفراد القبيلة العربية إلى أصل واحد وكذلك انتساب القبائل إلى أرومة واحدة لم يحل دون تنوع الأفراد في أشكالهم وصفاتهم ولم يمنع تشابه الملامح من تنوعها في الأفراد ولا الاشتراك في الخصال من تفاوتها فيهم . والارتباط بالأصل من جهة النسب والاشتراك في بعض ملامح الجسم وخصال النفس لم يناف التكاثر والتوالد والارتباط بالفروع الآتية والأجيال المتوالية . وكذلك كانت لغة العرب فان ما وجدناه في ألفاظها من ترابط وانتماء إلى أصول مشتركة لم يمنعها من التوالد المستمر والتنوع الرائع والانتشار في آفاق الحياة للتعبير عنها انتشاراً يشبه خروج العرب وانتشارهم في آفاق الأرض يؤدون فيها رسالة الحياة وأمانة الله .

إن طريقة اللغة العربية في هذا التوالد والتنوع تقوم على اتحاد قوالب

---

(١) راجع بحث الأبنية والأوزان ص ١١٢ من هذا الكتاب .

للمعاني تصب فيها الألفاظ وهياكل تبنى على هيئتها مواد الكلمات فتختلف حينئذ في الوظيفة التي تؤديها وعلى ذلك فان هذه الألفاظ : الناظر والمنظور والمنظر والألفاظ سلم واستسلم وسالم والألفاظ يعلم ونعلم وعالمات وعالمون تختلف مفردات كل مجموعة منها في مدلولها مع اتفاقها في أصل المفهوم العام الذي هو النظر والسلم والعلم .

إن لكل قالب من هذه القوالب دلالة يدل عليها مهما كانت المادة التي توضع فيها فالكلمات عالم وناظر وسالم فيها معنى الفاعلية والألفاظ ممنوع ومقطوع ومقبول فيها معنى المفعولية وتنافس وتعاون وتساند تتضمن معنى التعدد والاشتراك والألفاظ قلامة وبراية ونحاتة ونفاية وثمالة تدل على البقايا، وبهذه الطريقة يبدو لنا في العربية تصنيف جديد للألفاظ لا على أساس مادتها بل أساس بنائها وهيئتها ونماذج أشكالها فنضع على هذا الأساس مثل رافع وقائل وكاتب وسامع وآخذ في صنف واحد ونضع مثل مستعلم ومستخرج ومستغفر ومستنفر ومستنصر في صنف واحد ونجعل الألفاظ لباس وإناء وحزام ووعاء وبساط في نسق واحد . ذلك أن ألفاظ كل مجموعة من هذه المجموعات وغيرها من أمثالها الأخر على اختلاف أصولها تشترك

في معنى الفاعلية في الأولى ومعنى الفاعلية من أفعال الطلب في الثانية ومعنى الآلية والارتفاق في الأخيرة .

الوظيفة المنطقية العقلية :

إن للأبنية والقوالب وظيفة فكرية منطقيـة فقد اتخذ العرب في لغتهم للمعاني العامة أو المقولات المنطقيـة قوالب أو أبنية خاصة فجعلوا للفاعليـة والمفعولية والمكان والزمان والسببيـة والحرفة والأصوات والمشاركة والآلة والتفضيل والحدث ولمعان أخرى كثيرة صيغاً خاصة وقوالب بحيث إذا بنيت أي مادة من مواد الألفاظ على تلك الهيئة وصيغت في ذلك القالب أدت ذلك المعنى متصلاً بتلك المادة فلو قلت (التزاور مدعاة للألفة) فالتزاور مؤلفة من مادة زور وقالب (التفاعل) الدال على المشاركة فأصبح المعنى زيارة النـاس بعضهم بعضاً ولفظ مدعـاة من مادة د ع و وقالب (مفعلة) الدال على تسبيب الشيء أو كثرته مثل مشغلة وملهاة فمعناها السبب الداعي إلى .. والألفة مصدر من ألف يدل على الفعل نفسه .

إن هـذا النوع من تصنيف قوالب المعاني أو المعاني التي هي قوالب لا مفاهيم في شكله المتسع المتنوع الموجود في العربية مما تمتاز به هذه اللغـة ولا نجد في اللغـات الأخرى من ذلك إلا الشيء اليسير وبطريقـة

أخرى لا تؤدي الغرض الذي تؤديه الأبنية والصيغ في العربية كما سنبينه بعد قليل .

إن الأبنية في العربية تعلم تصنيف المعاني وربط المتشابه فيها برباط واحد ويتعلم أبناء العربية المنطق والتفكير المنطقي مع لغتهم بطريقة ضمنية طبيعية فطرية . ويتعلم العربي حين يتعلم لغته قاعدة من قواعد الحياة وسنة من سننها ذلك أن وحدة الوظيفة والعمل تقابلها وحدة الشكل فالألفاظ التي تصاغ على وزن واحد وبناء واحد تؤدي وظيفة واحدة كالفاعلية أو المكانية أو السببية ويكفي أن يعرف العربي مادة كلمة من الكلمات حتى يصوغ منها كلمات أخرى على أوزان يعرفها وإذا سمعها كذلك لأول مرة وكان يعرف معنى المادة ومعنى الصيغة أو الوزن فانه يدرك معناها عن طريق المادة والصيغة معاً .

إن هذه القوالب أو الأبنية كثيرة جداً في العربية ولا وجه للموازنة بينها وبين اللغات الأخرى في غزارتها لقد ذكر منها سيبويه (٣٠٨) هـ [١] وأوصلها ابن القطاع (٥١٥) هـ إلى (١٢١٠) كما ذكر ذلك السيوطي في المزهر ولكنني أرى أننا لو أعدنا النظر في الموضوع وأخرجنا من هذا العدد الأبنية النادرة التي

---

(١) التاريخ المذكور بعد الاسم هو تاريخ الوفاة .

لا نجد على مثالها إلا كلمة أو بضع كلمات(١) لانتهينا إلى عدد محدود لا يبلغ هذه الكثرة وذلك بالاقتصار على الأوزان الكثيرة الاستعمال والأوزان القابلة للاستعمال وهذا العدد الذي نصل إليه يفوق كثيراً على كل حال ما في اللغات الأخرى من أبنية إذا صح أن في اللغات الأخرى أبنية وأوزاناً في شيء من التجوز والتوسع كما يتضح من الفكرة التالية التي سنشرحها .

الوظيفة الفنية :

إن قوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية أوزان موسيقية أي أن كل قالب من هذه القوالب وكل بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة فالقالب الدال على الفاعلية من الأفعال الثلاثية مثلاً هو دوماً على وزن (فاعل) وكل ما دل على المفعولية من استفعل فهو على وزن (مستفعَل) وكل ما دل على فاعل متعدد من العقلاء من صيغة افتعل مثلاً فهو على وزن (مُفتعِلون) وليست كذلك الصيغ في الفرنسية والانكليزية مثلاً فالدلالة على الفاعل تكون باضافة صوت يلحق بآخر الفعل هو (ant) في الفرنسية و (er) بالانكليزية وعلى المفعولية باضافة é أو i أو u في الفرنسية بحسب

---

(١) وذلك مثل فِعِّيلي كخصيصى وفُعْلُول كعصفور ، ويرجع في هذا الموضوع إلى كتاب ليس في لغة العرب لابن خالويه والمزهر للسيوطي والسماع والقياس لأحمد تيمور .

الأحوال وad بالانكليزية مع اختلال أصل الفعل أحياناً اختلالاً لا ضابط له وتكون النتيجة أن الألفاظ الدالة على الفاعل لا تتشابه في أوزانها مطلقاً وكذلك الدالة على المفعول فعنصر الوزن مفقود أصلاً فيها وليس ثمة إلا التشابه في اللواحق أو السوابق التي تضاف على الألفاظ لافادتها معنى من المعاني فتشابهها ليس تشابهاً داخلياً صميمياً بل تشابهاً في سمة خارجية وفي صوت ملحق بالكلمة إلحاقاً فهو كتشابه المختلفين في السمات والملامح الأصلية واتفاقهم في لباس الرأس أو في شعار معلق على الصدر .

فأشكال الألفاظ في العربية هي من جهة أبنية وقوالب وهيئات ، ومن جهة أخرى أوزان موسيقية تدركها الأذن بسهولة ويسر فيدرك السامع جزءاً من المعنى بمجرد إدراكه وزن الكلمة ، واتفاق الألفاظ في الوزن دليل في غالب الأحوال على الاتفاق في قالب المعنى أو نوعه كالآلية أو المكانية أو التفضيل أو المفعولية .

وإن بين أوزان الألفاظ في العربية ودلالاتها تناسباً وتوافقاً فوزن (فعّال) لمبالغة اسم الفاعل تدل بما فيها من تشديد الحرف الثاني على الشدة أو الكثرة وبألف المد التي فيها على الامتداد والفاعلية الخارجية وأما فِعّيل ففيها الحرف المشدد الدال على الشدة أو كثرة الملازمة للفعل ولكن الياء أنسب

للدلالة على أمر نفسي داخلي في مثل قول العرب صـديق وخريت وسكير فهي تدل على صفة داخلية نفسية أكثر من دلالتها على أفعال خارجية إن هذه المزية التي اختصت بها ألفاظ العربية في كونها ذات نغمات وأوزان مطردةهي السبب فيما للغة العربية من خاصة موسيقية في كلامها .

موسيقية اللغة العربية :

إن جميع ألفاظ العربية ترجع إلى نماذج من الأوزان الموسيقية ، والكلام العربي نثراً كان أم شعراً هو مجموع من الأوزان ولا يخرج عن أن يكون تركيباً معيناً لنماذج موسيقيـة قد يكون في احتمالاتـه التركيبية التي لا حصر لها كثير من التوفيق في الجرس والنغمة والانسجام أوقليل منه،ولو أنك حاولت نقل أي كلام عربي أو صفحة من كتاب إلى رموز موسيقية وأوزان لوجدته يتركب من وحدات تتشابه وتختلف وتتكرر وتتناظر ويتألف من مجموعها قطعة موسيقية . وكثيراً ما استثمر الشعراء والكتاب العرب هذه الخاصة الموسيقيـة فقابلوا بين نغمة الكلام وموضوعه مقابلة لها أثرهـا من الوجهة الفنية ولو أنك استمعت إلى النـابغة في البيت التـالي لشعرت أنه ينقلك إلى جوّ عاشق يهيم ويتأمل وتهفو نفسه برقة وحنان إلى آثار الحبيب بما

فيه من نعومة الحروف وكثرة المدود وحسن توزعها وجمال تركيب الألفاظ وذلك في قوله :

ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها   نعمْ ونسألها عن بعض أهليها

كما ينقل إليك البحتري صورة الذئب المرتعد الفرائص المصطك الأسنان المرتجف الفكين لشدة البرد والجوع بنغمات حروفه وتركيب ألفاظه في البيت الذي استشهدناه به في فصل سابق(١) أو كما ينقل إليك تتابع حركات الذئب السريع في ألفاظ قصيرة الأوزان متوالية الحركات في قوله :

عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته   فأقبل مثل البرق يتبعه الرعـد

وقد بلغت هذه الخاصة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع حيث تتناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق فاستمع إلى هذه الآيات الكريمة التي تصور لك عدو الخيل : « والعاديات ضبحاً فالموريات قدحا فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » واستمع إلى الآيات الأخرى تنقل إليك حسرة رجل ممن استحقوا النار بعملهم وتأوهاته المصورة في هذه الألفاظ في معانيها ونغماتها :

---

(١) انظر ص٢٦٢.

« يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية» .

أثر أوزان الألفاظ في جمال الكتابة العربية :

وإني أذهب إلى أن أوزان الألفاظ العربية أكسبت الكتابة العربية جمالاً تزيينياً خاصاً ذلك أن الألفاظ التي تكون على وزن واحد تتشابه أشكالها الكتابية ولا أقول تتماثل لاختلاف الحروف الأصلية وذلك مثل (كاتب وقانع وشارب) ومثل (مكرمون ومقدمون ومطعمون) فاذا ركبت هذه الكلمات في تراكيب كلامية كان منها ما يشبه الزخارف العربية ففيها تماثل وتكرر وتشابه وتقارب ثم اختلاف وتنوع فتمتزج المتماثلات والمتشابهات والمختلفات امتزاجاً يعطي صورة مرئية في الكتابة ورسم الألفاظ تشابه خصائصها خصائص الفن العربي في الغناء والرسم التزييني أو الزخارف .

الصيغ بين الثبات والتطور :

ولو تأمل ناظر في لغة العرب وفحص هذه الأبنية والأوزان عبر العصور المتوالية لوجد أن الثبات غالب عليها فصيغة الفاعل والمفعول من مختلف أوزان الأفعال وصيغ المكان والزمان والتفضيل لم تتبدل منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر وليس من حاجة في الحقيقة إلى تبديلها لأن ما تدل عليه من معان كلية أو من قوالب فكرية كمعنى الفاعلية والمفعولية والمكانية ثابت

لا يتغير والممكن حصوله هو أن تنشأ في ذهن الانسان خلال تطوره الفكري والاجتماعي معان كلية جديدة تحتاج إلى قوالب أو صيغ جديدة . وقد حدث شيء من هذا في تاريخ العربية فقد استعمل في العصر العباسي ما سموه المصدر الصناعي كالإنسانية والحيوانية وإن كانت الصيغة التي استعملت ليست إلا صيغة النسب المعروفة مع تاء الاسمية التي تلحق بعض الصفات فتنقلها إلى الاسمية كالقافلة والسائمة وقد استعملنا نحن اليوم هذه الصفة لحاجتنا إليها للتعبير عن المذاهب كالمادية والوجودية والاشتراكية كما استعملها لمثل هذا الغرض أهل العصر العباسي ولا سيما الفلاسفة والمتكلمون .

إن من الجائز أن يكون قد حدث تطور في عهد بعيد سبق العصر الجاهلي المعروف فأُميتت صيغ وبقيت بواق قليلة تدل عليها وعاشت أخرى ونمت ولعل هذا هو السبب في بقاء بعض ألفاظ محدودة على صيغ وأوزان غدت ميتة لا يصاغ اليوم على مثالها مثل وزن فَعَلوت كملكوت وجبروت ولكن اللغة استقرت منذ زمن طويل على أوزان وصيغ لم تتغير .

إن لبعض الأوزان أكثر من معنى واحد كوزن (فعّال) الدال على مبالغة اسم الفاعل مثل فتاك وكذاب وعلى الصنعة والحرفة مثل عطار وبقال وخباز وكوزن (فَعِيل) فانه يدل على الأصوات مثل الصهيل والأزيز وعلى

الصفات والطباع مثل كريم وبخيل وقد يكون تعدد معاني الأوزان دليلاً على تطور معانيها ودلالاتها ولكن ذلك كله لا يغير حكمنا على الأوزان فلو نظرنا إليها في جملتها وفي مختلف العصور لوجدناها بالجملة ثابتة وما طرأ عليها من التبديل إما أن يكون قديماً قبل أن تستقر اللغة العربية على حالها التي استقرت عليها بعد نضجها واكتمالها منذ عصور بعيدة في القدم أو أن يكون هذا التبدل ضئيلاً أو محدوداً بحيث لا يغير حكمنا العام عليها . ولا يقال في هذا الباب إن هذا يسبب جمود العربية وقصورها فان الجواب عن ذلك أن العربية على حالتها الحاضرة من حيث الأبنية والصيغ غنية غنى لا تضارعها فيه لغة أخرى من اللغات الراقية التي تفي بحاجات الإنسان في مثل هذا العصر الذي نحن فيه وإن الصيغ ليست إلا قوالب عامة للمعاني وقد دلت التجربة خلال قرون طويلة وفي ميادين مختلفة أن هذه الصيغ كافية لسد الحاجة .

ويكفي للاقتناع بهذه الحقيقة أن نعود إلى اللغة الفرنسية أو الانكليزية مثلاً ونستعرض ما فيها من صيغ وأبنية على طريقتها الخاصة في إضافة السوابق واللواحق الملصقة بالألفاظ في أولها أو آخرها فسنجدها محدودة قليلة العدد جداً إذا قيست بما في العربية من صيغ وأوزان مع ملاحظة ما قلناه عن اختلاف الطريقتين فطريقة العربية طريقة صياغة في قوالب وبناء في هياكل

وأشكال وأوزان بنغمات ومقاطع وطريقة اللغات الهندية الأوربية هي طريقة النحت أو الإلصاق .

ان أوزان العربية وابنيتها هي احدى مقوماتها وخصائصها المميزة وهي كما بينا تقوم بوظيفة فكرية منطقية وبوظيفة فنية ، والإخلال بها وإفسادها إفساد لنظام اللغة وإخلال بانسجامها . ولذلك كان العرب إذا أدخلوا كلمة أعجمية احتاجوا إليها في لغتهم صاغوها على نموذج من نماذج ألفاظهم وبنوها على أحد أبنيتهم وجعلوها على أحد أوزانهم في غالب الأحوال كما فعلوا في إقليد وصراط وقسطاس،وفي أحوال أخرى قليلة تركوها على وزنها كآجر ولاسيما في أسماء الأعلام كخوارزم . ومن الواجب حين التعريب سلوك هذه الطريقة وإلا فلو أدخلنا الكلمات الأجنبية على ما هي عليه من وزن وصيغة وغدت هذه الكلمات كثيرة لاختل نظام العربية بكثرة الدخيل .

توليد الكلمة وتكونها من مادة وصيغة :

الكلمة العربية كما ظهر من نظراتنا السابقة تتكون من مادة هي أصلها الذي ترجع إليه وتشترك فيه مع قريناتها الأخرى ومن هيئة تركيب أو صيغة أو بناء تركب فيه مادتها وهذه هي الطريقة التي تولد بها العربية ألفاظاً جديدة لتفي بالحاجات الجديدة وتعبر عن المعاني المستحدثة ، وهي الطريقة

المسماة بالاشتقاق وسنبحث في فصل قادم إن شاء الله عن طريق العرب في اختيار المادة التي منها يشتقون اللفظ الجديد للمعنى الجديد . ووضع الألفاظ الجديدة عن طريق الاشتقاق هو السنة المتبعة والقاعدة الغالبة التي يتبعها العرب في لغتهم

أما طريق النحت وهو إدغام لفظين ودمجهما في لفظ واحد فطريق قلما يسلكونه ونهج قلما يتبعونه وإن جرى به لسانهم في مثل بسمل وحوقل وعبشمي وادعاء أن الرباعي والخماسي كلاهما يرجع إلى ثلاثيين نحت منهما لفظ واحد قد يكون حقاً ولكنه يعود إلى تاريخ اللغة ومراحلها الماضية لا إلى مرحلتها الأخيرة المستقرة التي غدا النحت فيها طريقاً لا يسلكه العرب إلا في النادر من الأحوال وكذلك التعريب وهو إدخال اللفظ الأعجمي في العربية بعد تبديله وتهذيبه في لفظه ووزنه بما يناسب العربية فقليل كذلك بل في غاية القلة إذا قيس بالألفاظ المولدة من أصول عربية عن طريق الاشتقاق .

اللغة العربية والطبيعة :

إن ما ذكرناه من خصائص الكلمة العربية في تركيبها ومادتها وفي بنائها وهيئتها يجعل بين اللغة العربية والطبيعة تشابهاً قوياً ففي الطبيعة أنواع من الأجسام مختلفة يرجع اختلافها إلى اختلاف تركيب مادتها التي تتكون منها ومن هنا كذلك ينشأ ما بينها أحياناً من تشابه لاشتراكها في بعض الأجزاء

أو العناصر والذرات المكونة لها كالمعادن والنباتات والحيوانات بأنواعها وأجزائها . وهي على كثرتها ترجع إلى عناصر بسيطة محدودة العدد وترجع هذه العناصر كذلك إلى وحدة يظهر اختلافها باختلاف تركيبها الذري . وكذلك اللغة العربية في اختلاف كلماتها التي تكاد لا تحصى ورجوع هذه الكلمات إلى عناصر محدودة ثابتة هي الحروف التي باختلاف تركيبها تنشأ أجناس الكلم أو أصولها وموادها وتختلف مفردات الأصل في العربية كما يختلف أفراد الجنس الواحد في الطبيعة .

وإنك لتجد في الطبيعة تشابهاً ونمطية وتكرراً فورق شجر التفاح متشابه متكرر وكذلك جذوع النخل ومخالب النسور ومناقير العصافير وأيدي البشر ورؤوس الخيل وهكذا في كل نوع من أنواع الموجودات وكذلك تتشابه الكلمات على صيغة واحدة ووزن واحد فلكل مادة أو أصل من أصول الألفاظ لفظ على بناء الفاعل ولفظ على بناء المفعول والمكان والزمان و ... كما أن لكل شجرة مهما كان نوعها أوراقاً وأغصاناً وجذعاً وثمراً ثم تتشابه الأوراق وتتشابه الأغصان وتتشابه الجذوع والثمار .

ولكل فرد من أفراد الجنس الواحد في الطبيعة ذاتيته مع مشابهته لسائر

أفراد الجنس وكذلك ألفاظ العربية فلكل لفظ ذاتيته الخاصة على مشابهته لسائر الألفاظ المشتركة معه في الأصل أو في البناء والصيغة. وهذه الذاتية ناشئة من حياة اللفظ وملابساته وتقلباته خلال العصور في مختلف المجالات والبيئات .

وفي الطبيعة تسلسل وتوارث سواء في المادة التي تتكرر في كل أفراد النوع الموجودين والذين سيولدون أو في خصائص المادة وروحها وجوهرها فتتوارث الخصائص والصفات والغرائز ويستمر النوع في أفراده . وكذلك اللغة العربية تستمر وتتوارث مادة حروفها أو أصول موادها كما تتوارث أصول معانيها . وفي الطبيعة محافظة وتجديد وكذلك في العربية محافظة على بعض العناصر الصوتية والمعنوية وتوليد وتجديد لمفردات جديدة ومعان جديدة من أصول المواد والمعاني الموروثة .

التعريب

إن لغة العرب لغة ذات نظام منسجم متماسك يشد بعضه بعضاً ، تجري فيها الألفاظ على نسق خاص ، في حروفها وأصواتها ، وفي مادتها وتركيبها ، وفي هيئتها وبنائها ، كما كان لمجتمع العرب نظام في ارتباط أفراده وقبائله ، في صلات القربى والنسب وصلات التضامن والتعاون ، وله سننه في السلوك والخلق لا يستطيع الفرد الخروج عليها بل ينشأ منطبعاً عليها ومنساقاً إليها . ولذلك كان دخول الغريب في قبيلة أمراً لا بد من معالجته معالجة لا تخل بتماسك المجتمع وقواعده المنسجمة فكانوا يقبلونه بينهم على أنه جار لهم يحمونه أو يلحقونه بهم بالولاء فيكون مولى لإحدى القبائل العربية . ومعنى الولاء المناصرة فهو مولاهم وهم مواليه ، أي أنه نصيرهم وهم نصراؤه ، ولا بد له في هذه الحال من أن يسلك مسلكهم في الحياة في عاداتهم وأخلاقهم . وإن دخول الكلمة الغريبة في اللغة العربية شبيه بدخول الغريب في العرب والتحاقه بإحدى قبائلهم كما سيبدو لنا من هذا البحث وإن إطلاق كلمة التعريب للدلالة على الألفاظ الأجنبية التي دخلت لغة العرب تشير إلى هذا المعنى فقد استعمل

أهل اللغات الأخرى للدلالة على المعنى نفسه لفظ النقل والاستعارة emprunt وأما التعبير العربي فيفيد أن الكلمة جنست وأصبحت من جنس كلام العرب .

التعريب ظاهرة من ظواهر التقاء اللغات وتأثير بعضها في بعض . فاللغات تلتقي بالتقاء أصحابها في السلم والحرب ، وبالتجاور والاتصال أو الاحتلال والحكم ، في ميدان الثقافة والعلم ، أو في ميدان الاقتصاد والتجارة ، أو غير ذلك من ضروب الاتصال فيؤثر بعضها في بعض بوجه عام أو في ميادين محدودة . ويختلف هذا التأثير قوة وضعفاً وفي كونه مزدوج الوجه بأن تتأثر كل لغة بالأخرى أو منفرداً واقعاً من إحدى اللغتين على الأخرى، كل ذلك يختلف باختلاف العوامل المؤثرة والحالات الواقعة. وأبرز ما يدعو إلى هذا الاختلاف من العوامل :

١ — تفاوت الشعبين أصحاب اللغتين في الثقافة والحضارة.فالشعب الأرفع ثقافة تؤثر لغته في الشعب الأضعف حتى ولو كان هذا الفاتح المحتل .

٢ — طول الالتقاء من جهة المدة ، وعمقه وشدته ، وسعة ميادينه وآفاقه .

٣ — المناعة اللغوية الناشئة عن أسباب تعود إلى اللغة نفسها في قوتها وصلاحها أو أسباب تعود إلى المناعة الدينية أو القومية .

أما آثار التقاء اللغة فتظهر في عناصر اللغة : في أصوات الحروف وفي المفردات وفي الصيغ والأبنية وفي تركيب الجمل وفي التعابير والأساليب . وليس التعريب الذي بحثه علماء اللغة قديماً الا أحد مظاهر التقاء العربية بغيرها من اللغات وهو المفردات ولم يبحثوا في المظاهر الأخرى لانعدام التأثير أو ضعفه .

التقى العرب قبل الاسلام بشعوب قريبة منهم كالشعوب السامية أو بعيدة كالفرس والروم . ولكن التقاءهم هذا كان محدوداً ضعيفاً ضيق الأفق فكانوا يعيشون في جزيرتهم بعيدين عن تأثير الأمم الأخرى وكذلك لغتهم ، إلا ما كان من بعض المبادلات التجارية عن طريق القوافل العربية نفسها . أضف إلى ذلك اعتزازهم بأنفسهم وبلغتهم ، واعتقادهم الشرف في أنفسهم والخسة في غيرهم وهو عامل نفسي كبير الأثر في مثل هذا الموضوع . ولهذا كانت الألفاظ الدخيلة المعربة في العصر الجاهلي قليلة محدودة تتصل ببعض ما كانوا يستجلبونه من الأشياء التي لم تكن عندهم وما كانوا يشاهدونه في بلاد غيرهم مما لا عهد لهم به أو ما هو من هذا القبيل ، وكل ذلك محصور في ألفاظ تدل على أشياء مادية لا على أمور معنوية وذلك مثل : كوب ومسك ومرجان ودرهم ودينار وفردوس واقليد وصراط وقنطار وقسطاس وصنم وسروال وخندق وقرطاس واستبرق .

أثر العربية في اللغات الأخرى :

وأما بعد الإسلام فقد التقت العربيـة بغيرها التقاءً أطول أمداً وأوسع أفقاً وأكثر تداخلاً . التقت بالفارسية والسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ولكن جميع أسباب القوة والغلبة كانت إلى جانبها فقد أضيف إلى ما كانت عليه العربيـة في ذاتها من بناء قوي محكم ومادة غزيرة ولا سيما في المعنويات وسنن مطردة أنهـا أصبحت لغـة الكتـاب المنزل والرسالة المنتشرة في أطراف الأرض والأمة الحاكمة ، فكانت النتيجة انقراض بعض اللغات وحلول العربية محلها في البلاد التي تم استعرابهـا وكمل بعد الإسـلام كالعراق والشام ومصر وانزواء لغات أخرى كالبربرية في شمال أفريقية وانحسار الفارسية إلى حدود بعيدة .

إن اللغة العربيـة هي التي حملت رسالة الإسلام فغنيت بألفاظ كثيرة جديدة للتعبير عن المفاهيم والأفكار والنظم وقواعد السلوك التي جاء بهـا الإسلام. وغدت لغة الدين والثقافة والحضارة والحكم في آن واحد. واستطاعت بما وهبها الله من خصائص وما تهيأ لهـا في تاريخ طويل سبق الإسلام أن تفي بهذه الحاجات الجديدة وأن تنهض بالعبء العظيم فتكون لغـة الدولة الجديدة والحضارة الجديدة . حتى ان العربية غزت اللغات الأخرى خلال العصور التي

تلت الإسلام ابتداء من الفارسية التي دخلها عدد كبير جداً من الألفاظ العربية فلغات الشعوب التي اتصلت بالعرب ودانت بالإسلام كالتركية .

تأثر العربية بغيرها من اللغات :

وأصاب العربية في هذا الاتصال بعض التأثير فانتقلت إليها ألفاظ جديدة لم تكن فيها وتتعلق كلها إلا النادر منها بالمحسوسات والماديات لا بالمعنويات كأسماء الأطعمة والأدوية والنباتات والحيوان وشؤون المعيشة أو الإدارة كالقلنسوة والطيلسان والبنفسج والبستان والباشق والكعك والفولاذ والجوسق والبرنامج والنموذج والمهرجان والدرفس والكاغد والتزويق والأستاذ والتلميذ والديوان والساذج والسرداب والسكر والنرجس والياسمين والجوهر والهيولي والفلسفة والسفسطة والقانون . وأكثر هذه الألفاظ أخذ عن الفارسية وقليل منها أخذ عن اليونانية أو غيرها .

ان أثر اللغات الأجنبية في اللغة العربية اقتصر على دخول بعض المفردات الغريبة في اللغة العربية وهو ما سماه علماء اللغة معرباً كالألفاظ التي سردناها آنفاً . وأما المواطن الأخرى التي يحدث فيها التأثير عادة بين اللغات كالأصوات والصيغ والتراكيب فيكاد يكون تأثير اللغات الأخرى في العربية منعدماً فلم تتغير أصوات الحروف العربية ولا تأثرت أبنية العربية وأوزانها . وأما ما كان

من تطور التراكيب ومن طول الجمل وتداخلها وتشابك أجزائها وتعددها فهو في رأينا تطور طبيعي نشأ عن تطور الحياة والفكر بعد الإسلام . وليس هو تبدلاً أساسياً في تركيب الجملة العربية فقد بقي تركيب الجملة الاسمية والفعلية في صورها المختلفة ولم تتغير كذلك طريقة الإضافة والوصف ولا غيرها من أساليب العربية في تركيبها .

ولو عدنا بعد هذا إلى الناحية التي ظهر فيها تأثير اللغات الأجنبية وهي المفردات واستعرضنا ما ذكره المؤلفون وجمعه اللغويون من الألفاظ الدخيلة سواء قبل الإسلام أو بعده لوصلنا إلى النتائج التالية :

١ — إن عدد الألفاظ الأجنبية الدخيلة قليل جداً إذا نسب إلى عدد مفردات العربية أو إذا قيس بالألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأخرى كالفارسية .

٢ — إن هذه الألفاظ التي دخلت العربية تتعلق بالحسيات لا بالمعنويات وأكثرها مما يدل على الأطعمة والألبسة والأدوات والمرافق والمصطلحات الادارية وقليل منها من مصطلحات الفلسفة وما إليها وأما الألفاظ العربية التي دخلت اللغات الأخرى فهي مما يتصل بالمعنويات كالمفاهيم الشرعية أو الخلقية والنفسية .

٣ — إن ما دخل العربية من ألفاظ غريبة لم يبق في أكثر الأحوال على حاله بل صيغ في قالب عربي فغيرت حروفه إذا كان فيه من الحروف ماليس في العربية وبدل شكل تركيبه وبناؤه حتى يوافق الأبنية العربية أو يكون قريباً منها كما يتبين لنا مما سنشرحه من طريقة العربية في نقل الألفاظ الأجنبية وتعريبها .

ولهذه النتائج التي عرضناها مغزاها ودلالتها فهي تشير بوضوح إلى غنى اللغة العربية وغزارة مادتها ولا سيما في المعنويات والمجردات واستغنائها في هذه الناحية عن غيرها فقد أعطت أكثر مما أخذت أعطت الأم والأعلى وهو الألفاظ الدالة على المشاعر والأخلاق والأفكار ولم تحتج في هذا الميدان إلى غيرها بل احتاج غيرها إليها . وتدل هذه النتائج أيضاً على مناعة العربية وإحكام نظامها ومتانته فلم تسمح للفظ الغريب أن يدخل الخلل على نظامها والفساد على قواعدها ولذلك صهرته وغيرت معالمه حين قبلته وكان قبولها لمثل هذه الألفاظ بحدود ضيقة وحذر ولذلك كانت المغالاة والاكثار منه الغريب وفسح المجال له من غير قيد مظهراً من مظاهر النزعة الشعوبية في الميدان اللغوي قديماً وحديثاً .

ولو نظرنا إلى الموضوع من وجهه الآخر أي من جهة تأثير العربية في

اللغات الأخرى لوجدنا محل القول واسعاً ولالفينا تأثير العربية في الأصوات والحروف وفي المفردات والمعاني وفي التراكيب قوياً واضحاً ولكن هـذا البحث لا يبحثه علماء العربيـة وإنما يبحثه علماء اللغات الأخرى التي تأثرت بالعربية .

وكلامنا هنا مقصور على الفصحى أما تأثير اللغات الأجنبية في اللهجات العامية فهو واقع منذ عهد بعيد وقد بدأ هذا التأثير منذ القرن الثاني والثالث للهجرة واستمر خلال العصور حتى كان تأثير اللغات الأجنبية في هذا العصر في لهجات البلاد العربية العامية ولكن الفصحى بقيت في منجاة من هذا التأثير إلا في الحدود الضيقة التي وصفناها .

طريقة العرب في نقل الألفاظ الأجنبية أو التعريب :

إن العرب حين يدخلون لفظاً أعجمياً في لغتهم يحدثون فيه غالباً التغيير الذي يجعله مجانساً لألفاظهم جارياً على قواعدهم منسجماً مع نظامهم ولا يشذون عن ذلك إلا قليلاً ومن نواحي هذا التغيير :

١ — تغيير حروف اللفظ الدخيل وذلك **بنقص بعض الحروف أو زيادتها** وذلك مثل كليدا وبرنامه وبنفشه ونبهره ونشاستج فقد عربوها هكذا اقليد وبرنامج وبنفسج وبهرج ونشاء . وقد يكون ذلك **بابدال الحرف الأعجمي**

بحرف عربي قريب منه مثل پالوده وپرنـده وپراديس فقد جعلوها فالوذج وفرند وفردوس ومثل شكر وشلوار وكاووس وجك ،فقد قلبوهاإلى سكر وسروال وقابوس وصك ، وخارزم بألف ممالة نحو الضم فقـد نقلوهـا إلى خوارزم .

٢ — **تغيير الوزن** والبناء حتى يوافق أوزان العربية ويناسب أبنيتها فيزيدون في حروفه أو ينقصون ويغيرون مدوده وحركاته حتى تتم تلك الموافقة ويراعون بذلك سنن العربية الصوتية كمنع الابتداء بساكن أو الوقوف على متحرك أو توالي ساكنين فقد عدلوا عن پرازده إلى فرزدق وعن نشاسته إلى النشاء وعن كليد إلى اقليد .

وأكثر ما بقي على وزنه وأصله من الألفاظ هو من الأعلام كسجستان ورامهرمز وقليل من غير الأعلام كآجر وفرند ومع ذلك فقد غيروا الأعلام أحياناً مثل كسرى وقابوس . وأرى أن بعض هذه الألفاظ التي يوهم ظاهرها أنها مخالفة للأوزان العربية هي موافقة إذا راعينا تقسيمها إلى لفظـين مدغمين يوافق كل منهما وزناً عربياً كما لو قسمنـا رام هرمز إلى جزئين . وبعضها يشابه الأوزان العربية ولو لم يكن منها مثل فرند على وزن فِعَلّ ففي العربية عُتُلّ على وزن فُعُلّ وهما متعادلان في الوزن وان اختلفت الحركات .

إن العرب حين يدخلون اللفظ الأعجمي في لغتهم كما تبين لنا من هذه القواعد التي ذكرناها يغيرون بعض أشكاله ومظاهره في حروفه وبنائه حتى يكون شبيهاً بكلامهم ومجانساً لألفاظهم وحتى لا يخل بالنظام الصوتي والبنائي الذي تقوم عليه لغتهم .

ويعرف الدخيل في اللغة العربية من فقدان الصلة بينه وبين إحدى مواد الألفاظ العربية فاذا نظرنا إلى حروفه وعدنا إلى الأصل اللفظي الذي يمكن أن يكون مشتقاً منه فلم نجد له أصلاً أو وجدنا الصلة المعنوية منقطعة غلب على الظن أن اللفظ دخيل وذلك مثل كاغد وساذج وبستان فلا نجد في العربية مادة كغد وسذج وبست وقد يقع الاشتباه لوجود أصل عربي يشابه الكلمة الدخيلة ولا بد حينئذ من البحث التاريخي عن اللفظ لمعرفة أصله كاشتباه لفظ إقليد ودخولها في مادة قلد ومنها القلادة وكالفولاذ وهو الحديد الصافي من الخبث قالوا إنه معرب من پولاد ويدخل في مادة فلذ ومعناها قطع وكالوزير يمكن أن تدخل في مادة وزر والوزر الحمل والثقل . ولكن مجرد صلتها بمادة عربية لا ينفي كونها دخيلة إذا ثبت ذلك عن طريق البحث التاريخي كما لا يحكم على لفظ عربي بكونه دخيلاً أعجمي الأصل بمجرد مشابهته للفظ مقابل في اللغة الأجنبية .

ومن القرائن الدالة على عجمة الأصل في الكلمة أن يجتمع فيها من الحروف ما لا يجتمع في الكلمة العربية كالجيم والقاف في جوسق وجردقة والجيم والصاد في جص والجيم والطاء في طازج أو أن تكون على وزن ليس في العربية مثلاً كابريسم على وزن افعيلل وآجر على وزن فاعُلّ .

* * *

خصائص معاني الألفاظ العربية (١)

طريقة العرب في وضع الألفاظ وتسمية المسميات :

إذا تجاوزنا البحث عن النشأة الأولى لألفاظ اللغة ونظرنا في طريقة وضع الألفاظ للمعاني الجديدة بعد أن أصبح للغة رأس مال من المفردات الدالة على المعاني وجدنا أن ذلك يكون باختيار صفة من صفات الشيء الذي يراد تسميته أو بعض أجزائه أو نواحيه أو تحديد وظيفته وعمله واشتقاق لفظ يدل عليه من اللفظ الدال على صفته أو جزئه أو ناحيته أو وظيفته وفي هذا الموضع تختلف الأمم وتتفاوت في نظرتها إلى الأشياء وفي وضعها للألفاظ الحديثة التي تطلقها على المسميات .

ولننظر في أمثلة قديمة وحديثة من الألفاظ العربية ونتأمل في الصلة بين المدلول الأصلي للفظ والمعنى المقصود منه أو الشيء المسمى فمن الألفاظ القديمة السهل والسماء والقلب والمادة والإنسان والبيت والعقل والفضل والشرف يلاحظ في هذه الألفاظ أن العرب اختاروا صفة السهولة في السهل والسمو

(١) انظر ص١٥٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

في السماء والتقلب في القلب والعود والتكرار في العادة والأنس في الإنسان والمبيت في البيت والعقل وهو الربط في العقل لأنه يعقل صاحبه عن الشر والفضل وهو الزيادة في الفضل المعنوي والارتفاع في الشرف ولو نظرنا إلى هذه الألفاظ الأخرى : عامل ووال وجهاد وزكاة وهي ألفاظ نشأت بعد الإسلام ووضعت لمعان جديدة لوجدنا أنها أخذت من العمل والولاية والجهد والزكاة بمعنى النماء أو الطهارة ومثل ذلك قل عن الألفاظ المستحدثةفي عصرنا كالسيارة من السير والنظارات من النظر والدبابة من دب على الأرض والدراجة من درج والجامعة من الجمع بين فروع العلم المختلفة . ولو قايست وقابلت بين هذه الألفاظ وأمثالها من اللغات الأخرى كالفرنسية والانكليزية لوجدت اختلافاً في طريقة التسمية وفي اختيار الصفة التي بها تكون التسمية . فانه يلاحظ أولا أن اللغات الأخرى قلما تحتفظ بالمعاني الأصلية الدالة على أمثالهذه المسميات ، أما العربيةفهي في غالب الأحوال تحتفظ بالمعاني الأصلية للألفاظ التي تطلقها على مسميات جديدة كما هي الحال في الألفاظ التي استشهدنا بها . وبذلك تبقى علة التسمية ظاهرة في الغالب ، وقد تكون خفية ولكنها تعرف لأذنى تأمل ونظر . وقد تدق أحياناً وتخفى أحياناً أخرى ، فالألفاظ العربية في الجملة معللة .

أما النـاحية الأخرى في هذا الباب فهي طريقة التسميه أو طريقة اختيار الصفة التي بها تكون التسمية فبينما نرى الفرنسي مثلا قد أطلق لفظ biscyclette أي ذات الدولابين على أداة الركوب* المعروفة بهذا الاسم عندهم أطلق عليها العربي لفظ الدراجة فالفرنسي حللها إلى أجزائها ونظر إلى تركيبها وإلى حالتها الساكنة ونظر العربي إلى وظيفتها وعملها وحركتها فسماها دراجة وكذلك السيارة سماها الفرنسي automobile أي المتحرك بنفسه وسماها العربي بلفظ يدل على عملها ، وكذلك قل في المكواة وهي في الفرنسية fer à r'epasser أي الحديدة التي يتكرر امرارها وفي المطار وهو في الفرنسي aérodrome ومعناها الحرفي السباق الجوي وفي الانكليزي airport أي الميناء الجوي وقـد تكون التسمية فيها مشبهة للطريقة العربية في الدلالة على العمل أو الصفة البـارزة كلفظ moteur أي المحرك .

إن العـرب يذهبون حـين التسمية إلى أخص صفات المسمى وأبرزها أو إلى عمله الأساسي ووظيفته أكثر من ذهابهم إلى ظاهره وشكله الخارجي أو تركيبه وأجزائه ولو تأملت في الألفاظ التي سردناها في بدء كلامنا واعتبرت هذا المعنى لوجدته قائما فيها ولو نظرت كذلك إلى ما نشأ من الألفاظ

واستحدث من المصطلحات بعد الإسلام لوجدت الصلة واضحة بين معاني الألفاظ الأصلية ومدلولاتها . وذلك مثل ألفاظ الاستعارة والمجاز والموازنة والنقد والنافلة والكبيرة والعرض والظرف والتمييز والحال . بل إنك لتجد ذلك واضحاً في كثير من الألفاظ القديمة كالمعروف والمنكر والباطل والشعر والطريق والنبع والمنزل والخباء والبساط والوعاء . ألا ترى أن أخص صفة في النبات تميزه من غيره هي صفة النمو وأنهم سموه نباتا لذلك ، وأن أخص صفة في الحيوان الحياة وفي الإنسان الأنس وفي المعدن اللبث في مكانه من الأرض وفي الدين الخضوع والطاعة والجزاء والحساب .

وقد تختار العرب في الشيء صفتين أو أكثر من صفاته فتجعل له اسمين أو أسماء باعتبار تلك الصفات وتنشأ بسبب ذلك بعض الألفاظ المترادفة ولكنهم يستعملون كل لفظ منها في الموضع الذي يناسب تلك الصفة أنظر إلى قوله تعالى (ومساكن ترضونها) حيث استعمل لفظ المسكن للدار مراعاة لمعنى السكينة التي تحصل للانسان ، والمناسبة في الآية هي حب الإنسان لمسكنه وترجيحه إياه على الجهاد . ثم انظر إلى قوله (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى

تستأنسوا) مراعاة لمعنى بيتوتة الانسان في داره حيث لا يتورع عن التبذل في لبسه وهيئته وذلك أدعى لمنع دخول بيوت الناس من غير استئذان .

حياة العرب وتفكيرهم في مفردات لغتهم :

ومن هنا كانت الصلة قوية بين مفردات اللغة وعقلية أصحابها وعاداتهم فالألفاظ العربية تدل على تفكير العرب ونظرتهم إلى الأشياء . ذلك أن في تسميتهم لها باسم بعينه ، وفي إطلاق لفظ دون غيره عليه ، واختيار صفة من صفاته ، ما يدل على اتجاههم في التفكير ، وفهمهم للأشياء ونظرتهم إليها . فاستعمالهم العامل للوالي والحاكم يدل على أنهم فهموا الولاية بعد الاسلام على أنها عمل من الأعمال . واستعمالهم لفظ المرء والمرأة يدل على تساوي الرجل والمرأة في الأصل عندهم ولفظ المروءة مشتق منهما معاً ومعناه الصفات المستحسنة المأخوذة من أخلاق الانسان ذكراً كان أو أنثى . وكلمة العقل المأخوذة من معنى الربط تدل على أنهم يفهمون العقل زاجراً عن الشر ويعتبرون فيه الجانب الخلقي لا الجانب الفكري وحده . ولفظ المكان وهو اسم مكان من كان بمعنى وجد يدل على أنهم فهموا المكان على أنه ظرف للوجود . ولفظ اليمين سميت به اليد اليمنى لاعتقاد البركة والخير والتفاؤل باليمين وأما اليمين بمعنى الحلف فسمي كذلك « لأن المتحالفين كان أحدهما يصفق

بيمينه على يمين صاحبه »[1] وسميت صفقة البيع كذلك لأن المتبايعين يصفق أحدهما يد الآخر وتلك عادة جارية للمتبايعين[2] وسمي الجار جاراً من مادة ج ور ومعناها الظلم لأنه يُحمى من الجور ؛ يحميه من دخل في جواره .

اللغة العربية وتصنيف الموجودات :

إن مفردات كل لغة من اللغات تعطي صورة الوجود عند أهل تلك اللغة وكل واحدة منها تدل على جنس أو نوع أو صنف من أصناف الموجودات المادية أو المعنوية . ذلك أن كل كلمة من الكلمات ، في أي لغة من اللغات ، يدخل تحتها أفراد كثيرة كالشجرة والحصان والنهر والفرح والغضب ، فتحت كل لفظ منها عدد لا يحصى من الأفراد أو الحوادث جمعت كلها تحت عنوان واحد ، وجعلت صنفاً واحداً . ولذلك كانت مفردات كل لغة من اللغات ضرباً من التصنيف للموجودات .

ولو نظرنا إلى العربية من هذه الوجهة لوجدنا أنها تضمنت تصنيفاً شاملاً يدهش المتأمل منذ عهودها القديمة حتى ظهور الإسلام . ذلك أنك تجد في العربية ألفاظاً تدل على الموجودات بمجموعها كلفظ العالَم والعالَمين ويشتمل على الخلق كله كما قال الزجاج . ثم تجد تقسيماً للوجود إلى ما يدرك بالحس وهو

(١) و (٢) المقاييس لابن فارس .

عالم الشهادة ، وماهو مغيب عن الحس وهو عالم الغيب ، وهما لفظان قرآنيان . وتجد ألفاظ الوجود والعدم والمكان والزمان والدهر والأبد والأزل . وتجد في العربية ما يدل على أنواع الموجودات كالنبات والحيوان ، ثم تجد للحيوان كذلك أنواعاً منها الانسان والوحوش والطير وأنواعاً أخرى للحيوان فيما عدا الانسان من السباع والهوام والسوام والحشرات والجوارح والبغاث . وتجد مثل هذا التصنيف للأخلاق والمشاعر كالمكارم والمثالب والمحاسن والمساوىء والفرح والحزن .

إن مفردات اللغة العربية تدل على أن العرب صنفوا الوجود تصنيفاً شاملاً دقيقاً منطقياً يدعو إلى الدهشة والتعجب ويدل على مستوى فكري قلما وصلت إليه الأمم في مثل هذا الطور المبكر من تاريخ حياتها .

الحسيات والمجردات :

واللغة العربية في تصويرها الوجود وتعبيرها عن أجزائه وتصنيفها له إلى انواع وأجناس لم تقتصر على الحسيات كما تقتصر كل لغة في طورها الابتدائي فالاقتصار على الحسيات دليل على ابتدائية اللغة وعلى عجزها عن التجريد والتعبير عن المعنويات والمجردات .

ولو استقصينا ألفاظ العربية لوجدنا فيها ما لا يكاد يحصى من الألفاظ

الدالة على الحسيات من أرض وسماء وحيوان ونبات وجماد ومن حركات وأفعال ومن ألوان وأصوات وروائح وهيئات ومن صفات حسية تتصف بها كل هذه الموجودات كصفات الأرض من سهولة ووعورة وصفات الحيوان والإنسان .

وهكذا نجد أن اللغة العربية قد عنيت بالحسيات ، من الذرة والهباء المنثور حتى الأفلاك والسماء والكواكب ، وبأنواعها المختلفة وآفاقها الواسعة ودقائقها الخفية ولكنها لم تهمل المعنويات والمجردات .

فانا نجد في العربية سعة وغزارة في التعبير عن أنواع العواطف والمشاعر الانسانية ، كالسرور والحزن والغضب والكبر والحب والبغض والغيرة والشماتة ، في أدق معانيها ومختلف درجاتها وفروقها . كما أنها اشتملت على الكلمات الدالة على الطباع كالذكاء والحزم والحلم والشجاعة والجبن والكرم والبخل ، وعلى الأفعال والمفاهيم الخلقية كالاحسان والبر والعدل والظلم والحق والباطل والخير والشر .

واشتملت العربية كذلك على المفاهيم الكلية والمعاني المجردة كالوجود والعدم والحدوث والقدم والروح والنفس والخلق والقضاء والقدر والحكم والهدى والضلال والخلود والزمان والحياة والموت والفناء والجمال .

ومن استعراض الآفاق المادية والمعنوية في لغة العرب تبدو لنا الملاحظات التالية :

١ — جمع العرب في لغتهم بين الواقعية الحسية والمثالية المعنوية فدلوا بما عندهم من ألفاظ تدل على المحسوسات على واقعية في التفكير كان مظهرها اللغوي الواقعية في التعبير .

٢ — ولكنهم لم يقفوا عند الحياة المادية في حياتهم ولا في لغتهم ، بل تجاوزوها إلى الحياة المعنوية والمثالية التي عبروا عنها بلغتهم كذلك فدلوا بذلك على اتجاههم المثالي ونزوعهم المعنوي . ولكن مثاليتهم هذه ليست مثالية خيالية مجردة من الحياة بل هي امتداد للواقعية وتسام بها وتجريد وغاية لها ولذلك لم تتنافيا .

٣ — التجريد دليل ارتقاء العقل ، والمادية دليل الاتصال بالواقع ، وقد بلغ العربي في كلا المجالين الغاية القصوى والدرجة العليا ، ووصل بينهما . ولئن عبر عن المعنويات بالتعابير المادية في أول أمره ، كما هي حال الأمم جميعاً ، فقال العقل والوعي والادرك والشرف والفضل ، وكلها في الأصل تدل على معان محسوسة ، فقد نزع بعد ذلك للتعبير عن الماديات بالتعابير المعنوية أو التي كثر استعمالها للمعنويات . قال الله تعالى في وصف البساتين أو الجنتين

(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) وقال (طغى الماء) و (ريح صرصر عاتية) .وقال الجاحظ فيمن يتعلم لغتين (لا بد أن تدخل إحداهما الضيم على الأخرى) . وإذا كانت بعض هذه التعابير مجازية فان كثيراً منها يروج وينتشر حتى يصبح استعماله حقيقة لا مجازاً .

الدقة والخصوص والعموم :

إن المتكلم في أي لغة من اللغات لا يستطيع أن ينقل إلى مخاطبه الصورة الحقيقية المخصوصة التي يريد نقلها والإخبار عنها بجميع دقائقها وجزئياتها وذلك لأن اللغة إنما تقدم له ألفاظاً تدل على عموميات وكليات وأنواع وأجناس . فاذا قال قعدت تحت الشجرة أو ركبت السيارة أو حزنت لخبر مؤلم لم يستطع مخاطبه لمجرد سماعه هذه العبارات أن يتصور تلك الشجرة التي أرادها بذاتها ولا هيئة القعود ولا السيارة المقصودة بعينها ولا هيئة الركوب ولا درجة الحزن وحقيقة الخبر وذلك لأن هذه الألفاظ كلها عامة يندرج تحتها أنواع أو أفراد لا تحصى من الشجر والسيارات والأخبار وهيئات القعود والركوب ودرجات الحزن والألم .

ولكن اللغات تتفوت في قدرتها على تصوير الأشياء والموجودات في

دقائقها والتمييز بين أنواعها وأحوالها والتعبير عن العواطف والمشاعر في مختلف درجاتها وألوانها .

وتمتاز اللغة العربية بدقة تعبيرها والقدرة على تمييز الأنواع المتباينة والأفراد المتفاوتة والأحوال المختلفة سواء في ذلك الأمور الحسية والمعنوية ولنضرب الأمثلة لذلك :

فالمشي عام ودرج للصبي الصغير ، وحبا للرضيع ، وحجل الغلام أن يرفع رجلاً ويمشي على أخرى ، وخطر الشاب باهتزاز ونشاط . ودلف الشيخ مشى رويداً بخطا متقاربة ، وهدج مشى متقلاً ، ورسف للمقيد ، واختال وتبختر وتخلع واهطع وهرول وتهادى وتأود أنواع من المشي[١] .

والنظر عام ورمق نظر إليه بمجامع عينيه ، ولحظه نظر إليه من جانب أذنه ولمح نظر إليه بعجلة ، وحدجه بحدة ، ونظر إليه شزراً أي نظر العداوة ، واستشف الثوب رفعه لينظر إلى صفاقته ، واستكف واستشرف نظر إليه واضعاً يده على حاجبه من الشمس ، وحدق جمع عينيه لشدة النظر وتصفح النظر في كتاب أو حساب ليكشف صحيحه من سقيمه[٢] .

---

(١) فقه اللغة للثعالبي الطبعة الأولى ص ١٥١ .

(٢) فقه اللغة للثعالبي الطبعة الأولى ص ٨٢ .

والطيران عام والدف والإسفاف والرفرفة والتحليق والتدويم والرفيف أنواع مختلفة له[1] .

والصوت عام والرز والركز والهينمة والدندنة والنغم والنأمة والهمس والصياح والصراخ والصخب والهيعة والنعير والنعيق والهدير والهدة واللغط والغمغمة والضوضاء والجلبة والهتاف والهيهعة والرنين والزفير والشهيق والنحيب والغطيط والشخير والكرير والقرقرة كلها أنواع من الصوت ، ولأصوات الإبل والخيل والسباع والطيور والحشرات والمياه والنار وغيرها أسماء كثيرة جداً . [2]

والثوب لفظ عام والشفّ والمنيّر والمعيّن والمشطّب والمسيّر والمفوّف والمسهّم والمعصّر والمعرّج والمهلّل والمكعّب والمفلّس والمخيّل لأشكال من الثياب تختلف في رقتها أو في نقوشها . والنمونة ثوب رقيق يلبس تحت ثوب صفيق ، والمبذلة ثوب يتبذله الرجل في منزله ، والمبدع ثوب يجعل وقاية لغيره ، والمنامة والقطيفة ما يتدثر به من ثياب النوم ، والشعار ما يلي الجسد ، والدثار ما يلي الشعار إلى غير ذلك من أصناف الثياب الكثيرة[3] .

(١) فقه اللغة للثعالبي الطبعة الاولى ص ١٥٧ .

(٢) فقه اللغة للثعالبي الطبعة الاولى ص ١٦٤ - ١٧٥ .

(٣) فقه اللغة للثعالبي ص ١٩١ .

ولو نظرت في كتاب فقه اللغة للثعالبي وهو مجلد صغير أو في كتاب المخصص لابن سيده وهو كتاب كبير يقع في سبعة عشر جزءاً لوجدت تحت كل نوع من أنواع الموجودات وكل ضرب من ضروب الأشياء والنبات والحيوان والآلات والمرافق وصفاتها عدداً كبيراً من المفردات المختلفة في معانيها ودلالاتها .

وتجد كذلك للاحساسات والمشاعر ألفاظاً كثيرة وتعابير دقيقة فللحاجة إلى الطعام مراتب أولها الجوع ثم السَغب ثم الغَرَث ثم الطوى ثم المخمصة ثم الضرم ثم السُعار . وكذلك الحاجة إلى الماء أولها العطش ثم الظمأ ثم الصدى ثم الغُلة ثم الأُوام . والسرور أنواع ومراتب منها الجذل والابتهاج والاستبشار والارتياح والفرح والمرح والغبطة والطرب . والحزن كذلك درجات وأنواع منها الكمد والبث والكرب والأسى والوجوم والكآبة والغم والترح والحسرة والأسف والندم والهم والشجو . والغضب منه السخط والغيظ والحرد والحنق .

اقتران الألفاظ وحسن مطابقتها :

ومن ضروب الدقة ما يظهر في اقتران الألفاظ بعضها ببعض فقد خصص العرب ألفاظاً لألفاظ وقرنوا كلمات بأخرى ولم يقرنوها بغيرها ولو كان

المعنى واحداً ، فقد قالوا في وصف شدة الشيء : ريح عاصف وبرد قارس وحر لافح ، وفي وصف اللين : فراش وثير وثوب لين وبشرة ناعمة وغصن لدن

وفي الوصف بالامتلاء : كأس دهاق وبحر طام ونهر طافح وواد زاخر وفلك مشحون ومجلس غاص . كما قالوا قلب فارغ ودار خاوية وأرض قفر . وقالوا في الوصف بالجدة : ثوب جديد ولحم طري وشراب حديث وشباب غض ،وقالوا : رقع الثوب ورأب الاناء ،وقالوا : كاتب بارع وخطيب مصقع وطبيب نطاسي وصانع ماهر للوصف بالمهارة في الكتابة والخطابة والطب والصنعة . وقالوا : صفوة الشراب وخلاصة السمن ولباب البر وسلاف العصير ولب الجوز ومخ العظم وواسطة القلادة. وإذا وصفوا الشيء بالارتفاع الحقيقي أو المجازي خصصوا كذلك ألفاظاً بألفاظ فقالوا نخلة باسقة وجبل شاهق وشامخ ومجد باذخ .

لا شك أن هذا التخصيص في تراكيب العربية في النعت والاضافة والاسناد نوع من الدقة في التعبير لأن هذه الألفاظ المخصصة ببعض المعاني والأحوال توحي إلى السامع الصورة الخاصة التي تقترن معها فلفظ باسق يوحي إلى الذهن معنى الارتفاع وصورة الشجرة معاً كما توحي كلمة وثير معنى اللين وصورة الفراش وكثيراً ما يحتاج المتكلم أن ينقل إلى مخاطبه هذه المعاني والصور

متلازمة مقترنة ليكون أصدق تصويراً وأدق تعبيراً وأقدر على حصر الصورة المنقولة وتحديدها .

منزلة التخصيص والدقة والتعميم في اللغة :

إن غلبة الألفاظ الخاصة الدالة على مدلولات معينة مخصوصة ولا سيما في مجال المحسوسات مع فقدان الألفاظ الدالة على المعاني العامة والمجردة أو ندرتها وقلتها قرينة دالة على ابتدائية اللغة وأصحابها وعجزهم عن التعميم والتجريد . ذلك أن الانسان في حالته الابتدائية ينزع إلى تسمية الأحوال الخاصة فللبقرة البيضاء عنده اسم وللبقرة السوداء اسم آخر ولكل شجرة اسم خاص .

وقد تكون الدقة في التسمية والتخصيص في اللغة دليلاً على بلوغ أصحاب تلك اللغة درجة عالية في دقة التفكير واتصافهم بمزية الوضوح وتحديد المقصود تحديداً يقتضيه المنطق العلمي . واللغة العربية لا ينطبق عليها وصف الابتدائية لكثرة ما فيها من الألفاظ الدالة على الكليات والمفاهيم والمعاني العامة والمجردة . وذلك قرينة على أن ما فيها من الدقة والتخصيص إنما هو ناشئ عن دقة التفكير وتحديد الدلالة ووضوح الذهن . ولو استعرضت شيئاً من الشعر الجاهلي لوجدت فيه العجب العجاب في دقة الوصف كوصف بعض

أنواع الحيوان والصيد وصفاً يتضمن الجزئيات والتفصيلات في الألوان والأشكال والحركات والمشاعر ولوجدت فيه كذلك من شعر الحكم مايتضمن قواعد عامة في الحياة ومعاني تبلغ درجة عالية من التعميم والتجريد وأداة ذلك كله مفردات اللغة .

إن دقة التعبير والتخصيص سبيل من سبل تكوين الفكر العلمي الواضح المحدد تحتاج إليه كل أمة في تربية أبنائها على التفكير الواضح الدقيق الذي يخدم للعمل والبحث العلمي . ولا يمكن أن تكون اللغة البعيدة عن الدقة المتصفة بالعموم أو الإبهام أو الغموض أداة للتعبير عن الفكر العلمي الدقيق ولا بد من التقابل في الخصائص والصفات بين التعبير والتفكير .

والتخصيص اللغوي والدقة في التعبير أداة لا بد منها للأديب ، شاعراً كان أم ناثراً ، لتصوير دقائق الأشياء وإبرازها في جوانبها الخاصة المتميزة وصفاتها المنفردة وذاتيتها ، وللتعبير عن الانفعالات النفسية العابرة والمشاعر المتميزة والعواطف والنفسيات في أخص صفاتها وفي ألوانها الخاصة وفروقها الدقيقة وأجوائها المحددة . إن ذلك كله يحتاج إليه الأديب في الوصف والقصة وفي الشعر العاطفي والأدب الوجداني والأدب الموضوعي .

ونحن اليوم في حاجة إلى بعث اللفظ الدقيق من لغتنا وإحياء الفروق بين

الألفاظ لتكون لدينا لغة تصلح أن تكون أداة لنهضتنا العلمية والأدبية وأداة لتكوين التفكير الدقيق السليم في تربيتنا .

آفة الترادف والعموم والغموض :

ولقد أصاب العربية في عصور الانحطاط المنصرمة مرض العموم والغموض والابهام ، كما أصابت هذه الآفات التفكير نفسه ؛ فضاعت الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة فغدت مترادفة ، وكثر استعمال الألفاظ في المعاني المجازية وصرفت عن معانيها الأصلية فضاع الفكر بين الحقيقة والخيال وزالت الخصائص المميزة والفروق الفاصلة وأصبح لكل موضوع مهما تكرر قوالب من اللغة ثابتة وأداة من اللفظ لا تتغير وتعابير مصوغة لكل مناسبة أو موضوع تنقل وتلصق كلما تكررت تلك المناسبة أو عرض ذلك الموضوع . فاذا كان الموضوع وصف حديقة أو تعزية صديق أو التعبير عن فرح أو طرب لم يتغير الكلام أياً كانت تلك الحديقة وفي أي بلد وأياً كانت مناسبة التعزية أو الفرح . وفي ذلك قتل لخصائص الأدب ومزايا الفن إذ الفن يقوم على ابراز المقومات والمزايا الخاصة والدقائق الخفية والمشاعر الذاتية واللحظات العابرة والمشاهد غير المتكررة .

لقد كان اللغويون أيام ازدهار اللغة يعنون بابراز الفروق بين الألفاظ

وقد ألفوا في ذلك مؤلفات خاصة ككتاب الفروق لأبي هلال العسكري وقد طبع مختصره وأبواب الفروق من كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة والقسم الأول من كتاب فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي .

وقد كان كتّاب العربية في العصور الزاهرة يحرصون على دقة التعبير ووضع الألفاظ في مواضعها ومن هؤلاء أبو عثمان الجاحظ « فهو يستعمل الألفاظ التي تخصص مدلولاتها بها ولا تتناول سواها بقدر ما تسمح له اللغة بذلك فاذا ذكر آلة أو أداة أو طعاماً أو لباساً أوشيئاً من هذه الأشياء المادية ذكرها بأسمائها الخاصة وفرق بهذا التخصيص بين أنواعها المختلفة فمن ذلك الشبوطة والجُوافة والشَلِقة لضروب من السمك والجعفرية لضرب من السفن. والمسرجة والمصباح والقنديل لما يستصبح به ، والصّمام لما تسد به القوارير ، والكسّاح للعامل الذي ينظف المثاعب والمجاري ، والشارع للسكة الكبيرة . والرائغ[1] للطريق الضيقة بين المنازل ، والحصر والبواري (جمع بوري وباري وهي الحصر المنسوجة) . والمخدة والمرفقة ، والمبطنة والقميص والكساء والجبة والبرنكان والقلنسوة لأنواع من الأثاث واللباس . وأما أسماء أنواع

(١) وفي اللسان طريق رائغ مائل وفي حديث الأحنف فعدلت إلى رائغة من روائغ المدينة أي عن طريق يعدل ويميل عن الطريق الأعظم .

الأطعمة والولائم. وصنوف المحتالين والمُكْدِين، فأكثر من أن تحصى في كتاب البخلاء. ونجد هذه الدقة أيضاً عنده في استعمال الأفعال للدلالة على عمل بعينه أو على هيئة أو على حالة خاصة. ومن ذلك « التقوير والتنقير والتنتيف (للرغيف) ونشيش اللحم لصوته حين القلي، وتثريده، وماء النخالة يعصم أي يمنع من الجوع وتكرش الكساء، وكدم أنف السمكة، ويَطُر جنبيها باللقمة بعد اللقمة (أي يمر القطعة من الخبز ضاغطاً عليها كما يفهم من سياق القصة) ودعي أُغني في دهليزك، وهجمت عليه بمعنى دخلت فجأة على غير انتظار منه، وحاط بطنَ السمكة بلحظه، وشحا للُّقمة فاه، فتحه لتناولها، وبكّر البرد أتى قبل أوانه، وما تحلحل لي سن، وتعصّر قليلاً ثم باح بسره؛ وأمثالها كثيرة يمكن الرجوع فيها إلى النصوص نفسها »(١).

وتجد مثل هذه الدقة في الوصف عند كثير من كتاب العربية في مختلف العصور ولا سيما في القرون الأربعة الأولى بعد الاسلام. ومن هؤلاء الكتاب الذين تميزوا بهذه الدقة **عبد اللطيف البغدادي** (٥٥٧ — ٦٢٩ هـ) فقد كان دقيقاً في ملاحظته وتعبيره في رحلته إلى مصر التي سماها « الافادة والاعتبار » فقد وصف فيها نباتات مصر وحيواناتها وآثارها وصفاً يبعث في الإنسان

---

(١) من كتابنا (فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ) المطبوع بدمشق ص ٣٨.

الدهشة والتعجب فمن ذلك قوله في وصف البامية : « وهي ثمر بقدر ابهام اليد ، كأنه جراء[1] القثاء ، شديد الخضرة . إلا أن عليه زيبراً مشوكاً ، وهو مخمس الشكل ، يحيط به خمسة أضلاع ، فاذا شق انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز ، وفي تلك الأبيات حب مصطف ، مستدير أبيض أصغر من اللوبيا ، هش ، يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة »[2] . بهذا الأسلوب البسيط الدقيق في كلماته وصف البغدادي في رحلته هذه سائر ما شاهده في مصر من النبات والحيوان ومعالم العمران والآثار القديمة وإنما كانت دقة الوصف من استعمال الألفاظ المطابقة لمانيها الدقيقة في دلالتها .

ونحن اليوم بحاجة للتحرر من آفات عصور الانحطاط في ميدان اللغة والعودة إلى خصائص العربية في استعمال اللفظ الخاص والعام كل في موضعه اللائق به ومكانه المناسب له . فحياتنا العلمية تحتاج إلى دقة التعبير وتحديد المعاني وحياتنا الفنية في حاجة كذلك ، لتصور مشاعرنا وأحاسيسنا ومشاهد حياتنا ، إلى هذه الدقة اللغوية .

---

(١) جراء جمع جرو الصغار من كل شيء .

(٢) عبد اللطيف البغدادي في مصر . مطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة ص ٢٠ .

العموم والألفاظ العامة :

على أن الألفاظ الدالة على معان عامة سواء في عالم المادة أو في عالم المعنويات هي مما يحتاج إليه الانسان في مراحل ارتقائه الفكري . ذلك أنه لا بد من إطلاق الأحكام العامة الشاملة لأنواع كثيرة من الموجودات والحوادث والأفعال ، وتصوير آفاق الكون الواسعة . ولا غنى له كذلك عن الحكم على المشاعر النفسية والعواطف ، وجمع الكثير منها في أنواع شاملة ، ولا سيما بعد انصراف فريق من العلماء إلى دراسة النفس في الفرد والجماعة . وهو بحاجة إلى ألفاظ تعبر عن المفاهيم الخلقية والأفكار العامة التي نشأت في الحياة الانسانية ونمت وتطورت .

إن اللغة العربية سدت هذه الحاجة إلى الألفاظ العامة وامتدت إلى هذه الآفاق الواسعة وأمدت المتكلم بها بما يحتاج إليه من ألفاظ تعبر عن هذه المعاني العامة في الميدان المادي والمعنوي منذ عهد بعيد وبذلك استطاعت أن تكون لغة الفلسفة والفكر كما كانت لغة العلم والفن والشعر .

إن اللغة الراقية لا يمكن أن تستغني عن مثل ألفاظ : الكون والعالم والأفلاك والأرض والسماء والنبات والحيوان والماء والمعادن والأجسام ، وهي ألفاظ عامة ممعنة في العموم في ميدان العالم المادي ، ولا عن مثل الروح

والنفس والحس والشعور والقوة والضعف والكثرة والقلة والخير والشر والنظام والفوضى ، وهي ألفاظ عامة في ميدان العالم المعنوي ، ومثلها الألفاظ الدالة على الأفعال كالإباحة والمنع والذهاب والرجوع والقطع والدخول والخروج والفتح والإغلاق وما إليها .

إن اللغة العربية غنية جداً بالألفاظ الدالة على المعاني العامة كما أنها غنية لفاظ الخاصة الدقيقة . ونحن محتاجون إلى النوعين كليهما في حياتنا ونهضتنا ولكل منهما موضع يليق به . ولكن استعمال العام أسهل من استعمال الخاص ، لأن الخاص يحتاج إلى ذخيرة من اللفظ أوسع ومادة أغزر ، ويحتاج إلى تمييز واختيار ومزيد من الجهد والتفكير ؛ ولذلك كانت النفوس إلى استعمال اللفظ العام أميل وأقرب ، وكان ذلك هو الشائع في عصور الترف والكسل والانحطاط .

ولهذا وجب بذل الجهد في إحياء خاصة الدقة في التعبير وتربية المتعلمين وتدريبهم على استعمال الرقيق من الألفاظ واختيار اللفظ المطابق لمعناه بلا زيادة ولا نقصان فإن هذه التربية لا يقتصر أثرها ونتيجتها على الناحية اللغوية فهي لغوية وفكرية في آن واحد .

تحرير اللغة من الجمود والفوضى

الأخطاء الشائعة

الفرق بين الخطأ والتطور :

العربية الفصيحة الحية تقع على الجادة الوسطى بين الجمود المانع من الحركة والتجديد والحياة النامية ، والفوضى أو الإباحية اللغوية القاتلة لخصائص اللغة المشوهة لها . لقد اشتد بعض الناس في المحافظة على اللغة وغلوا في ذلك غلواً كبيراً ولم يصدروا في ذلك عن فقه صحيح للعربيـة ولا فهم واع لحياتها وقواعد نحوها فوقفوا عند نصوص المعاجم لا عند نظام اللغة ووراء الشواهد دون القواعد فحرموا حلالاً ومنعوا مباحاً .

مع أن من الواجب التميز فيما يجدّ من ألفاظ اللغة بين ما كان ناشئاً عن طبيعة اللغة متولداً من قواعدها تمخضت عنه موادها وأبنيتها فجاء لتمام الحمل كامل الخلقة وما كان دخيلاً عليها لم تحمل به أرحام عربية بل جاء لِغَيّة وتولد عن هجنة أو عجمة فجاء غريباً عنها مخلاً بنظامها مشوهاً لجمالها .

يجب التفريق بين ما هو خطأ وانحراف وما هو توليد وتجديد وتطور

فكلاهما حدث جديد في اللغة وتبديل في بعض ظواهرها ولكن الخطأ تبديل يخالف خصائص اللغة وسنن نموها وناموس حياتها وقواعد فطرتها ويخل بنظامها كما سيتبين من الأمثلة التي سنذكرها وأما التجديد والتطور فهو تبديل وإحداث يجري وفقاً لسننها وينساق مع فطرتها وينقاد لقواعدها ويوافق روحها وخصائصها

إن إحياء اللغة منوط بتحريرها من الجمود والعقم من جهة ومن الفوضى والخروج من قواعد اللغة وهو موضوع بحثنا هذا .

التحرر من الجمود :

منع بعض اللغويين في عصرنا استعمال بعض الألفاظ الشائعة بحجة عدم ورودها في المعاجم وأن العرب لم تستعملها وذلك كلفظ التطور والفنان مع أن منهم هذا ليس إلا تضييقاً لما وسعه العرب . فكلمة التطور اشتقت في هذا العصر من كلمة طور على وزن صحيح معروف هو التفعل كما اشتقوا من الحجر التحجر ومن النمر التنمر . وهي كلمة احتيج إليها للتعبير عن معنى جديد غير التبدل والتغير وهو الانتقال من طور إلى طور . فأي حرج في هذا الاشتقاق ما دام الأصل عربياً والوزن عربياً والمعنى لا يؤدى بلفظ آخر موجود . وأما لفظ الفنان فهو على وزن فعّال من الفن والفن في الأصل الغصن وقد استعمل

مجازاً لمعانٍ عدة منها فنون العلم أي ضروبه ثم خصص في عصرنا بمعنى ما يقابل العلوم المحضة فالشعر والنثر الأدبي والغناء فنون . وقد استعمل العرب وزن فعّال للصنعة والنسبة فقالوا عطار وزيات وزجاج لمن نسب إلى العطر والزيت والزجاج وعلى هذا القياس يكون فنان وهو نسبة إلى الفن مفيداً لمعنى صاحب الفن والملازم له أو من يتخذه عملاً أو صنعة ولا عبرة مطلقاً لاستعمال العرب قديماً لهذا اللفظ لمعنى آخر وهو حمار الوحش المخطط الجلد والذي له فنون من العدو فكثيراً ما تبدلت معاني الألفاظ واكتسبت معاني جديدة إذا كان أصل المعنى يحتملها .

ومن هذا فتخطئة هذين اللفظين من الجمود المنافي لروح اللغة وخصائصها ومن التضييق والاحراج الذي لا مسوغ له .

ومن هذا القبيل جمع الميل على (ميول) وهو مصدر لتنوعه كالعلوم واستعمال واطنه فهو (مواطن) بمعنى شاركه في الوطن قياساً على ساكنه وآكله وجالسه شاركه في ذلك كله وإن لم تستعمل العرب هذه الألفاظ وأمثالها .

أسباب الخطأ في اللغة :

يرجع أكثر الخطأ في اللغة في العصر الحديث إلى ضعف الملكة اللغوية

الموروث عن عصر الانحطاط الماضي الذي سادت فيه العجمة وغلبت العامية فقد فشت الأمية في ذلك العصر حتى كان الذين يحسنون مطلق القراءة والكتابة قليلين ومن كان يعرف الكتابة منهم كان يكتب العامية بالأحرف العربية والنادر من يجيد الفصحى إجادة معرفة وملكة حتى من العلماء أنفسهم إلا فريقاً قليلاً ممن عني باللغة عناية خاصة وغلب على هؤلاء نقل النصوص اللغوية من المعاجم دون تحكيم السليقة العربية والملكة اللغوية ومحاولة التجديد والتوليد وفقاً لقواعد اللغة وطرائق نموها وخصائصها في الاشتقاق والتعريب والتخصيص والتعميم والمجاز فكانت الحياة تسير في جانب واللغة عند هؤلاء منعزلة في جانب آخر فملئ هذا الفراغ اللغوي بالعامية والألفاظ الدخيلة الأعجمية من غير مراعاة لطرق العرب في التعريب .

أضف إلى هذا السبب القديم ،الذي امتد أثره واتسعت دائرته حتى شملت أكثر الناس . مدة طويلة من الزمن بلغت المئات من السنين ،سبباً جديداً يشبهه ويضارعه وهو أثر العجمة الجديدة الناشئة عن اختلاط العرب بالأعاجم من أهل أوربا عن طريق التجارة والثقافة والاستعمار . فقد أثرت اللغة الفرنسية والانكليزية على الخصوص في اللغة العربية الحديثة بعض التأثير ولا سيما في أوائل هذا العصر حين كانت الملكة العربية أضعف ما تكون ، ولكن هذا

التأثير أخذ فيما بعد يتناقص بعودة الملكة العربيـة حين عاد العرب إلى تراثهم يحيونه وإلى لغتهم يتدارسونها وإلى أدبهم القـديم يبعثونه من مرقده ، ومع ذلك فقد بقيت لهذه اللغات الأجنبية الحديثة آثار سنرى أمثلة منها .

ما ألف في الموضوع :

وقد كتب اللغويون منذ القرن الثاني للهجرة في تصحيح ما يقع النـاس فيه من خطأ وتوالت التآليف حتى العصر الحاضر في هذا الباب ومن أقـدم ما ألف فيه كتاب لحن العامة للكسائي (توفي ١٨٩ هـ) وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت (٢٤٤ هـ) وابن قتيبـة في كتابه أدب الـكاتب ومما ألف أيضاً درة الغواص في أوهـام الخواص للحريري القاسم بن علي صـاحب المقامات المتوفي (٥١٦ هـ) وشرحه شهاب الدين الخفاجي المتوفي (١٠٦٩ هـ) كما خصص السيوطي في المزهر فصلاً لمعرفة المولد ضمنه ما تخطىء به العامة .

وكتب في هذا الموضوع في هـذا العصر منذ أوائل النهضة عـدد من اللغويين والمشتغلين بقضـايا اللغة كتباً ونشروا مقالات كثيرة في المجلات وجرت بينهم مناظرات ومناقشات منهم ابراهيم اليازجي ومعروف الرصـافي ومصطفى الغلاييني وابراهيم المنذر وسليم الجندي وأحمد العوامري وغيرهم ومن أجمع ما كتب في هـذا الباب وأحسنـه تأليفاً كتاب (أخطاؤنا في الصحف

والدواوين) للأستاذ صلاح الدين سعدي الزعبلاوي وقد طبع عام ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م بدمشق .

أنواع الأخطاء وتصنيفها :

يجدر بنا أن ننظر في أنواع هذه الأخطاء فذلك أولى من سردها على أنها مفردات منثورة لا ينظمها ناظم ولا يضبطها ضابط وأدعى لمعرفة مواطن الخطأ وضوابط التخطئة والتصحيح . والخطأ يمكن أن يقع في الكلمة المفردة أو في تركيب الكلام . والخطأ في الكلمة المفردة يمكن أن يكون خطأ في معناها أو في لفظها أو في صيغتها أو في أصل وجودها . وسنورد فيما يلي أمثلة من هذه الأنواع على سبيل التمثيل لا الحصر .

١ — فمن الألفاظ المستعملة ما لا يصح استعماله لأنه لا أصل له في اللغة وليس هو من المعرب الذي دخل اللغة أو المولد عن طريق الاشتقاق وفي اللغة ما يغني عنه وذلك مثل كلمة (الطقوس) ويقابلها في العربية الشعائر والمناسك وكلمة (كرّس) وليس في اللغة إلا الانكراس بمعنى الانكباب فقولهم كرس جهوده لعمل كذا صوابه أن تقول جمعها أو قصرها على كذا أو انكب على كذا أو انصرف إليه و(الصدفة) والصواب المصادفة و(صدف) وصوابها صادف و (تمن) وهو خطأ صوابه أمعن النظر وتأمل . و (برد

والمبررات) وصوابها سوغ فنقول مما يسوغ هذا العمل ويجيزه واحتج لعمله بكذا .

٢ — ومن هذه الألفاظ ما نجد له بعض المسوغات وإن لم يكن في الأصل صحيحاً كلفظ تلاشى وقد نحتوها من لا شيء وهي مولدة في عصر متأخر . والأهمية وهي لفظ منسوب إلى أفعل التفضيل مع تاء الاسمية وهي غير فصيحة والفصيح أن تستعمل بدلاً منها الشأن والخطورة .

٣ — الخطأ في ضبط الألفاظ . ومن ذلك خطأ كثير من الناس في ضبط بعض الألفاظ مما نذكر صوابه أولاً تثبيتاً له في الذهن كبعض الأفعال الثلاثية مثل نضِج بالكسر ينضَج بالفتح نضجاً لا نضوجاً وصعِد يصعَد كذلك بكسر ففتح ورجَع يرجِع ومثلها عرَف يعرِف وشَلت يده بالبناء للمعلوم وعُرض الحائط جانبه بالضم وقطعه إرْباً إرْباً بتسكين الراء والرَدَح من الزمن بفتحتين واستُهتِر بالشيء بالبناء للمجهول افتتن به وأولع والوَفَيات جمع وفاة بفتحتين ولا حَراك به بفتح الحاء وشَغاف القلب وعَنان السماء ولا غَناء[1] به كلها بالفتح وكذلك طَوال شهر وأماطِوال بالكسر فجمع طويل والعِيان بمعنى المعاينة بكسر العين والرِفاء في قولهم بالرفاء والبنين بمعنى الوفاق والجمع

(١) وهي اسم مصدر من أغنى يغني واما الغناء بالكسر فاسم مصدر من غنى يغني .

والشغْب بتسكين الغين والرَقْم بتسكين القاف وجَوْعان بفتح فسكون والأُهْبَة بضم فسكون والفج بكسر الفاء والعلاقة بفتح العين للصلة المعنوية وبالكسر لما يعلق به كعلاقة السيف والروع بالضم بمعنى النفس وبالفتح الخوف ولا يفرق بعضهم بين نَفَذ السهم ينفُذ بالذال المعجمة بفتح فضم ونفِد الزاد ينفَد بالدال المهملة وهي بكسر ففتح ولم يُحِر جواباً من أحار يُحير بمعنى أرجع والحنجرة بفتح الحاء والجيم والإخْصائي بكسر الهمزة وتسكين الخاء من أخصى يخصي بمعنى اختص .

٤ — ومن أنواع الخطأ الخطأ في صيغ بعض الألفاظ والعدول بها عن وجهها الصحيح :

ومن ذلك الخطأ الفاضح في جمع مدير على مدراء والمفتي على المفاتي والمدير اسم فاعل من أدار على وزن مقيم ومفيد ومريد وجمعها للمذكر السالم مديرون وكأنهم توهموا أنها على وزن كريم وشريف والمفتي اسم فاعل من أفتى فوزنها كذلك مفعل وتجمع على مفتين ومثلها المشكلة من أشكل فتجمع على مشكلات لأن مفعل لا تجمع على مفاعل إلا ألفاظاً قليلة نادرة وردت عن العرب كالمراضع والمطافل والمساكن والمذاكي . ولفت النظر من لفت يلفت الثلاثي لا من الرباعي وفسح المجال يفسحه والافساح لغة غير فصيحة . وخِصّيصَى

على وزن فعيلى بالألف المقصورة دون تنوين ومؤنث الملآن ملأى لا مليئة واسم المفعول من باع وصان وقاد مبيع ومصون ومقود وخلاف ذلك خطأ فلا يقال مباع ومصان ومقاد واسم المكان من صاف مصيف بكسر الصاد وتقول ملأه وهاجه وشغله ولا تدخل عليها الألف . والحماسة بالتاء لا دونها وجمع الزهر أزهار لا زهور والوادي أودية لا وديان والسيد سادة لا أسياد والحاجة حاجات لا حاجيات والحاجيات منسوبة إلى الحاجة والحاجي في مقابل الكمالي وهو غير الحاجة والأوائل جمع الأول والأولى لا جمع الآلة فهي تجمع على آلات .

٥ — الخطأ في معاني الألفاظ: وذلك بنقلها إلى معنى آخر نقلاً لا تجوزه أساليب اللغة وقواعد البلاغة ووضعها في غير موضعها كقولهم (تنفس الصعداء) ومعناه الصحيح تنفس تنفس الإنسان في الصعود أي لقي شدة وعسراً والصعداء مصدر بمعنى الصعود وعامة الناس يستعملونها بعكس هذا المعنى يريدون الراحة واليسر . و (رضخ) ومعناها قطع وكسر وأعطى والأصل في معانيها كسر النوى والعظم وغيرها من اليابس ومنها رضخ رأس الحية ورضخ له من ماله كأنه كسره واقتطع منه قطعة وأعطاه إياها . والناس يستعملونها بمعنى خضع وليس ذلك من معانيها عند العرب ولا وجه له .

و (العائلة) مؤنث العائل وهو الفقير ويستعملها الناس بمعنى الأسرة والعيال. ويقولون (يلزمني) من المال كذا يريدون احتاج إلى كذا ويعوزني المال. وهو خطأ ومعناها الصحيح يظهر لك في مثل قولهم وأولادك تلزمك نفقتهم وعلى هذا يكون المعنى الصحيح لقولك لزمني مال كان معي أي صحبني ولم يفارقني هذا المال وأما استعمال المناطقة لهذه الكلمة في مثل قولهم وهذا الأمر من لوازم هذا فصيح منقاد للأصل . و (الوجدان) مصدر وجدت الشيء وهو ضد الفقدان ومنه قول المتنبي :

يا من يعز علينا أن نفارقهم   وجداننا كلَّ شيء بعدكم عدم

واستعمالها بمعنى الضمير والشعور الخلقي غير صحيح ولا مسوغ له ويجوز أن تستعمل في بعض ما تستعمل له كلمة conscience الفرنسية في الفلسفة وعلم النفس بمعنى شعور الإنسان بنفسه ووجدانه لها إذا اصطلح على ذلك وهو قريب المأخذ من الناحية اللغوية .

و (الفشل) معناه الضعف ومنه قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا) والناس يستعملونها بمعنى الإخفاق وضد النجاح . ويستعملون كلمة (قاصر) في موضع (مقصور) والقاصر العاجز والصغير وتقول قصرت عملي على كذا فعملي مقصور عليه . (والعتيد) المهيأ لا المرتقب . و (طالما) تستعمل للتكثير

فتقول طالما زرته أي ما أكثر ما زرته ويستعملها بعض الناس للتعليل خطأ وكلمة (أمضى) متعدية تفيد معنى الانجاز والتنفيذ كقولك أمضى البيع والعقد والأمر ويستعملونها خطأ في مكان قضى في عمله شهراً ويجوز أن تقول مضيت في مكاني شهراً . ومن الألفاظ ما يتبدل معناه تبدلاً لا تأباه لغة العرب ومنه ما يكون قريب المأخذ منقاداً لأصل صحيح ومنساقاً مع أساليب العرب في المجاز أو التعميم أو التخصيص كاستعمال لفظ الصادر والوارد للبضاعة والرسائل ومنه ما يقبل بشيء من التأويل والتوسع وقد يكون غيره أحسن منه وأفصح وذلك كاستعمال (الشخص) والأشخاص لمطلق الإنسان والناس والشخص في الأصل سواء الإنسان وغيره تراه من بعيد وكل شيء رأيت جثمانه فقد رأيت شخصه . الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص[1] وأما إطلاق هذا اللفظ على الفرد من البشر مطلقاً فاستعمال جديد يفسد علينا فهم كثير من النصوص القديمة كقول عمر بن أبي ربيعة :

فكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

أي ثلاثة أجسام أو هياكل شاخصة فتطلق كلمة الشخص على الإنسان

(١) لسان العرب مادة شخص .

باعتباره جسماً شاخصاً يرى من بعيد دون أن يعرف بالذات كما يطلق على غيره أيضاً كأن تقول : رأيت شخصاً من بعد فاقتربت منه فوجدتـه فرساً وتقول سمعت صوته ولم أر شخصه أما استعمال الناس لها اليوم فيمكن أن تستبدل بها كلمات أخرى كقولك رأيت ثلاثة أفراد وأعطيت لكل نفر منهم حصته ولكل فرد من الناس حق الحياة .

ويستعمل الناس اليوم (الامتياز) بمعنى التفوق والأفضليـة وهي في الأصل بمعنى انفصال الشيء عن غيره فتقول مزت الشيء أميزه أي فصلتـه فامتاز أي انفصل ومنه قوله تعالى « فامتازوا اليوم أيها المجرمون » أي إنفصلوا ولما كان الانفصـال إنما يكون لسبب أو صفة تجعل الشيء منفصلاً عن غيره فقد اقترن بالامتياز معنى الاختلاف والتبـاين ثم انتقلوا من ذلك إلى معنى التفضيل وهو معنى حادث مشتق من المعنى الأصلي الذي هو التفريق والفصل .

ومن الألفاظ التي استعملت في معنى جديد وغيرها أفصح منهـا وأصح وهي متولدة من تأثير بعض اللغـات الأجنبيـة (اعتنق) فيقولون اعتنق الإسلام أو المسيحيـة والعرب تقول دان بالإسـلام أو اتخذه ديناً أو دخل في الإسلام وأما تعبير اعتنق ديناً أو مذهباً فترجمة حرفية لكلمة embrasser الفرنسية

وكذلك كلمة (تبنى) فكرة أو خطة فهي ترجمة حرفية لكلمة adopter والعرب يقولون ذهب هذا المذهب وأخذ به وارتآه .

٦ – *الخطأ في التعابير والتراكيب* : ومن هذا الباب الخطأ في التعدية وفي استعمال بعض الحروف والأدوات النحوية في غير مواضعها وقد نشأ بعض ذلك بتأثير إحدى اللغات الأجنبية من ذلك أن امر تتعدى بي لا بعلى وتعود واعتاد لا تحتاج إلى حرف لتعديتها فتقول *تعودته واعتدته* وكذلك *كلفته الأمر ويكفيه الأمر وحاز الشيء وتحريته* كلها لا تحتاج إلى حرف للتعدية وتقول *استبدلت بثوبي القديم جديداً* لا العكس فتدخل الباء على الشيء المتروك *واستقلته سيارة* وأقلته أي حملته ولا يقال استقل هو السيارة .

ومن التعابير التي يخطىء بعض الناس فيها قولنا ـوهو الصوابـ أشياء مستقل بعضها عن بعض وجماعة يحب بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضاً أو يتقاتلون وبعض الناس يستعملونها على غير هذا الوجه . ومن فساد التركيب أن تقول فعلت نفس الشيء والصواب في هذا الموضع *فعلت الشيء نفسه* وهو من تأثير الترجمة من الفرنسية كقولهم : يشترك هؤلاء في نفس الصفات والصواب يشتركون في الصفات نفسها وقولهم يسكنون نفس البيت والصواب يسكنون بيتاً واحداً أو البيت نفسه .

ومن التعابير الناجمة عن العجمة الجديدة وهي تشف عما وراءها من التعابير الأجنبية قولهم (يوجد) عندنا مال و (يوجد) في البلاد معادن كثيرة والعربي إنما يقول عندنا مال وفي البلاد معـادن كثيرة . ومن ذلك قولهم : اتخذته (كصديق) لي والصيغة العربية لهذا الكلام اتخذته صديقاً والكاف في العربية للتشبيه ولا معنى لها هنا وأما قولنا أنا (كمواطن) لي الحق في . . . فصوابها إنني بصفتي أو باعتباري مواطناً . ومن هذه التعابير التي تنضح بالعجمة وترشح استعمال اللام مع وحـده وهو خطأ فاضح قبيح فتعبير (وحـده) لا تستعمل إلا هكذا وهي منصوبة دوماً على الحالية وقد نشأ الخطأ من الترجمة الحرفية للتعبير الفرنسي . وكذلك قولهم عملت (بصورة حسنة) وكتبت بصورة واضحة والصيغة العربية لذلك عملت عملاً حسناً وكتبت بوضوح .

وهذه الدار مسكونة (من قبل) فلان والفصيح قولك هذه الدار يسكنها فلان . ومن ركيك الترجمة قولهم ظـل يعمل (لدرجة) أنه مرض وأين هذا من الكلام العربي الجميل ظل يعمـل (حتى) مرض . ومما ينبو عنه الذوق العربي السليم استعمال إياه وإياها في مثل قولك المسألة إياهـا أي المسألة المذكورة أو المعهودة أو هي نفسها وهو تعبير فرنسي ومثله قولك

لا أعلم إذا كان نجح والصحيح لا أعلم أنجح أم لا . وتكرار (كلما) للشرط والصواب عدم تكرارها كقوله تعالى : كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً .

ومن الخطأ إدخال اللام في جواب إذا وهي تدخل في جواب لو،وإدخال الواو في قولنا كما أنه وفي قولنا لا بدأ نهوإدخال ال على غيروالصواب أن تقول الصفة غير الشخصية والناحية غير المقبولة .

ومن التعابير المترجمة التي تفوح منها رائحة العجمة قولهم (كم هو جميل) بدلاً من ما أجمله والعرب إذا أرادت التعجب من المقدار أو الكمية استعملت كم كقولك كم كتاب قرأت ! أو قولك كم مرة طرقت بابك ! وإذا أرادت التعجب من الصفة قالت ما أجمله وما أحسنه وما أكثره أو أجمل به وأحسن به ....

ومن الخطأ في التركيب قولهم لا يجب أن تكذب ومعنى هذا الكلام في العربية أن الكذب ليس بواجب وإنما يريد القائل أن يقول يجب ان لا تكذب أي أن عدم الكذب واجب وفرق كبير بين التعبيرين .

هذه نماذج وأمثلة مما يخطىء به بعض الناس من الأخطاء التي شاعت في هذا العصر بسبب ضعف الملكة اللغوية وفشو العامية في العصر الماضي أو بتأثير

اللغات الأجنبية لاتصال المثقفين بها والترجمة والنقل عنها واحتذاء تعابيرها وأساليبها عرضناها لنستطيع إدراك ما نحن فيه من ضعف أو عجمة لنتحرر منهما ونرجع إلى الملكة العربية نقويها في أنفسنا ونروض عليها ألسنتنا وننهل من ينابيع العربية الصافية وأساليبها الفصيحة .

• • •

هذا وإننا بعد أن استعرضنا خصائص الكلمة العربية في أصوات حروفها وبنيتها وقوالبها أو مبانيها وعرفنا الصلة الوثيقة بينها وبين خصائص العرب أنفسهم في تركيب مجتمعهم وتكوين أفرادهم وروابطهم المادية والمعنوية نرجو الله أن يتيح لنا الفرصة القريبة لدراسة الجملة العربية بخصائصها وأنواعها . ومن النظر في هذه الخصائص جميعاً يستبين لنا النهج القويم للتجديد اللغوي فنصل الحاضر بالماضي متوجهين في سيرنا نحو المستقبل مزودين بأداة قوية وألسنة قوية تعبر عن عقول مستنيرة وقلوب مؤمنة ويكون من اجتماع ثلاثتها الاضطلاع بعبء رسالة الانسانية في الوجود .

المراجع العربية (١)

ابن جني — الخصائص ٣ اجزاء

سر صناعة الاعراب

المنصف شرح كتاب التصريف للمازني

ابن خالويه — ليس في كلام العرب

ابن فارس — الصاحبي في فقه اللغة

مقاييس اللغة ٦ أجزاء

ابن قتيبة — أدب الكاتب

ابن منظور — لسان العرب

أبو حاتم الرازي — الزينة

الثعالبي — فقه اللغة

السيوطي — المزهر تحقيق محمد أحمد جاد المولى

حسن صديق خان — العلم الخفاق في علم الاشتقاق (طبع القسطنطينية ١٢٩٦)

عبد اللطيف البغدادي — رحلته إلى مصر المسماة الافادة والاعتبار

أحمد تيمور — السماع والقياس القاهرة

طاهر الجزائري — الكافي في اللغة القاهرة ١٣٢٦ هـ

التقريب في اصول التعريب " ١٩١٩

(١) ذكرنا المراجع المتعلقة بابحاث الكتاب سواء رجعنا إليهـــا في ابحاث كتابنا ام لم نرجع على انه ذكرناه قليل من كثير مما ألف في الموضوع .

جرجي زيدان	الفلسفة اللغوية	القاهرة	١٩٠٤
انستاس الكرملي	نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها	〃	١٩٣٨
عبد الله العلايلي	مقدمة لدراسة لغة العرب	〃	
الدكتور علي عبد الواحد وافي	علم اللغة	〃	
	فقه اللغة	〃	
عبد الله امين	الاشتقاق	〃	١٩٥٦
الدكتور ابراهيم انيس	من اسرار العربية	〃	١٩٥٠و١٩٥٨
	دلالة الالفاظ	〃	١٩٥٨
محمد الخضر حسين	دراسات في العربية وتاريخها	دمشق	١٩٦٠
عباس محمود العقاد	اللغة الشاعرة	القاهرة	
	اشتات مجتمعات	〃	
الدكتور صبحي الصالح	دراسات في فقه اللغة	دمشق ١٩٦٠ بيروت	١٩٦٢
الدكتور ابراهيم السامرائي	دراسات في اللغة	بغداد	١٩٦١
محمود تيمور	مشكلات اللغة العربية	القاهرة	
الامير مصطفى الشهابي	المصطلحات العلمية في اللغة العربية	〃	١٩٥٥
الدكتور تمام حسان	اللغة بين المعيارية والوصفية	〃	١٩٥٨
	مناهج البحث في اللغة	〃	١٩٥٥

المراجع الأجنبية

Vendryes . Le langage 1922

Darmesteter . Le vie des mots . éd . 1937

S . Ullmann . précis de sémantique fransaise Berne . 1952

دور الكلمة في اللغة ترجمة الدكتور كمال محمد بشر

Marouzeau . précis dc stylistque fransaise paris . 1950

La linguistique . Paris 1950

Notre langue . 1955

Cressot . Le style et ses téchniques Paris 1951

M . Schone . vie et mort des mots . Paris 1951

علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الفهرس

صفحة	
٥	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مقدمة الطبعة الاولى
١٤	اللغة ودراستها . علم اللغة
٢١	عناصر اللغة واقسام علم اللغة
٢٤	علم اللغة عند العرب
٢٨	فقه اللغة في العصر الحديث
٣٠	منهج البحث في اللغة :
٣٠	الاستقراء
٣١	المقارنة
٣١	اعتبار التطور في اللغة
٣٦	استنتاج القوانين العامة
٣٩	تسمية علم اللغة
٤٠	فوائد علم اللغة
٤٣	الأصوات اللغوية
٤٣	الجهاز الصوتي وحدوث الصوت
٤٥	مخارج الحروف
٤٩	صفات الحروف واقسامها

صفحة

٥٤ **التبدلات الصوتية**
٥٥ عوامل التبدل وأسبابه
٥٨ قوانين التبدل الصوتي
٦٤ أنواع التبدل الصوتي ومظاهره وقوانينه
٦٩ **الاشتقاق**
٧٣ الاشتراك في الأصوات الأصلية
٧٥ الاشتراك في المعنى العام
٧٨ آراء في الاشتقاق
٨٥ **أنواع الاشتقاق**
٨٥ الاشتقاق الصغير
٨٧ الاشتراك في حرفين . النظرية الثنائية
١٠١ القيمة التعبيرية للحرف
١٠٦ الاشتقاق الكبير
١١٢ **الابنية والاوزان**
١١٥ دلالة الابنية أو معاني الصيغ
١٢٥ أوزان الأبنية ووظيفتها الفنية
١٢٧ الصيغ والأوزان في اللغة العربية
١٢٩ عددها وتصنيفها
١٣٣ أوزان الأسماء وأوزان الأفعال
١٣٦ أوزان الالفاظ الاعجمية
١٣٧ **حياة الابنية**
١٣٧ تعدد معاني الابنية

صفحة

١٣٨ تعدد الصيغ للمعنى الواحد
١٣٩ تولد صيغ جديدة
١٤٠ تطور الأبنية
١٤٧ تكملة لبحثي الاشتقاق والأبنية .
١٤٧ اشتقاق الرباعي والخماسي
١٤٨ النحت
١٤٩ الاشتقاق المركب وتوهم الاصالة
١٥١ الاشتقاق والتصريف
١٥٣ معاني الالفاظ
١٥٨ قيمة البحث في دلالة الالفاظ
١٦٢ عقلية الشعوب في مفردات لغتها
١٦٤ دراسة معاني الالفاظ
١٦٦ دلالة اللفظ على المعنى
١٦٨ الفاظ المعاني Sémantéme والفاظ الارتباط Morphème
١٧٠ عناصر المعنى :
١٧١ المادة الاصلية
١٧٦ أ الحروف الصائتة
١٧٨ ب حروف المد
١٨٠ ج الحركات
١٨١ البناء الصرفي
١٨٢ حياة الكلمة والسياق

صفحة

١٨٥ وضع الالفاظ ونشأة اللغة

١٨٦ أصل اللغات

١٩١ توليد الالفاظ

١٩٣ تعليل الالفاظ

١٩٦ الكلمة رمز وسمة لا تعريف

١٩٨ الاشتراك . الاضداد

١٩٩ الترادف

٢٠٠ التسمية تصنيف

٢٠٢ التسمية تجريد

٢٠٣ الالفاظ والحقيقة

٢٠٦ حياة الالفاظ

٢٠٧ تبدل معاني الإلفاظ وتطورها

٢١١ المعاني ومعاجم الالفاظ

٢١٢ أسباب تطور معاني الالفاظ

٢١٢ أسباب لغوية

٢١٤ أسباب اجتماعية

٢١٥ أسباب نفسية

٢١٦ تبديل الالفاظ الدالة على المعاني

٢١٨ قوانين تبدل معاني الالفاظ وتطورها

٢١٨ التعميم

٢١٩ التخصيص

٢٢٠ الانتقال بسبب المشابهة أو المجاورة

صفحة

خصائص العربية

٢٢٧	مشكلتنا اللغوية
٢٣٠	الوعي اللغوي بين الجمود والحياة
٢٣٣	مراحل الوعي اللغوي
٢٤٦	خصائص العربية
٢٤٩	**الخصائص الصوتية**
٢٦٤	**الخاصة الاشتقاقية**
٢٧٦	**خصائص البناء أو الصيغة**
٢٧٨	الوظيفة المنطقية للابنية
٢٨٠	الوظيفة الفنية للابنية
٢٨٢	موسيقية اللغة العربية
٢٨٤	اثر أوزان الالفاظ في جمال الكتابة العربية
٢٨٤	الصيغ بين الثبات والتطور
٢٨٧	توليد الكلمة العربية
٢٨٨	اللغة العربية والطبيعة
٢٩١	**التعريب**
٢٩٤	اثر العربية في اللغات الاخرى
٢٩٥	تأثر العربية بغيرها من اللغات
٢٩٨	طريقة العرب في نقل الالفاظ الأجنبية
٣٠٢	**خصائص معاني الالفاظ**
٣٠٢	طريقة العرب في وضع الالفاظ وتسمية المسميات
٣٠٦	حياة العرب وتفكيرهم في مفردات لغتهم

صفحة

٣٠٧	اللغة العربية وتصنيف الموجودات
٣٠٨	الحسيات والمجردات
٣١١	صفات الدقة والخصوص والعموم
٣١٤	اقتران الالفاظ وحسن تطابقها
٣١٦	التخصيص والتعميم والدقة
٣١٨	آفة الترادف والعموم والغموض
٣٢٣	العموم والالفاظ العامة
٣٢٤	**تحرير اللغة من الجمود والفوضى :**
٣٢٤	الأخطاء الشائعة . الفرق بين الخطأ والتطور
٣٢٥	التحرر من الجمود
٣٢٦	أسباب الخطأ
٣٢٨	ما ألف في الموضوع
٣٢٩	أنواع الأخطاء وتصنيفها
٣٤٠	المراجع العربية
٣٤٢	المراجع الأجنبية
٣٤٣	الفهرس